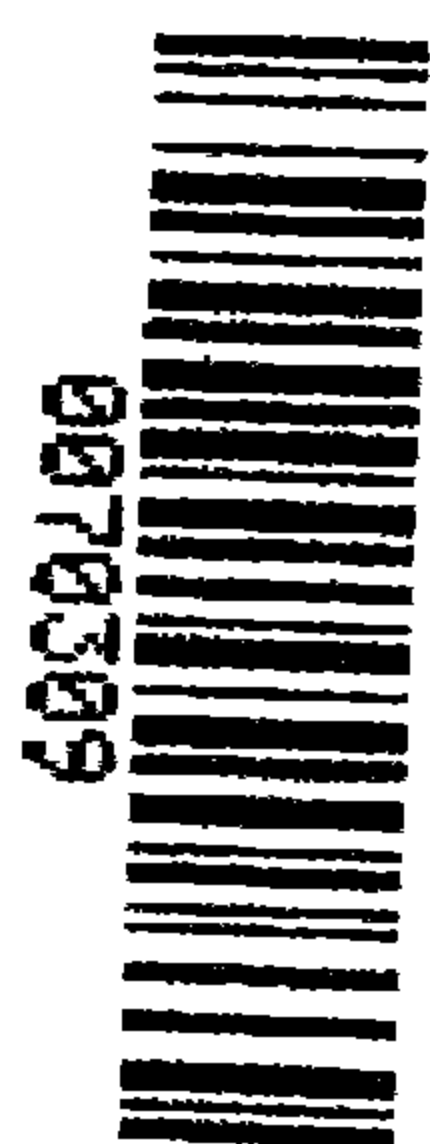
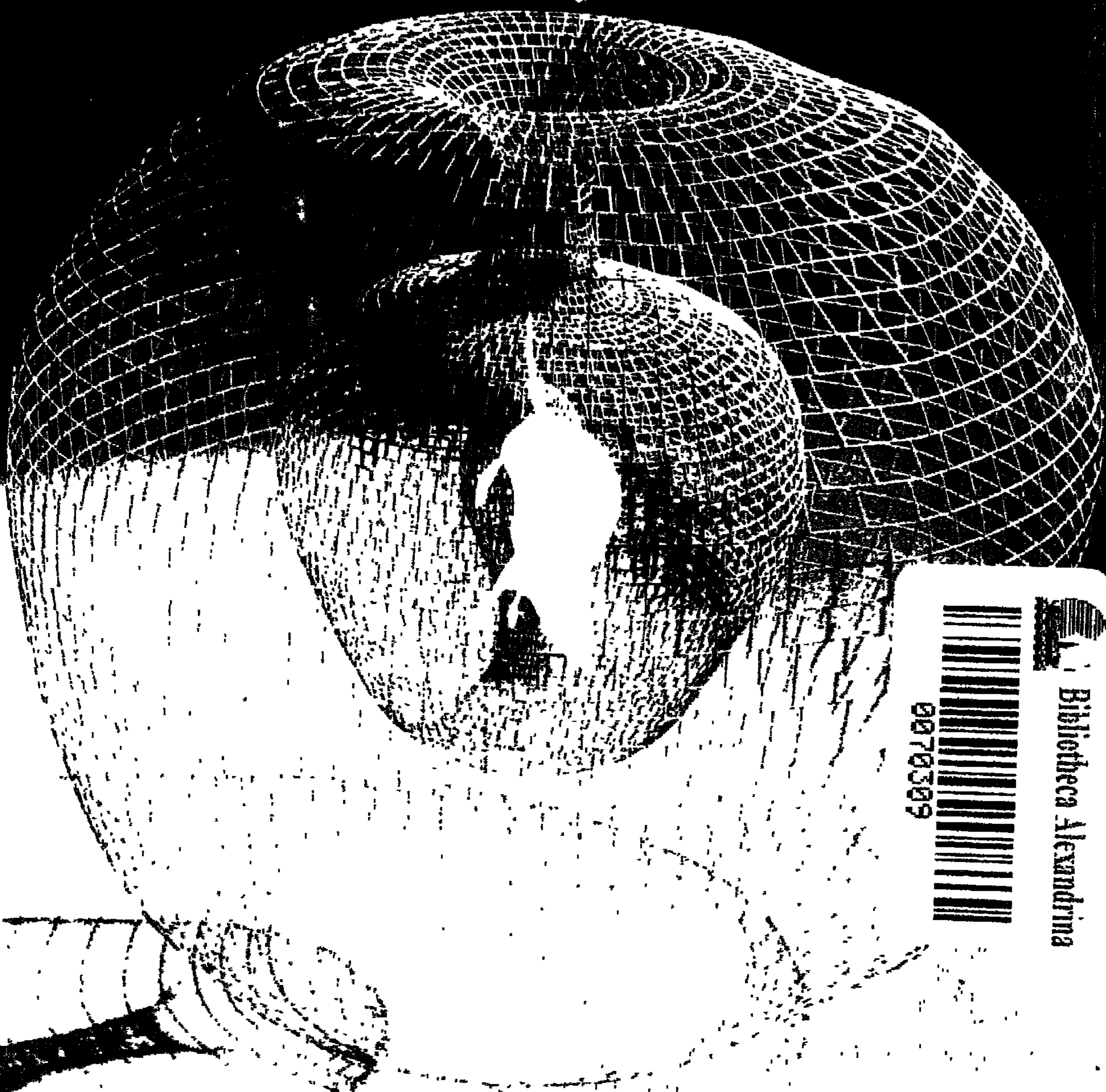


الأشرف  
الكتاب  
٢٤٩

# ميجيل دي ليبس الغفران

(الرواية الفائزة بجائزة النقد الإسبانية)

ترجمة: د. علي عبدالرؤف البمبي



0070309



Bibliotheca Alexandrina



# الفنّان

(الرواية الغائبة بجائزة النقد الأسبانية)

## الألف كتاب الثاني

---

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

لمياء محرم



# الفنّان

(الرواية الفائزة بجائزة النقد الأدبية)

تأليف

ميجيل دي ليبس

ترجمة

د. علي عبدالرؤف الحموي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرواية :

**LAS RATES,**

تأليف الكاتب الإسباني

*Miguel Delibes*

## فهرس

الصفحة	الموضوع
	دراسة تمهيدية
٧	البعد الانساني فى رواية (الفئران)
٣٥	الفئران
٣٧	الفصل الأول
٤٦	الفصل الثانى
٥٥	الفصل الثالث
٦٤	الفصل الرابع
٧٢	الفصل الخامس
٨١	الفصل السادس
٨٩	الفصل السابع
١٠٠	الفصل الثامن
١١٠	الفصل التاسع
١٢٢	الفصل العاشر
١٣١	الفصل الحادى عشر
١٣٩	الفصل الثانى عشر
١٥٠	الفصل الثالث عشر
١٦٠	الفصل الرابع عشر
١٦٨	الفصل الخامس عشر
١٧٨	الفصل السادس عشر
١٨٩	الفصل السابع عشر



## دراسة تمهيدية

### البعد الانساني فى رواية « الفئران »

قبل الحديث عن البعد الانسانى فى رواية « الفئران » ،  
التى بين أيدينا ، ينبغى أولا التعريف بالكاتب الذى تلتصق  
شخصيته وتتناغم مع شخصيات عالمه الروائى .

صحيح أن الحديث عن كاتب كبير مثل «ميجيل دى ليبس»  
أو مجرد القاء الضوء على رد فعله تجاه العالم المحيط به أو  
الإشارة الى ضميره الاجتماعى يحتاج الى مؤلفات عديدة ، وقد  
تم هذا بالفعل من خلال مجهودات كثير من الباحثين  
والمتخصصين داخل أسبانيا وخارجها .

لكن ما تقدم ذكره لا يعفى من ضرورة إبراز الحقائق  
المهمة فى حياة هذا الكاتب ، لكى يتعرف عليه القارئ  
العربى بشكل مناسب .

يعتبر «ميجل دى ليبس» من أهم الروائيين الأسبان بعد  
الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، بل ان معظم النقاد يفضلونه  
على « كاميلو خوسيه ثيلا » الحائز على جائزة نوبل فى الأدب  
لعام ١٩٨٩ ، والذى ينتمى لنفس جيله . وبالطبع فان لكل  
كاتب منهما رؤيته الفنية الخاصة ، وأدواته المتميزة فى طريقة  
القص ، الا أن أسلوب حياة « دى ليبس » المستقيم ومشاعره  
الانسانية العميقة وتعففه عن كل ما هو زائف ومصطنع  
واحساسه المرهف بأوجاع وأنات المظلومين - فى أقصى  
فترات التاريخ الأسباني المعاصر - قد جعلت منه أنموذجا

يحتذى لكل من يبغى توظيف ملكاته الفنية في تحرير جوهر  
الانسان من طغيان المظاهر المادية .

ولد كاتبنا عام ١٩٢٠ في مدينة بلد الوليد (Valladolid)  
( شمال اسبانيا ) ، وتلقى تعليمه الأساسى والثانوى فى  
مدارس كاثوليكية ، واختتم سلمه التعليمى بالحصول على  
درجتى دكتوراه فى كل من التجارة والقانون .

ومن المعروف ان مقاطعة كاستيا ( قشتالة ) ( او ما كان  
يسمى بمملكة كاستيا فيما قبل العصور الوسطى ) ، والتي  
تقع داخل حدودها الجغرافية مدينة بلد الوليد ، كان لها  
تاريخ عريق وعريض . فقد حملت هذه المملكة قديما لواء  
مقاومة الفتح الاسلامى لشبه جزيرة أيبيريا ، وقادت حرب  
الاسترداد التى استمرت أكثر من ثمانية قرون ( أى طوال  
المدة التى مكثها العرب فى أسبانيا والبرتغال ) . وبعد  
سقوط غرناطة العربية خرج كثيرون من رجال مملكة قشتالة  
لاحتلال العالم الجديد .

ولقد كان من نتيجة هذا العبء الحربى الطويل اصابة  
اقتصاد المملكة بالشلل وتدهور معيشة سكانها على خلاف  
المقاطعات الأسبانية ( ويمكن أن نلاحظ صورا عديدة لهذا  
التخلف الاقتصادى والحياتى من أحداث الرواية التى بين  
أيدينا ) . وبالرغم من هذا فان قيمة المقاطعة ( قشتالة )  
الحربية لا تضارع قيمتها الثقافية . فلغة هذا الاقليم :  
القشتالية ( أى الأسبانية ) هى التى أصبحت اللغة الرسمية  
لكل أسبانيا ، وهى التى انتقلت الى العالم الجديد لتصبح  
اللغة الرسمية لسكانه ( باستثناء ثلاث دول فقط هى كندا  
والولايات المتحدة والبرازيل ) . كما أن هذا الاقليم قد دافع  
عن الدين المسيحى وحفظه وعمل على نشره فى جميع أرجاء  
المعمورة .

وبعد أن أوضحنا فى قليل من الكلمات الأهمية التاريخية

والثقافية للاقليم الذى ينتسب اليه كاتبنا نعود لاستكمال حديثنا عنه .

فى عام ١٩٤٤ عمل « دى ليبس » محررا بصحيفة « شمال كاستيا » ودافع من خلالها عن حقوق الفلاحين والفقراء . ولقد كشفت مقالاته المبكرة فى تلك الصحيفة عن اتجاهاته وميوله التى لم تكن أبدا سياسية أو حزبية بل انسانية فى مجملها ، كما كانت تلك المقالات - حتى الزراعى منها - بمثابة البذرة لمواهبه المتعددة كروائى .

وفى عام ١٩٤٥ شغل منصب أستاذ القانون التجارى فى جامعة بلد الوليد ، ثم تزوج فى العام التالى ، وله الآن سبعة من الأولاد .

فى نفس تلك الفترة أقام معرضا لرسوماته ولوحاته فى مدينته ، كما رأس تحرير مجلة شعرية واشتغل بالنقد السينمائى .

و « دى ليبس » يرتبط ( روحيا وعاطفيا وحياتيا ) بمدينته واطليمه ارتباطا وثيقا ، لدرجة أنه قاوم كل الاغراءات للانتقال الى العاصمة مدريد . وفى كل مرة يسافر فيها مضطرا للعاصمة للوفاء بما عليه من التزامات ثقافية ، فانه يحرص على قضاء معظم وقته الشاغر فى أحيائها الفقيرة وبين أناسها البسطاء .

. تتسم شخصية « دى ليبس » - سواء على الصعيد الانسانى أو الأدبى - بالتوازن . وقد أسهمت عدة عوامل تعود الى نشأته الأولى فى هذا التوازن ، نذكر منها : شعوره الدينى العميق ، الاستقرار العاطفى والروحى نتيجة للمحيط الأسرى الهادئ الذى ترعرع فيه ، وحبه وافتتانه بالطبيعة ومعرفته لأسرارها وأدق خباياها ، نتيجة لاتصاله المباشر بها ( فمن المعروف أن « دى ليبس » كان حريصا منذ نعومة أظفاره على اصطحاب والده فى رحلاته الأسبوعية من أجل

الصيد أو للاستمتاع بسحر الطبيعة الأخاذ بعيدا عن ضوضاء  
المدينة ) -

ولقد أدت هذه السمات المبكرة الى تحديد نوعية اهتمامه  
فيما بعد ( مثل الوقوف بجانب المظلومين والبسطاء ، والدفاع  
عن كل ما هو عفوي وانساني ) والى تفضيله للموضوعات  
الخالدة في رواياته ( مثل الحب ، الموت ، العدل الاجتماعي ،  
الطبيعة ، النقائص البشرية ... الخ ) - وهذا ما سنبحثه  
بشيء من التفصيل عند الحديث عن البعد الانساني في رواية  
« الفئران » -

أما أول رواية لكاتبنا فقد ظهرت عام ١٩٤٧ تحت  
عنوان « ظل شجرة السرو الممتد » ، وفازت وقتها بجائزة  
« نادال » الشهيرة -

وبعد هذه الرواية توالى عطاء الكاتب حتى يومنا هذا  
فكتب عشرات الروايات ، بعض كتب الرحلات ، العديد من  
المؤلفات في مجال الصيد والقنص ، مجموعات من القصص  
القصيرة ، والكثير من المقالات والدراسات النقدية -

كما نال العديد من الجوائز الادبية : فبالاضافة لجائزة  
« نادال » التي فازت بها روايته الأولى ، حصلت رواية  
« الورقة الحمراء » على جائزة مؤسسة « خوان مارش » ،  
وفازت « يوميات صياد » بجائزة الدولة في الأدب ،  
و « القيلولة وريح الجنوب » بجائزة الأكاديمية اللغوية  
الملكية ، و « الفئران » بجائزة النقد ، ... الخ -

وكان بإمكانه الفوز بجوائز أكثر من التي حصل عليها  
لولا احجابه عن الاشتراك في المسابقات الأدبية المختلفة  
حفاظا على كرامته ، ولاحساسه العميق بمدى قيمته ككاتب ،  
ولافساح المجال أيضا للكتاب الشبان - ولقد أشار الى هذا  
صراحة في حديث له مع الناقد « ألونسو دي لوس ريوس » :



« أعتقد أنني في هذه الظروف وفي مثل هذه السن أحسن صنعا بمنافستي لشاب في أول طريقه الروائي ؟ » .

ولأهمية « دى ليبس » ولمكانته الكبيرة في عالم الرواية الأسبانية فقد منحته الدولة جائزة « أمير أستورياس » في الأدب ، وجائزة الدولة التقديرية ، كما تم اختياره منذ بداية السبعينيات عضواً بمجمع الخالدين ( الأكاديمية اللغوية الملكية ) . أما أعماله فقد ترجم معظمها لكل لغات العالم الحية .

أما بالنسبة للإنتاج الروائي لكاتبنا ، فقد اعتاد النقاد الفصل بين مرحلتين مختلفتين فيه : فالمرحلة الأولى ، التي تضم الأعمال التي كتبت قبل ١٩٥٠ ، تتميز بالميل إلى التحليل الداخلي والفحص الباطني ، وإدراج شخصيات أنانية لا تعنى إلا بشئونها الخاصة حتى لو تعارضت مع المصلحة العامة للمجتمع ، وعدم خروج فن القص فيها عن المؤلف في التراث الروائي الأسباني .

أما المرحلة الثانية ، التي تشتمل على ماكتب بعد ١٩٥٠ ( الطريق ، يوميات صياد ، القيلولة وريح الجنوب ، خمس ساعات مع « ماريو » ، البندقية على الكتف ، الفئران ، يوميات مهاجر ، الورقة الحمراء ، الأمير المخلوع ، عام من حياتي ، القضبان ، الرحيل ، حروب الأجداد ، الصوت المشكوك فيه للسيد « كايو » ... الخ ) ، فتتميز بالتحديث والموضوعية وبساطة السرد وطفيان الشعور الانساني . كما تكتسب فيها الشخصيات والمواقف والأجواء أهمية تفوق الأفكار والموضوعات . صحيح أن هذا التغيير من جانب المؤلف لم يحدث فجأة ، بل تدريجياً لأن كل عمل يضيف بعض الملامح والسمات الجديدة .

ويرى « رامون بوكلاي » أن الفن الروائي لكاتبنا يمثل اتجاهاً وسطاً بين الاتجاهين المتقابلين اللذين تتأرجح بينهما

الرواية الأسبانية بعد الحرب الأهلية : « الموضوعية » ،  
« الذاتية » . وقد أطلق على هذا الاتجاه الوسط مصطلح :  
« الانتقائية » .

وتعنى « الانتقائية » تمتع المؤلف بضرب من الاستقلال  
عند ملاحظة وتفسير الواقع ، أو خلق نوع جديد من الواقع  
من خلال منهج انتقائي للمواد الخارجية ، يسمح للمؤلف  
بالإحاطة بكل صغيرة وكبيرة لكنه يظل محتجبا ، ويؤدى  
احتجابه هذا الى سهولة قبول القارئ لوجهة نظر الراوى  
( المؤلف ) .

وهذا النوع ( المنهج الانتقائي ) يختلف عن المنهج  
الموضوعي ( أو الموضوعية ) والذي يتحول فيه المؤلف ( مثل  
« ألدوكيا » ، « سانتشس فيرلوسيو » ، « كاميلو خوسيه  
ثيلا » . . ) الى عدسة لآلة التصوير السينمائي .

كما يختلف أيضا عن المنهج الذاتى ( أو الذاتية ) التى  
سار على نهجها جيل الستينيات ( أمثال : « خوان جويتيسولو » ،  
و « آنا ماريا ماتوتى » ، و « مارتين سانتوس » . . . الخ ) ،  
حيث يخلق المؤلف عالمه الخاص ، وهو عالم لا يقره  
ولا يتقبله القارئ الا اذا استبدل بموقعه موقع المؤلف .  
وخلق عالم خاص يعنى صياغة المؤلف لعالم غير واقعى ،  
لكنه تفسير للواقع من خلال منظور جديد .

### ١ - أهم موضوعات الرواية :

لا يهتم « دى ليبس » بصياغة نظريات حول المجتمع ،  
بل يهتم - فى المقام الأول - بالانسان بعامة من خلال اهتمامه  
بالفرد وعلاقته بالمحيط الذى يعيش فيه . وجل شخصياته  
عبارة عن أناس متواضعين ، فقراء أنهكتهم المحن ، ويعيشون  
- غالبا - فى صراعات مختلفة مع مجتمعهم . ومن الموضوعات

المطروقة فى كثير من رواياته وتحتل مكانا بارزا فى رواية  
« الفئران » ، نذكر ما يلى :

### ( ا ) الطفولة :

يولى « دى ليبس » اهتماما كبيرا بموضوع الطفولة .  
فهو يعتقد أن الأطفال والأشخاص البدائيين يقدمان للفاحص  
المهتم وجها بلا قناع ، على طرف نقيض من زيف أهل الحضرة  
الذين يعيشون أسرى للميكنة والمخترعات الحديثة .

كما يعتقد المؤلف أيضا أن طرح المشاكل البشرية من هذا  
المنظور يضيف عليها بعدا انسانيا بارزا . ومن تم فقد  
اختار لبطولة هذه الرواية صبيا ( النينى ) لا يتجاوز عمره  
الحادية عشرة . انه صبي فقير يعيش مع والده ( الراتيرو )  
فى مقارة ( أو كهف على قمة ربوة عالية ) ، ويتمتع بذكاء  
خارق وبمعرفة لا حدود لها بالنسبة لكل ما يتعلق بالطبيعة  
وما يوجد عليها ( من حيوانات وأشجار ونباتات وطيور  
.. الخ ) . صحيح أن الصبي تعلم الكثير من العم « روفو »  
العجوز ( احدى شخصيات الرواية ) لكن القسط الأكبر من  
معرفته يرجع لدقة ملاحظته ومراقبته الواعية لكل مظاهر  
الطبيعة وتحولاتها المختلفة . ولهذا كان يلجأ اليه سكان  
القرية جميعا لطلب المشورة وحل المشاكل التى تعترضهم  
سواء آكانت متعلقة بحقولهم وما عليها من مزروعات أم  
بحيواناتهم وطيورهم الداجنة . الخ ، فيقدم لهم « النينى »  
طائعا الحسول والنصائح والمقترحات الايجابية قانعا  
بالقليل الذى يجودون به عليه .

والأهم مما تقدم أن المؤلف يدافع من خلال « النينى »  
عن أفكاره حول التقدم والمدنية الحديثة وتحسين سبل الحياة  
فى الريف الأسبانى . ففى أكثر من مناسبة - فى الرواية -  
حاولت « دونيا ريسو » ( احدى الشخصيات ) الجاق « النينى »  
بمدرسة كى يتعلم ويحصل على شهادة من أجل مستقبل

أفضل ، لكن الصبي - ومن بعده والده - رفضا العرض  
رفضاً قاطعاً ، ولم يتزحزحاً عن موقفهما هذا قيد أنملة  
( انظر الفصل التاسع من الرواية ) -

ويأتى رفض الصبي نتيجة لاقتناعه وسعاده بما يعرف  
عن الطبيعة من أسرار ، ولأنه لا يحب « التقدم » الذى يتطلب  
اقتلاع جذور الانسان الفطرية والهجرة الى عالم لا يريده ،  
الى عالم يكتظ بالمخترعات ( الآلة ) التى تقضى على استقلالية  
الأفراد وتصهرهم فى قالب واحد يسهل التحكم فيه سياسياً  
واقتصادياً واجتماعياً وإدارياً : ففى إحدى المرات طلب  
« الروسالينو » (شخصية أخرى) من « النينى » أن يضرب بيده  
على ( الكاربورتور ) لأن محرك السيارة يقطع ، وعندئذ  
أجاب الصبي محركاً كتفيه من الارتباك : « عن هذا لا أعرف  
شيئاً ، يا سيد « روسالينو » ، انه من المخترعات » -

ولا يعنى ما تقدم أن « دى ليبس » ضد التقدم فى حد  
ذاته ، بل انه يرفض أن تسحب الآلة البساط من تحت قدمى  
الانسان . فقد تحكمت الآلة فى الفرد بشكل أدى الى فقدانه  
لحرية وذاتيته ، وحولته الى حيوان تتحكم فيه غرائزه  
وشهواته .

ويطلب « دى ليبس » من خلال رفض « النينى » للفرصة  
التي أتاحتها له « دونيا ريسو » ( الذهاب الى المدينة للالتحاق  
بمدرسة ) ضرورة تحسين مستوى الحياة فى القرية . فبدلاً  
من الهجرة الجماعية الى المدن للاستمتاع بالتطور الحضارى  
والرفاهية المادية يجب نقل هذه الوسائل الى الريف ، ومحاربة  
الفقر المدقع والجهل والحياة غير الكريمة لسكانه . ولقد  
ذكر المؤلف هذا صراحة عند حديثه عن بطل الرواية :

« . . . » « النينى » نوع من الضمير الاجتماعى . وصفنى  
البعض بالرجعية لرفض الصبي ترك القرية والذهاب الى  
مدرسة فى المدينة . لقد أردت الإشارة الى وجود أشخاص  
يحبون الحياة الريفية ويميلون اليها ، فعلينا ألا نقاوم هذا

لأن الوضع الحالى لا يجبد مثل هذا التصدى - فقد يضطر البعض للهجرة الى المدينة فى الوقت الذى تعجبه فيه حياة الريف ، فهل لهذا من مقابل ؟ ما يجب عمله ، والكفاح من أجله هو تحسين ظروف الحياة البائسة فى الريف حتى يمكن الاستمتاع بالتطور الحضارى والرفاهية المادية دون الحاجة لترك القرية » .

وبالإضافة لمطالبة المؤلف الفورية بتطوير الريف ، فانه ينتقد سلوكيات الكبار من خلال « النينى » الذى يتمتع باحساس مرهف ويكره الموت فى كل صوره وخاصة القتل الفادر المستهتر للحيوانات - فالصبي - الذى يمتهن الصيد مع والده - لم يكن يقبل قتل الحيوانات الا لضرورة استمرار بقاء النوع البشرى - وعلى خلاف هذا كان « ماتياس ثليمين » ( المختلس ) - وهو رجل ناضج وفى كامل قواه العقلية - لا يحترم مواسم الحظر فى الصيد ولا يتورع عن قتل الحيوانات الصغيرة غيلة وفى استهتار خالغ العذار - ومن الأمثلة الكثيرة التى تبين غلظة هذا الرجل وقسوته نشير الى قتله لثعلبة حديثة العهد بالولادة وافتخاره بهذا الصنيع أمام « النينى » - وذات مرة ، اكتشف « النينى » فى إحدى جولاته بالجبل ، ثعلبا صغيرا لا يتعدى الأسبوعين من العمر ماتت عنه أمه فعمله الى المغارة وتعهده بالرعاية حتى أصبح كفرد من العائلة ، لكن « ماتياس ثليمين » تسلل الى المغارة فى غياب الصبي وأرداه قتيلا وجرى بالثعلب المقتول وهو يصبح ويضحك كالمجنون .

فالمؤلف - كما نرى - ينتقد سلوكيات الكبار من خلال مقارنتها بتصرفات صبي صغير ، وهذا بهدف تضخيم سلبيات الكبار وإثارة الإشمئزاز منها .

## (ب) العدل الاجتماعى :

يولى كاتبنا هذا الموضوع عناية خاصة فى كل أعماله . وهذا شىء طبيعى اذا عرفنا أن «دى ليبس» يهتم على الصعيدين الشخصى والأدبى بحاضر ومستقبل البسطاء والفقراء والمعديين فى الارض . وينبع هذا الاهتمام من حبه العميق للأخرين ومن اتصاله المباشر بالفقراء ، وخاصة بفلاحى المناطق الأشد قحولة وقسوة فى اقليم قشتالة ( موطنه ) . ونذكر فى هذا المقام أن «دى ليبس» أخذ على عاتقه ، عندما كان يتولى رئاسة تحرير مجلة « شمال كاستييا » ، مسؤولية الدفاع عن حقوق الفلاحين والفقراء فى الريف الأسباني مما أدى الى اصطدامه ، فى النهاية ، بالإدارة الحكومية وإلى إقالته من منصبه . وحبه للمستضعفين والفقراء قد ملك عليه قواده ، وقد أشرنا فيما سبق الى أنه عندما يذهب الى العاصمة مدريد لأمر ثقافى مهم ، يفضل شغل وقت فراغه بالانجول فى الأحياء الفقيرة والتحدث مع ساكنيها .

انه يأن شك كاتب « ملتزم » - اذا أخذنا فى الاعتبار رد فعله تجاه العالم المحيط به - ، لكن التزامه لم يوقعه فى التشهير أو الاتهامات الصاخبة التى تتميز بها الرواية « الاجتماعية » .

انه التزام من نوع خاص حيث يهتم فيه بإبراز القيم التى تعتمد على الكرامة ، الأخاء ، المساواة ، وحقوق الإنسان فى العيش الكريم على سطح الأرض . ويؤكد رفض المؤلف للظلم الاجتماعى فى رواية « الفئران » على أهمية القيم المشار إليها والتى تأخذ طابعا مختلفا فى هذه الرواية .

يعتقد « دى ليبس » - بداية - أن هيككل المجتمع الأسباني به خلل واضح فيما يخص توزيع الأراضي الزراعية : فبجانب القلة التى تمتلك الكثير ، يوجد الكثيرون الذين يملكون القليل أو لا يملكون شيئا على الإطلاق ، ومن ثم فانه

ضد هذا التوزيع غير العادل - ففي قرية « النينى » - التى تدور فيها أحداث الرواية - نجد أن « دون أنتيرو » يملك وحده ثلاثة أرباع أرض القرية الزراعية ، بينما تمتلك « دونيا ريسو » والسيدة « كلو » ثلاثة أرباع الربع الباقي ، وما بقى من الأرض موزع مناصفة بين « البرودن » والثلاثين فلاحا الموجودين بالقرية .

ولم يمنع هذا الظلم الواضح والفادح « دون أنتيرو » من التشدد فى مسامراته بالمدينة بأن ما يفعله لقريته من خير يوازى التوزيع العادل للأرض . ولا شك أن المؤلف يسخر من قول « دون أنتيرو » الأخير لأننا لا نرى ولا نحس طوال الرواية بأى صنيع طيب من جانب هذا الرجل الذى خلع عليه الكاتب لقب El poderoso : أى المقتدر الجبار ، صاحب النفوذ والثروة .

ويرى « دى ليبس » - كضرورة لحل مشكلة التوزيع غير العادل للأرض ، أو للتخفيف منها على الأقل - اقتطاع أجزاء من الأراضى المخصصة للصيد والقنص أو لتربية الحيوانات وتوزيعها على الفقراء الذين يعيشون على هامش المجتمع الريفى .

كما يرفض « دى ليبس » أيضا الظلم الاجتماعى من خلال إبرازه ووصفه الدقيق للواقع البائس لقرى « كاستيا » ( قشتالة ) التى تعاني من الفقر والجهل وإهمال السلطات المركزية .

ومن صور الفقر الشديد فى الرواية نجد أن « النينى » وآباه ( الراتيرو ) يعيشان معا فى مغارة أو كهف على قمة ربوة عالية ، ولا يملكان من الموارد ما يستطيعان به الانتقال الى بيت جديد نظير ايجار زهيد لا يتعدى مائة بيزيتة فى الشهر . وهما يعتمدان فى حياتهما على صيد الجرذان . ولقد وصل الفقر بالراتيرو مداه لدرجة أنه قتل أربعة كلاب

من خمسة أنجبتهم كلبته لانه لا يستطيع اطعامهم ، وقد اضطر للابقاء على الخامس لكى يحل محل الأم التى شاخت ولا تستطيع الوفاء بما عليها من مهام فى الصيد . وبالإضافة لكل تلك الظروف المعاكسة فان مستقبل الاثنين لم يكن مضمونا : فقد ظهر منافس لهما يصيد الجرذان لم يتردد « الراترو » - فى نهاية الرواية - فى قتله دفاعا عن مورد رزقه الوحيد .

اما الجهل فقد كان يضرب بأطنابه فى القرية التى يعتقد سكانها فى الخرافات والخزعبلات ولا يعرف معظمهم القراءة ولا الكتابة .

فلم تكن بالقرية مدرسة وفرصة التعليم الوحيدة التى لاحت فى الأفق كانت لـ « النينى » ، عندما عرضت عليه « دونيا ريسو » الذهاب الى المدينة للالتحاق بالمدرسة ، لكن الصبى رفض العرض دون تفكير أو تردد .

ويتجلى الجهل أيضا فى عدم احترام أهل القرية للقسيس الشاب المتواضع (دون ثيرو) الذى كان يحدثهم عن قضايا اجتماعية فى غاية الأهمية وعلى رأسها قضية العدالة الاجتماعية . لم يكونوا يفهمونه ، ومع ذلك كانوا يقبلون سماعه فقط - وعلى مضض - لأن الأغنياء كانوا يفضبون منه للخوض فى مثل هذه الأمور .

وعلى خلاف ما تقدم ، كان أهل القرية يشتاقون لسماع القسيس القديم ، الكبير الضخم ، (دون ثوسيمو) ويحترمونه لأنه كان يزعم فيهم بصوته الجهورى ويحدثهم فى الموضوعات التى يفهمون فيها مثل المعاصى والآثام التى تقتربها الأعضاء .

ومن صور الجهل والتخلف الأخرى ما حدث لـ «الأجابيتو» عندما صدم بدراجته طفلا ، ولكى يحدد القضاة مدى مسئوليته عن الحادث حولوه الى الأطباء - فى عاصمة الاقليم - بقرض قياس مستوى ادراكه . وبعد أن قام الأطباء باجراء



اختبار له قرروا ان ادراجه لا يتعدى ادراك صبي فى الثامنة من العمر .

ومن جهة أخرى ، فان القرية — شأنها فى ذلك شأن بقية القرى — كانت تعاني من اهمال السلطات المركزية . فلم يقيم مسئول بزيارة القرية الا عندما تناهى الى سمع السلطات ان بالقرية بترولا . وساعتها قام المحافظ بنفسه ، ومعه خيران ، بزيارة القرية للتأكد من صدق الخبر وزف البشرى فيما بعد لأولى الأمر فى العاصمة مدريد ، ولكن الله خيب رجاء المحافظ وعاد بنفى حنين بعد اكتشاف الخبرين لزيف النبوءة ( انظر الفصل الثانى عشر ) .

وبالاضافة الى هذا الظهور العارض والبراجماتى للسلطات المركزية ، فان « خوستيتو » ، العمدة ، ( الذى يقيم بنفس القرية ) قد حاول مرارا ، بأمر من المحافظ ذاته ، اجلاء « الراتيرو » وابنه عن المغارة وهدمها من أجل الحفاظ على مظهر الاقليم وسمعته أمام السياح الأجانب ، ( انظر الفصول السابع ، الثانى عشر ، السادس عشر ) .

وكما نرى ، فان تدخل السلطات فى الحالة الأخيرة لم يكن لصالح القروى الفقير ، بل للاضرار به لمجرد تحسين الصورة الخارجية أمام أجنبى جاء ليتسلى بالتقاط بعض الصور .

ودون الخوض فى أمثلة أخرى — وهى كثيرة ويمكن أن يتعرف عليها القارئ بنفسه — نود الإشارة الى أن « دى ليبس » قد رفض كل أشكال وصور الظلم الاجتماعى من خلال إبراز مشاكل الريف والفلاحين المقهورين ، والتعبير عن آلامهم وهمومهم وآمالهم بلغة واضحة ومباشرة مثل التى يتحدث بها أى فلاح منهم .

### (ج) الطبيعة :

يؤمن كاتبنا بأن الطبيعة تجمع بين كل ما هو أصيل وعفوى ، ويعتبرها ثقلا ضروريا لمجابهة التقدم البارد غير

الانسانى ، لأنها خرجت من نفس الرحم الذى خرج منه  
الانسان .

ولقد تعلم هذا الحب للطبيعة منذ صغره عندما كان  
يخرج بصحبة والده فى رحلات الصيد الأسبوعية : « أحببت  
– يقول « دى ليبس » – الحقل شيئاً فشيئاً ، يخضوع واذعان  
فى البداية ، مدفوعاً بعد ذلك بالرغبة فى المعرفة ، ثم تحول  
الحب الى شغف وأخيراً الى رغبة عارمة . لقد ملكت الطبيعة  
على كل حواسي » .

ولقد دفع اهتمام الكاتب العميق بالطبيعة ناقداً مثل  
« تورينتى بايستير » الى التأكيد بأن « دى ليبس » يعتقد أن  
الفضائل مكانها الريف بينما تعيش الرذيلة داخل المدينة ،  
لكن الكاتب أشار فى إحدى المناسبات الى أن اهتمامه بالريف  
يرجع الى شعوره بالآخاء والشفقة تجاه سكان الريف الأسبانى  
عامة – وتجاه فلاحي إقليم قشتالة على وجه الخصوص – قبل  
أن يكون مجرد اعتراف بفضائل الريف .

أما بالنسبة للطبيعة التى وصفها الكاتب فى رواية  
« الفئران » فهى طبيعة قاسية ، مشئومة وبلا قلب . وتتجلى  
مظاهر قسوة الطبيعة فى المفردات القاتمة المستخدمة فى  
وصف الأجواء الريفية . انها مفردات تبعث على الاحساس  
بالتشاؤم ، بخيبة الأمل والموت بدلاً من الحياة . وفى الفصل  
الأول يقول المؤلف ( الراوى ) عند تعريفه لحدود القرية  
الأربعة :

« . . . تسد الأفق من هذه الناحية سلسلة من القمم  
العارية ، وكأنها جماجم ، متوجة بنصف دستة من أشجار اللوز  
الضامرة . تحت وهج الشمس يرسل الجص الكريستالى  
للمنحدرات بلمعان متقطع وغمزات لونية . . . تقدم  
الخريف يخلق كل مظاهر الحياة النباتية ، فقط المرج ونبات  
الأسل ومجرى النهر يضيفون أثراً للحياة على المشهد المحتضر » .

وكما نلاحظ فان وصف الطبيعة ليس مبهجا أو مصاغا من وجهة النظر المثالية لفرد من سكان المدينة يعيش بعيدا عن هموم الريف ولا يحل به الا للاستمتاع بأجازته القصيرة . لكن الفلاحين الذين يعيشون فى الريف - وخاصة الفقراء الذين لا يعرفون نظم الرى الحديثة أو الميكنة الزراعية وتعتمد محاصيلهم على ما تجود به السماء ( مطر ، صقيع ، شمس ، طفيليات ... الخ ) - لا ينظرون الى الطبيعة كما ينظر اليها مصطفى أو سائح . انهم ينظرون اليها بمزيج من الخوف وفقدان الأمل وخاصة عندما تكثر لهم عن أنيابها ، وهى تفعل هذا بصفة تكاد تكون مستمرة . ولهذا السبب كان العجوز ( احدى الشخصيات التى تعرف الكثير من أسرار الطبيعة ) لا يمل من ترديد المثل التالى : « فى قشتالة ، كما هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم ثلاثة » .

وتضم الرواية العديد من المشاهد التى توضح مدى قسوة الطبيعة ، وقد صورها الكاتب أدق تصوير وكأنه أحد الفلاحين البلغاء الذين يعايشون صراعاها الدائم والمريع .

ففى احدى المرات أتى الجليد « الأسود » على ما بالبساتين من خضروات ، ولم ييأس الفلاحون بل ذهبوا الى بساتينهم وزرعوها من جديد .

وفى مرة أخرى قضت الآفات على الفلال وأضاعت فى ساعات قليلة مجهود تسعة أشهر طويلة . ولقد التقط « دى ليبس » صدى هذا الحدث المروع على السكان وكأنه كان فردا ممن ضاع محصولهم : « منذ أسبوعين لا يسمع بالقرية سوى نعيب اللقلق أعلى البرج ، والثغاء الحزين للخراف الوليدة خلف أسوار الحظائر . كان الرجال والنساء يمشون فى شوارع القرية وهم يجرجرون أقدامهم فى التراب ، النظرات غائمة وكأنهم ينتظرون مصيبة ... » ( الفصل الحادى عشر ) .

واذا كانت الآفات والجليد قد اهلكا المحصول فى المرتين  
السابقتين فقد تكفل بهذا - فى مرة ثالثة - المطر والثلج فى  
عنقوان الصيف :

« ومع غروب الشمس انفلت عيار ريح ساخنة أحدثت  
تموجات فى الحقول التى لم تحصد واثارت غيمة من الغبار  
على الطريق . . . أطبق الظلام فجأة وازداد تعكر الجو . . .  
شقت السماء عن ضوء شديد جعل سلسلة القمم العالية تلمع  
وكانها من فضة . . . أغرق البرق من جديد المنطقة فى ضوء  
شاحب وتبع دوى الرعد أنين الأعصار وهو يكتسح الروابي  
والحقول ، رافعا دوامات حلزونية كثيفة من التراب نحو  
السماء . عندما هدأت الريح أخذت تتساقط حبات المطر  
الأولى ، كانت حبات رمادية منتفخة ، مثل حبات العنب . . . »  
( انظر الفصل رقم ١٧ ) .

واذا كان المطر هو سبب البلاء هذه المرة ففي مرات  
أخرى كثيرة ينتظره الفلاحون بفارغ الصبر ، لكنه يأبى على  
السقوط فيلجأون الى صلاة الاستسقاء .

ولا نريد أن نسترسل فى سوق أمثلة أخرى للطبيعة  
القاسية التى وصفها المؤلف فى هذه الرواية ، لكن نريد أن  
نؤكد فقط على أصالة «دى ليبس» وشعوره الانسانى العميق  
عندما صور احساس الفلاح المرتبط بأرضه تجاه الطبيعة  
التى يعيش فى كنفها وعليها يعتمد حاضره ومستقبله .  
ولا ينصب اهتمام «دى ليبس» على أركان الطبيعة فقط  
( الأرض والسماء وما بينهما ) ، بل يهتم أيضا بكل مهجة  
حياة تعيش فى أحضان الطبيعة سواء أكانت طيرا أم حيوانا .  
ولذلك نجد أن كل رواياته تغص بالكثير من أنواع الطيور  
والحيوانات ، حتى الغريب منها ، حيث يصف لنا أدق  
خصوصياتها وصفا يجمع بين دقة العالم وحس الأديب . ولذا  
فمن الشائع استعانة القارئ الحضرى ( الذى يعيش فى

المدينة ) لروايات « دى ليبس » بالقواميس والمعاجم  
المتخصصة فى هذا المجال .

## ٢ - التهكم والسخرية :

من المعروف أن غالبية البسطاء أو من ينتمون الى  
الطبقات الشعبية ، يتحلون بقدر كبير من السخرية والتهكم  
وخفة الدم وحب الدعابة ، ويستعينون بها على تخفيف مرارة  
الحياة ومعاناتهم اليومية .

ولأن « دى ليبس » يهتم بهذا الصنف من الناس فانه  
يتحدث دائما بلسانهم ويرى بعيونهم ويرتدى لباسهم . ولقد  
حدا هذا بأحد النقاد أن يقول عن « دى ليبس » : « انه ليس  
كاتبا يحب الصيد بل صياد يعشق الكتابة » .

ومن هذا المنطلق ، لا نستغرب أن يستخدم المؤلف فى  
الرواية التى بين أيدينا التهكم والسخرية لكى ينتقد سوء  
الادارة المركزية ، ويبين فداحة تحكم الآلة فى الانسان  
وتراجع القيم الايجابية فى انسان العصر ، أو لايزاز مثالب  
الظلم الاجتماعى .

ويستخدم كاتبنا تكنيكات أسلوبية وبلاغية عديدة  
للوصول الى غايته هذه :

فنجده يخلط أحيانا بين الجد والهزل أو بين ما يسر  
وما يحزن ، وأحيانا أخرى نجده يقصد معنى آخر بعيدا غير  
المعنى المباشر والقريب للكلمات والجمل مستعينا فى هذا  
بالقرائن المختلفة سواء آكانت داخل النص أم خارجه . هذا  
بالاضافة الى الصفات والألقاب الساخرة والمعبرة التى يخلعها  
على شخصياته ، ناهيك عن دعاباته اللاذعة عند وصفه لبعض  
الأحداث والأنشطة . . وقد أدى ما سبق الى تدخل الراوى  
( المؤلف ) فى كثير من الأحداث والمواقف لكن دون أن يحولها  
الى مواقف تقريرية تعرض وجهة نظر صاحبها . ان المواقف

والأحداث تتحدث بنفسها عن نفسها ، وتدخلات الراوى  
تعنى فقط بوضع بعض الرتوش عند الحاجة اليها حتى تكتمل  
معرفة القارئ بما يجرى .

ومن بين الأمثلة الكثيرة التى تحفل بها الرواية بالنسبة  
لموضوع التهمك والسخرية ما جاء عن « دون أنتيرو » . فهذا  
الرجل على الرغم من امتلاكه لثلاثة أرباع أرض القرية لم  
يكن يوما يتقاعس عن الدفاع بكل الوسائل عن ممتلكاته  
وما يمسها من قريب أو بعيد . ولكي يبرر وكيل أعماله  
( الروسالينو ) صنيعه هذا فقد كان يقول ان سيده لا يفعل  
ما يفعله لسوء طوية ، بل لأن مواسم الشتاء تكون طويلة ومملة  
فى المدينة ولا بد من أن يتسلى سيده بشيء . ولكي يكمل  
الكاتب هذه اللوحة الساخرة فانه يقص علينا ما اعتاده  
« دون أنتيرو » كل عام بمناسبة حلول العيد السنوى للقرية .  
اعتاد الرجل « تأجير بقرة معيبة لكى يجرى وراءها الفتيان  
ويضربوها على هواهم ، وبهذه الطريقة ينفسون عن الأحقاد  
والضغائن المتجمعة فى الصدور طوال الاثنى عشر شهرا  
السابقة » ( انظر الفصل رقم ٥ ) .

ومن الأحداث الساخرة فى الرواية اضطرار « النينى »  
لسكب صفيحة بنزين فى بئر العمدة (خوستو) ، لكى يرد على  
اهانة امرأة العمدة وضربها له دون سبب . وفى اليوم التالى  
عندما همت امرأة العمدة بشرب كوب من الماء صباحا أحست  
بتغير طعمه ، وعندئذ أخبرت زوجها الذى أجرى التجربة  
باشعال عود ثقاب ثم قربه من الماء فاشتعل فى الحال .  
وعندها تصور أن البئر تحتوى على بترول، فأخذ دراجته على  
عجل وذهب الى عاصمة الاقليم ليخبر المحافظ بعد أن طلب  
من زوجته كتمان السر .

وقبل أن تغيب الشمس حضر المحافظ وبعد أن شاهد  
اشتعال الماء ، طلب من العمدة الانتظار حتى صبيحة اليوم  
التالى لكى يحضر خبيرين للمعاينة ، كما شدد عليه بضرورة

التكتم على الخبر لحين التيفيق منه - لكن الخبر ما لبث أن طار مع المساء الى كل أنحاء القرية ، فتجمع السكان عند بيت العمدة وألحوا في كشف المستور - وبعد أخذ ورد أخبرهم العمدة أن المنطقة تعوم على بحر من البترول ، فلم يتمالكوا أنفسهم من الفرحة واحتفلوا بالحدث الخطير حتى الصباح - الى أن جاء المحافظ بصحبة الخبيرين اللذين اكتشفا بعد المعاينة زيف الخبر - وساعتها تهاوت أحلام القوم ووقفوا كالتماثيل وكأن على رؤوسهم الطير ، فما كان من المحافظ الا أن تسلق حافة البئر ووقف يخطب فيهم محاولا التسرية عنهم :

« أيها الفلاحون - قال - : لقد كنتم هدفا لدعابة سخيفة - لا يوجد بترول هنا - لكن لا يجب ان يفل هذا من عزيمتكم ، فالبتترول عندكم في أرضكم المحروثة وفي أسنة محاريثكم - استمروا في العمل ، وبمجهودكم وحدكم سترقى حياتكم وستساهمون في عظمة وطنكم - فلينهض الريف ويتقدم ! » ( انظر الفصل رقم ١٢ ) .

وبالرغم من هالة السخرية التي تغلف الحدث كله ، فان الخطبة الختامية للمحافظ تتناقض مع واقع القرية المرير - فالفلاحون يعرفون تماما أن أرضهم ومحاريثهم ليست مصدرا للثروة ولا يمكن أن ترقى بمستوى حياتهم ولن يستطيعوا ، بالتالي ، المساهمة في مجد أسبانيا وعظمتها - انها خطبة جوفاء ، مناورة سياسية عديمة القيمة لأنها تلقى على أصحاب الشأن ، المكتويين بنار العمل الشاق والعائد القليل ، وهم وان كانوا فقراء وبسطاء ، الا أنهم يتمتعون بقدر لا بأس به من المكر والدهاء ولذلك ، لم يصفق له أحد منهم عندما أنهى كلماته ، بل انه هو - السياسي البارع ، صاحب الحول والطول - من توارى خجلا بسيارته الكبيرة خلف سحابة من التراب - ومن الصور الخفيفة الظل صورة قسيس القرية القديم الذي كان السكان يهابونه ويتأثرون بمواعظه : « يرتفع » دون ثوسيمو « ، القس القديم ، متريث ونصف

المتر عن الأرض ويزن ١٢٥ كيلو جراما . كان رجلا بشوشا  
لا يتوقف أبدا عن النماء » .

ومن المفارقات الساخرة خلع المؤلف للقب « الوصية  
الحادية عشرة » على « دونيا ريسو » ( احدى شخصيات  
الرواية ) . ( ونحن وان كنا سنتناول هذا الموضوع بشيء من  
التفصيل فى العنوان التالى ، الا أنه من الواجب ايضاح ما فى  
هذا الأمر من دعاية وتهكم ) .

فهذه السيدة بها كل الصفات المنفرة : عجفاء ، متكبرة ،  
فضة ، خصوم ، تهوى النميمة ، لا تحب التعامل مع أهل  
القرية ، وتقبض ريع أرضها نقدا وفى موعده سواء أنجا  
المحصول أم هلك . وبرغم كل هذه الصفات ، فهي تنصب  
نفسها زعيمة دينية على الجميع ، حيث تترأس الاحتفالات  
الدينية وتواظب على حضور القداس وتستشهد دائما فى  
أحاديثها بنصوص من الانجيل ( وخاصة بنصوص الوصية  
الحادية عشرة ) .

ان المؤلف يسخر من سلوكيات هذه المرأة بخلع هذا  
اللقب المهيّب عليها ، كما يسخر من كل من يعتقد أن التدين  
شئ والتعامل والأخلاق والسلوكيات شئ آخر . فالمؤلف قد  
استنفر كل امكانات اللغة ( بنحوها وصرفها وبلاغتها  
وبيانها وبديعها ) فى تهكمه اللاذع وسخريته المريرة وذلك  
بقصد ابراز السجايا والمثالب التى تتمتع بها كل شخصية من  
شخصيات روايته . والقارئ الحصيف يمكنه الاهتداء الى  
مواطن السخرية والتهكم دون جهد أو عناء .

### ٣ - اللغة الدارجة :

بالرغم من تمتع كل لغة بخواص ومميزات وملامح قد  
لا يوجد لها نظير فى لغات أخرى ، الا أننا سنحاول تبسيط  
أهم سمات اللغة المستخدمة فى رواية « الفئران » ، والتى  
لا يستطيع القارئ الاهتداء اليها من مجرد قراءة الترجمة .



تحدثنا فيما سبق عن اهتمام الكاتب بالمشاكل الجوهرية  
لفلاحى اقليم قشتالة ، وعن اهتمامه بالنماذج البشرية  
البسيطة التى تعانى الفقر والجهل والتخلف . . ولأن كاتبنا  
يحترم الأنماط البشرية المختلفة فانه يحترم كذلك وسيلة  
تعبير هذه الأنماط واللغة التى تتحدث بها ، ولهذا نجده  
يترك شخصياته لتتحدث بلسانها وعلى سجيته ولا يسمح  
لنفسه التحدث نيابة عنها . ومن ثم فاننا نجد أن اللغة  
الدارجة أو العامية تحظى بأهمية كبيرة فى الرواية ، لأنها  
تتناسب وطبيعة الشخصيات وذات دلالة قوية داخل محيطها  
الاجتماعى .

وبالاضافة الى هذا التبرير المنطقى للتواجد المكثف للغة  
العامية فى الرواية ، فان كاتبنا يفضلها كثيرا على لغة وسائل  
الاعلام التى يعتبرها سطحية متحذقة وفارغة . فاللغة  
الدارجة - على حد قوله ، وبالرغم من الأخطاء القواعدية  
التي يمكن أن تشتمل عليها - أكثر دقة وخصوبة وثراء .

ومن سمات اللغة الدارجة الأسبانية ، والتي استخدمها  
الكاتب نذكر :

استخدام أدوات التعريف مع الأسماء الاعلام ، الاكثار  
من التشبيهات والمقارنات ، شيوخ استخدام الألقاب  
والصفات مع الأسماء ، لجوء المتكلم للايماءات والحركات  
لتوضيح ما يقول ، ضرب الأمثلة والأقوال المأثورة ، عدم  
التحرز فى استخدام بعض الألفاظ النابية . . الخ .

- وبالنسبة للسمة الأولى من سمات اللغة الدارجة ، نجد  
الكاتب قلما يذكر اسما علما بدون صفة الا وسبقته أداة  
التعريف ( « el » « ال » أمام المفرد المذكر ، « la » « لا » أمام  
المفردة المؤنثة ) .

فبدلا من أن يقول : « برودن ، نينى ، مالبينو ،  
روسالينو ، خوسيه لويس ، أنتوليانو ، سيميونا ،

كولومبا ٠٠٠ الخ » ، فانه يقول عادة : « البرودن ، النيني ،  
المالينيو ، الروسالينو ، الخوسيه لويس ، الأنتوليانو ،  
لاسيميوننا ، لاكلومبا ٠٠ الخ » .

— كما يلجأ كاتبنا الى الاكثار من التشبيهات والى عقد  
المقارنات كما يفعل البسطاء ومن ينتمون الى الطبقات  
الشعبية فى أحاديثهم عادة . فانهم لكى يوضحوا فكرة أو  
معنى من المعانى يلجأون الى تشبيهه أو مقارنته بشيء ينتمى  
لنفس بيئتهم ويمكن أن تدركه حواسهم . ومن أمثلة هذا  
فى الرواية نذكر :

« سلسلة من القمم العارية وكأنها جماجم » ،

« عينا المختلس رماديتان ومشاكستان مثل عيني صقر » ،

« كل صباح كانت القرية تنهض متثاقلة فى جو من  
الزجاج ، حيث تقرقع أدنى ضوضاء مثل ضربة سوط » ،

« ٠٠٠ هو أشقر وعيناه زرقاوان كحيلتان صغيرتان » .

« بدأ رجال » اكستريمادورا « العمل فى رابية  
« دونالتيو » وخلال أشهر قليلة رشقوها بأشجار صغيرة ،  
فأصبحت مثل وجه آدمى هاجمه الجدرى » ٠٠ الخ .

— كما يدقق « دى ليبس » فى اختيار أسماء شخصياته .  
فلكل طبقة اجتماعية أسماؤها الخاصة والتي تشتمل — فى  
كثير من الأحيان — على دلالات ذات مغزى ومعنى . فنجد  
— مثلا — يسمى العمدة : « خوستو » ( بمعنى عادل ) .  
والمؤلف قصده السخرية من اطلاق هذا الاسم بالذات على  
العمدة ، لأن أفعاله فى الرواية — وخاصة مع بطلها وأبيه —  
تتناقض مع مدلول الاسم المطلق عليه .

كما يسمى المؤلف صائد الفئران « راتيرو » ( والكلمة  
لها نفس المدلول فى الأسبانية ) ، ويسمى الفلاح الحريص

الفطش الذى لا يكل ولا يمل من رعاية ارضيه « البرودن »  
( والاسم يحمل نفس المدلول فى الأسبانية ) ... الخ .

ولا يكتفى المؤلف بهذا ، بل انه يتبع الاسم العلم  
— عادة — بصفة أو لقب يحددان طبيعة الشخصية أو عملها  
أو سلوكياتها ، ويذكر الاسم مشفوعا بالصفة أو اللقب أو  
يستغنى بالصفة أو اللقب عن ذكر الاسم . وعلى سبيل  
المثال نذكر : « نينى ، الصبى » ، « دون أنتيرو ، الغنى » ،  
« خوستيتو ، العمدة » ، « الرايينو جراندى ، راعى الأغنام »  
« الرايينو تشيكو ، راعى الأبقار » ، « العم روفو ، العجوز » ،  
« ماتياس ثليمين ، المختلس » ، « السيدة كلو ، صاحبة دكان  
الخردوات » ، « دونيا ريسو ، الوصية الحادية عشر » ... الخ  
ويندرج هذا أيضا تحت خصائص ومميزات اللغة الدارجة  
فى الأسبانية .

— كثيرا ما تصدر عن المتكلم ايماءات أو حركات تعكس  
احساسه الداخلى مثل الخوف ، الحرص ، الحيرة ، الخجل ،  
الضيق ، السرور ، الألم ... الخ . والبسطاء هم أكثر  
الناس استخداما لهذه الايماءات لعدم قدرتهم على التظاهر  
أو التكلف .

ولقد وفق الكاتب فى ابراز هذه السمة عند عرضه  
للمواقف المختلفة لشخصيات عالمه الروائى . ومنها نذكر  
ما يلى :

« ويهيج خوستيتو ، العمدة ، وفى تلك الأحوال ، كانت  
تضيق ناصيته البنفسجية وتخفق وكأنها قلب صغير ينبض » ،  
« تضاملت انسانية القسيس الطاغية أمام المشكلة .  
أمسك قبعته بحركة آلية قبل أن يتكلم » ،

« اكفهرت نظرتة عندما اضاف : حقا لا يحتاج الفرد منا لأكثر من هذا » ،

« نَظر الخوستيتو الى الخوسيه لويس الذى هز رأسه وقال مهمهما ... » ،

« أوما الخوستيتو برأسه . كان يبدو مثل تلميذ فى مدرسة يعانى من توبيخ أستاذه » ... الخ .

— كما تفص الرواية بالأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والتى يتعلق معظمها بالحقل وبالظواهر الطبيعية المختلفة :  
« عندما يكون العم أحرق ، فلا بد أن يكون ابن العم كذلك » ،

« بعد انتهاء عيد آخر قديس ، ازرع القمح واجمع الدريس » ،

« يوم الثلاثاء لا تزوج ابنا ولا تذبح خنزيرا » ،  
« عندما يكثر النبيذ تقل المؤن » ،

« فى قشتالة ، كما هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم ثلاثة » ،

« فى يونيو المطر ، يجلب الخطر » ... الخ .

هذه هى بعض خصائص اللغة التى تتحدث بها شخصيات الرواية والتى تتناسب وتتفق مع مستواها الفكرى والاجتماعى ، وهى وان دلت على شىء فانما تدل على معرفة الكاتب لأدق خصوصيات هذه اللغة وللكثير من أسرار الطبيعة التى تخفى على أهل الحضر .

وقد أشرنا فيما سبق الى أن اللغة الدارجة أو العامية التى تتحدث بها الشخصيات الريفية البسيطة ، تحظى بحضور مكثف فى الرواية . وهذا يعنى وجود مستوى لغوى آخر . وهذا المستوى الثانى يخص الراوى ( المؤلف ) عند تدخله

لوصف مظاهر الطبيعة المختلفة او لاضافة بعض الايضاحات  
التي لا يستغنى عنها الاطار العام للأحداث والشخصيات .  
ويستخدم الكاتب لذلك لغة راقية ، عذبة ، رقيقة وشاعرية  
تذكرنا بلغة الملاحم اليونانية القديمة . وها هي بعض  
الأمثلة :

● « أطل قمر أخضر فاتح وعليل خلف ربوة «كلورادو»  
ثم ارتفع بفتور فوق سماء معدنية عالية » .

● « بدأت قطع الثلج تتهاوى وتحولت المنطقة ، بعد  
ساعات قليلة ، الى كفن لا نهائي - أدمى البياض عيون القرية  
وطوبها اللبن ... تبدو الحياة وكأنها هربت من العالم  
مخلفة وراءها صمتا مخيفا وكثيفا كصمت المقابر » .

● « فى صبيحة اليوم الرابع أيقظ الصمت النينى .  
أطل الصبى من فوهة المغارة فوجد السحابة قد انقشعت ،  
وشعاع الشمس الخجول ينثر خصلاته الطويلة البيضاء  
ليرسم قوس قزح مضيئا بين قمى «دونالتيو» و «كلورادو» .  
وصلت الى الصبى الرائحة الرخوة للأرض السكرى وسرعان  
ما أحس بغناء العندليب ، هناك تحت ، بين أشجار الصفصاف ،  
وعندئذ أدرك أن الربيع قد أتى » .

● « أمسك فجأة عن الضحك وراقب حوله انتظارا  
لتأييد أحد ، طافت عيناه بكل الوجوه ، واحدا بعد آخر ،  
لكنه لم ير الا سحابة من الشك ، استسلاما مخيفا قابعا هناك  
داخل الحدقات » .

يتضح مما سبق عرضه لبعض الملامح المهمة لرواية  
« الفئران » - التي نشرت عام ١٩٦٢ وفازت بجائزة «النقد»  
حال صدورها - مدى عمق الشعور الانسانى لمؤلفها «ميجيل  
دى ليبس» الذى انصب اهتمامه فيها على حياة البسطاء  
المقهورين (فلاحى اقليم قشتالة الأسبانى) ، وعلى الحيوانات  
والطيور والمزروعات التى تشاركهم هذه الحياة ، وعلى  
تصوير نبض الطبيعة التى شكلت مسرح الأحداث .

ولا نستغرب هذا البعد الانساني على رجل مثل  
« دى ليبس » عاش وفيما لمبادئه ولمشروع حياة ، صارم  
وشريف .

اننا لا نبالغ اذا قلنا انه لا يوجد بين الروائيين الأسباب  
فيما بعد الحرب الأهلية ( ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ) من يتوافر فيه  
الانسجام التام والتناغم الكامل بين الشخصية والأيدولوجية  
والفن مثلما يتوافر في « دى ليبس » .

هذا الكاتب الذى يبغض آثام المدينة التى يلغ فيها  
رجالها المزيّفون عن عمد ووعى كاملين ، ويكره « التقدم »  
المادى الخالى من دفء العواطف البشرية والذى يستعبد الفرد  
ويحوّله الى دمية وبهلوان وأداة للقمع والقهر .

هذا الكاتب الذى يجد فى كل ما هو أصيل وعفوى ملاذه  
وقرة عينه : الريف والطبيعة - التى تدنسها يد الانسان  
بالتغير والتشويه - حيث تتجلى قدرة الخالق وعظمة ابداعه  
وتصويره .

وقد أدى وفاء الكاتب لموقفه هذا الى رفضه لوجهة النظر  
المتحذلقة السفسطائية عند معالجته لمشاكل الفقراء  
والمطحونين ، بل عرضها فى الاطار المناسب ، أى على مستوى  
بسيط وواضح كما كان يمكن أن يفعله فلاح بسيط من بنى  
جلدته .

ولهذا نجد أن سهام الكاتب كلها - فى الرواية - موجهة  
الى هدف واحد : ضرورة تحسين مستوى حياة الفلاحين  
الفقراء ، والعمل على تقوية الروابط والحض على التضامن  
بين قطاعات المجتمع المختلفة ، ونصح من بيدهم مقاليد الأمور  
والأغنياء للاهتمام بالفقراء والمطحونين ومساعدتهم على حل  
مشاكلهم المزمنة لأن العائد سيكون خيرا على الجميع ، واعادة  
الانسان الى مرفأ الانسانية الذى أوشك أن يدمره التقدم  
المادى ، وتزكية الخير أينما كان ومقاومة الشر أيا كان  
مرتكبه أو المحرض عليه .

وقد عبر الكاتب عن كل ما تقدم ذكره بلغة انسانية متدفقة ، أصيلة ، عفوية ، رقيقة وشاعرية ، بعيدة كل البعد عن البهرجة والتقاليع المستحدثة .

ولقد تمخض احترامنا لهذا الكاتب الفذ عن ترجمة عمله هذا ترجمة دقيقة حتى لا نفوت على القارئ فرصة التعرف على أسلوب المؤلف العذب وطريقته الشيقة في السرد والحوار ، وللوفاء بهذا لم تفقد - ولله الحمد - الجملة العربية تماسكها ووضوحها ، بل وعدوبتها أيضا . . فالتصيحة التي يمكن أن نسديها تتلخص في القراءة المتأنية الواعية ، لأننا أمام عمل يعد من روائع الفن الروائي في مختلف العصور .

ولا نجد لختام ما بدأناه من حديث أفضل من هذه الصرخة الانسانية الحميمة للمؤلف : « اذا كانت مغامرة التقدم ، كما عهدنا حتى اليوم ، لا تعنى سوى زيادة العنف والكراهية ، الاستبداد وعدم الثقة ، الظلم والاعتداء على الطبيعة ، المنافسة غير الشريفة والتفنن في التعذيب ، تسخير الانسان لأخيه الانسان وعبادة المال ، فاني أصرخ بأعلى صوتي : أوقفوا الأرض ، أريد أن أسير على قدمي وحدي ! » .

د . علي عبد الرؤوف علي البمبي





الف، ران



بعد الفجر بقليل ، أطل « النينى » من فوهة المغارة  
وتأمل سحابة الغربان المتجمعة • على ضفة النهر بدت أشجار  
الصنوبر الثلاث ، المجدوذة الرؤوس ، وهى مغطاة بالطيور  
وكأنها مظلات مقفلة تشير بأطرافها المدبية نحو السماء •  
وعلى البعد كانت أراضى « دون أنتيرو » (١) الوطيئة تلمع  
بالسواد وكأنها مكان شاسع لحرق الحطب •

دلفت الكلبة بين ساقى الصبى الذى داعب ظهرها  
بقدمه المتسخة العارية دون أن ينظر إليها ، ثم تشاب ، مد  
ذراعيه ورفع عينيه نحو السماء البعيدة الصافية وقال :

— الجو مهياً لنزول الثلج ، يا « فا » (٢) ، سنذهب يوم  
الأحد لصيد الجرذان •

هزت الكلبة بعصبية ذيلها المقصوص ورمقت الصبى  
بحدقتها النشطتين الصفراوين •

جفنا الكلبة متورمان وبدون أهداب ، قليلاً ما يصل  
الكلاب أمثالها الى سن الشياب محتفظين بعيونهم ، فمن المعتاد  
أن يتركوها بين أحراج النهر ، بفعل النباتات الشائكة  
والسروال وشجر اللبلاب •

تحرك العم « راتيرو » بالداخل ، بين القش ، وعندما  
أحست به الكلبة نبحت مرتين ، فارتفع ، عندئذ ، سرب  
الغربان بكسل عن الأرض فى طيران متمهل وعميق ، منفلوم

---

(١) « دون » (Don) لقب معناه : السيد - ( المترجم ) •  
(٢) « فا » (FA) الاسم الذى يطلقه الصبى على كلبته - ( المترجم ) •

بضوضاء نعيقه المشئوم . ظل طائر منها على الأرض الداكنة  
بلا حراك ، وعندما رآه الصبي جرى تجاهه في خطوط  
متعرجة تحدها الأخاديد الرطبة ، ومتفاديا مزاحمة الكلبة  
التي كانت تنبح الى جواره . عندما رفع الفخ لتحرير جثة  
الطائر ، رأى سنبلة من الشوفان لم تחדش فأمسكها بين  
أصابعه الصغيرة بعصبية فتبعثرت حباتها على الأرض .

نادى ، رافعا صوته فوق نقيق الغربان التي كانت  
ترفرف بأجنحة ثقيلة ، ومتوجها نحو السماء :

— لم يتذوقها ، يا « فا » . لم يأكل حبة واحدة .

تبدو المغارة ، وهي في منتصف القمة وحولها أخاديد  
المنحدر ، وكأنها فم كبير يتثائب . ما زالت توجد على جوانب  
القمة أطلال ثلاث المغارات التي هدمها بالديناميت  
« خوستيتو » ، العمدة ، منذ عامين مضيا . كان « خوستيتو  
فادريكو » ، العمدة ، يطمح في أن يعيش جميع من بالبلدة  
في مساكن كالسادة .

كثيرا ما كان يضيق الخناق على العم « راتيرو » قائلا :

— أعطيك بيتا نظير مائة بيزيتة وأنت ولا كلمة . ماذا  
تريد ، اذن ؟

ويكشف « الراتيرو » عن أسنانه الصفراء في ابتسامة  
مبهمة ، ما بين بلهاء وماكرة ، ويرد عليه قائلا :

— لا شيء .

ويهيج « خوستيتو » ، العمدة ، وفي تلك الأحوال ،  
كانت تضيق ناصيته البنفسجية وكأنها شيء يتحرك :

— ألا يروك أن تفهمنى ؟ أريد هدم جميع المغارات .  
لقد وعدت المحافظ بذلك .

ويهبز « الراتيرو » كتفيه القويتين مرة بعد أخرى، ليقول له « مالبينو » بعد ذلك فى الحانة :

— خذ حذرك من « الخوستيتو » • انه من النوع الذى يخيف • أسوأ من الفئران •

فيرمقه « الراتيرو » المكوم على المائدة بعينين خشنتين جاحظتين ، ليقول له :

— الفئران لا تؤذى أحدا •

« مالبينو » كان يسمى من قبل « بالبينو » ، ولكن معارفه أطلقوا عليه الاسم الأول ، لأنه كان لا يحتمل بعد كأسين فقط من الشراب •

كانت حانة « المالبينو » ضيقة وقذرة ، أرضها من الأسمنت وبها نصف دسنة من الموائد المصنوعة من الألواح الخشبية ، ومقاعد ذات ظهور منخفضة •

اعتاد « الراتيرو » عند عودته من النهر الجلوس هناك ليأكل زوجا من الفئران المقلية والمتبلة بالخل ، مع نصف رغيف ، ويشرب كأسين من النبيذ الفاتح • أما بالنسبة لبقية محتوى المخلاة فقد كان يشتريه « المالبينو » الفأرة ببيزتين • تعود صاحب الحانة الجلوس الى جوار « الراتيرو » أثناء تناوله للطعام :

— عندما لا يقنع الرجال بما لديهم يثيرون المشاكل ، أليس كذلك يا « راتيرو » ؟

— فعلا •

— وعندما يقنعون لا يخلو الأمر من داهية يشغل نفسه بتقديم المزيد لهم ويثير المشاكل نياية عنهم • والنتيجة ، استمرار الشغب ، ألسنت معى فى هذا ؟

— معك •

— وعلى سبيل المثال انت ، فانت راض بالعيش فى  
مفارتك ولا تدخل فى شجار مع أحد • ومع ذلك تمتلك  
« الخوستيتو » فكرة ذهابك الى هذا البيت ، فى الوقت الذى  
يتقاتل عليه الكثيرون •  
— نعم •

كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تؤكد  
ان « المالبينو » هو ملاك الشر للعم « راتيرو » ، لكن « المالبينو »  
كان يرد على هذا قائلاً : انه لا يمثل سوى ضميره •

من على عتبة المغارة ، رأى العم « راتيرو » « النينى »  
وهو يهبط من على سفح القمة ، حاملاً الغراب فى يده والفتخ  
فى اليد الأخرى • تقدمت الكلبة عندما اكتشفت الرجل  
ووثبت مرة بعد أخرى عليه ، محاولة لعق يده الخشنة ذات  
الأصابع المتساوية ، وكأنها سويت بمقصلة • لكن الرجل  
كان يطبق ، فى كل مرة ، خرطومها وهو شارد الذهن  
والحيوان يهتمهم بين غضب وسرور •

قال له « النينى » وهو يشير الى الغراب :

— قتله « البرودن » ، لن تترك له الغرابان شيئاً فى  
الأرض المبدورة •

كان « البرودن » يبكر دائماً بالزراعة ، وقد سبق  
أسبوع المطر الأخير وبذر الأرض بالحبوب • اسم « البرودن »  
الحقيقى « أثيسكلو » وقد أطلق عليه لقب « البرودن » لما  
يتسم به من عقل وحيطة • كان يحرق الأراضى البور فى  
مايو ، وهكذا تكون أرضه جاهزة عندما يصل شهر نوفمبر •  
وعندما ينقضى الصيف ، وقبل أن تصفر الأوراق بقليل ،  
كان يجمع أوراق أشجار الصنوبر الثلاث ويخزنها فى طرود ،  
لكى يغذى بها الماعز خلال فصل الشتاء • كثيراً ما كان  
يستشير « النينى » : « نينى ، أيها الغلام ، سيسقط المطر

أم لا ؟ » - « نينى ، أيها الغلام ، الليلة ساكنة والسماء صافية ، ألا ينذر هذا بكارثة الشلوج السوداء ؟ » .

من يومين اقترب « البرودن » من « النينى » وكانها مصادفة :

— « نينى » ، يا بنى — ناداه فى نغمة باكية — ، الغريبان لا تترك السزرع فى حاله ، تنبش الأرض وتلتقط الحب . ماذا أفعل لتخويفهم ؟

تذكر « النينى » الجدة « رومان » ، الذى كان يعلق غرابا ميتا ويجعل رأسه متدليا الى أسفل كى يبعد العصافير عن الأرض المبدورة . كانت الطيور تهرب من المشهد الدامى ، من حداد الأرض السوداء الصامت كى تزدهر .

— دع الأمر لى — رد عليه الصبى .

بينما كان « النينى » يلتهم حساء الخبز على باب المغارة ، تأمل الغراب بريشه المتصلب وهو ملقى على نبات السعتر . كانت الكلبة تقعى الى جواره تتأمله فى ثبات واذا شرد الصبى ، كان الحيوان يضرب ساعده بعافره الأمامى . خلف الكلبة ، أسفل القمة كان ينفتح عالم ، عالم تحسبه « لاكلومبيا » ، امرأة « الخوستيتو » ، قاحلا ربما لأنها تجهله . عالم من الأخاديد الداكنة ، المشكلة تشكيلا هندسيا رائعا .

كانت أخاديد الخريف تتحول ، بعد جفاف مانها ، الى بحر من الطين يخرقه شريان النهر المقتضب ، والذى تقع القرية على جانبه الآخر . كانت القرية داكنة أيضا ، كشيء زائد من نفس الأرض ، ولولا فجوات الضوء والظلال التى تعكسهما أشعة الشمس الوليدة — الحقيقة الايجابية الوحيدة فى هذا المنظر المقبض — لما تعرف عليها أحد .

على بعد كيلو متر واحد ، وبمحاذاة النهر الصغير ، يلمع بالبياض الطريق المؤدى الى المدينة ، والذى تدوسه فقط

سنابك جيات المركبات ، والعربة « الفورديش » (٣) لـ « دون أنتيرو » ، الغنى ، وحافلة المدينة التي تربط عاصمة الاقليم بسائر قرى المنطقة . تسد الأفق من هذه الناحية سلسلة من القمم العارية ، وكأنها جماجم ، متوجة بنصف دسطة من أشجار اللوز الضامرة . تحت وهج الشمس ، يرسل الجص الكريستالى للمنحدرات بلمعان متقطع وغمزات لونية وكأنه يحاول ارسال اشارة مبهمه لسكان القرية الوطيئة .

تقدم الخريف كان يخلق كل مظهر من مظاهر الحياة النباتية ، فقط المرج ونبات الأسل ومجرى النهر كانوا يضيفون أثرا من حياة على المشهد المحتضر . تمتزج سلسلة من التحولات اللونية تجمع بين الرمادى والأزرق الرصاصى والداكن . فقط أعلى المغارة ، فى الضعراء الباردة ، كان يمثل جبل البلوط العمومى المأوى الأمين للطيور والوحوش الكواسر .

جرى الصبى ، وييده الغراب ، هابطا المنحدر تتبعه الكلبة . فى الجزء الأخير من المنحدر رفع « النينى » ذراعيه كما لو كان سيطير فوق الطريق . لم تكن الشمس قد ارتفعت الا قليلا ومازال يتصاعد من مداخل البيوت لسان أبيض من الدخان، ومازالت تتجمع فوق القرية الرائحة الخشنة للقش المحترق وكأنها بخور لزج . عبر الصبى والكلبة قنطرة الألواح البدائية ودخلا البيدر . كان برج حمام « الخوستيتو » يقع الى جوار مخزن التبغ العمومى ، وعندما مر الصبى أمامه صفق بشدة مرتين فارتفع سرب الحمام هائجا فى صخب محموم وكان ثوبا يتمزق . نبحت الكلبة مسرورة ولكن ظهور « المورو » ، كلب « الرايينو جراندى » (٤) ، الراعى ، أسكتها فى الحال .

---

(٣) « الفورديش » ماركة قديمة لنوع معين من السيارات - ( المترجم ) .

(٤) جراندى (Grande) لقب هذا الراعى ، ومعناها . كبير أو طاعن فى السن - ( المترجم ) .



رسم سرب الحمائم نصف دائرة متسعة خلف برج الكنيسة ثم عاد الى حيث أتى .

أطل « البرودن » من الباب الخلفى وهو يخلق فتحة سرواله .

— خذ — قال « الثينى » وهو يسلمه الطائر .

ابتسم « البرودن » ابتسامة مراوغة ، وقال :

— أمسكته وأوقعت به أخيراً ؟ . أمسك الطائر من طرف جناحه ، متوجساً ثم أضاف :

— هيا ، ادخل .

كان يستند على جدار الحظيرة محراث يعلوه الصداً وأدوات الفلاحة وعربة كارو قديمة ، وفى أعلى الحظيرة توجد فتحة مخزن التبن . دخل « البرودن » الحظيرة فضربت البغلة السوداء الأرض بقدمها ، فى جزع . وضع الطائر على الأرض ، وبينما كان ينظف المذاود من القش قال الصبى دون أن يلتفت اليه :

— ياله من طائر ! عندما تهبط هذه الدواهي على المحصول تفتك به أكثر من السيول .  
يا له من طائر !

بعد أن نظف المذاود ، صعد بسرعة الى مخزن التبن ، أمسك بالمدراة وألقى على الأرض بعضاً من حزم القش . هبط بعد ذلك ، أخذ الغربال ونخل التبن بحركات سريعة متذبذبة . وزع التبن بعد ذلك على المذودين ، ثم غطاهما بقفّة صغيرة من الشعير . كان الصبى ينظر اليه متأملاً وعندما انتهى من توزيع الشعير قال له :

— علقه من رجليه ، والا ، فانك بدلا من تخويفهم ستدعوهم الى الهبوط .

نفض « البرودن » يدا باخرى وأمسك بطرف جناح الطائر من جديد ثم دلف الى البيت من باب المطبخ . دخل الصبي والكلبة وراءه . ثارت ثائرة « لاسايينا » عندما رأت الغراب وسألته :

— الى أين أنت ذاهب بهذه القمامة ؟

لم يغير « البرودن » من نغمة صوته المتزن وهو يقول :

— أغلقى فمك .

وضع الطائر فوق المائدة . قلب قشر البطاطس الذى كان يغلى فوق نار هادئة ورفع القدر من على النار ثم جلس ووضع بين رجليه وبدأ فى عمل أصابع من قشر البطاطس . أمسك الصبي بالباب فى طريقه الى الخروج ، عندئذ نهض « البرودن » ونادى عليه :

— انتظر .

تبعه فى المدخل ذى البلاطات الحمراء وهو يفتش فى جيوب السروال وبعد أن خرجا الى الشارع مد له يده بقطعة معدنية فئة البيزيتة . كان « النينى » ينظر اليه فى ثبات مما جعل « البرودن » يرتبك ، عندئذ رفع عينيه الى السماء ، سماء بيضاء ، مشوبة بزرقة خجولة ، ثم قال :

— لن تمطر أكثر من هذا ، أليس كذلك يا فتى ؟

— ان السماء صافية . الجو مهياً لنزول الثلج — أجاب الصبي .

عندما رجع الى المطبخ ، فحص « البرودن » الطائر بعناية ثم استمر فى تصنيع علف الدجاج وهو صامت . رفع رأسه بعد مضي بعض الوقت ثم قال :

— « النينى » هذا يعرف كل شيء . كأنه اله .

لم تجب « لاسايينا » . فى الأوقات التى تكون فيها

معتدلة المزاج تعتاد القول بأنها عند رؤية « النينى » وهو يتحدث مع رجال القرية تتذكر المسيح بين حواريه ، لكنها عندما تكون عكرة المزاج ، تسكت ، والصمت ، عندها ، علامة احتجاج -

تابع « النينى » سيره فى الشارع المقفر ، مقتربا من حوائط البيوت لكى يتفادى الوحل . كان يحك القطعة المعدنية التى كانت معه فى حوائط الطوب اللبنى وعندما وصل لأول ناصية ، لاحظ بلدة صبيانية البريق المتولد فى طرفها . كان الوحل هناك أشد كثافة ولكن الصبى عبره دون تردد ، غامرا قدميه العاريتين فى الوحل المخلوط بروث البهائم والأغنام ، وفى المياه الراكدة النتنة . اخترق القرية وقبل أن يصل الى اصطبلات « دون أنتيرو » سمع الصوت الدافىء لـ « الرايينو تشيكو » (١) وهو يتحدث الى الأبقار . كان « الرايينو تشيكو » يعمل فى خدمة « دون أنتيرو » واشتهر عنه معرفته للغة الحيوانات .

« الرايينو تشيكو » ، راعى الأبقار ، « والرايينو جراندى » ، راعى الأغنام هما ابنا « البييخو رايينو » ، الذى كان - على حد قول الأستاذ « دون أوستاسيو دى لا بيدار » - مثالا حيا على صدق نظرية انحدار الانسان عن القرد .

وفعلا ، كانت بالعمود الفقري لـ « البييخو رايينو » فقرتان زائدتان ، على شكل ذيل مقطوع ، وكان جسده مغطى بشعر أسود كثيف ، وعندما كان يتعب من المشى على رجليه كان بإمكانه المشى على يديه بسهولة . ومن أجل هذا دعاه « دون أوستاسيو » عام ١٩٣٣ لحضور مؤتمر عالمي ، لا لشيء الا لكى يبرهن لزملائه أن الانسان ينحدر عن القرد

---

(١) تشيكو (Chico) بمعنى صغير (Viejo) بييخو بمعنى عجوز . وقد أطلق المؤلف على الابن الأكبر للرايينو لقب ( جراندى ) ، أما أخوه الأصغر فقد أطلق عليه لقب ( تشيكو ) بينما أطلق على الأب لقب العجوز ( بييخو ) - ( المترجم ) .

وأنه مازال من الممكن حتى الآن العثور على نماذج في منتصف طريق التطور . وبعد هذا المؤتمر ، كان « دون أوستاسيو » يدعو إلى العاصمة كل مرة يزوره فيها زملاء العمل ويجعله يتعري ويدور على يديه ، يبسط ، فوق مائدة . في البداية ، كان « البييخو راينو » يشعر بالخجل ، لكنه سرعان ما اعتاد هذا لدرجة أنه كان يسمح للأستاذ ، الذي كان عالما في هذا المجال ، بتحسس الفقرتين الزائدتين دون أن يهتز .

ومنذ ذلك الحين ، ما من غريب أظهر اهتمامه بخصوصية ما لدى « البييخو راينو » من مزايا ، إلا وخلق الأخير لباسه وأطلعه على الفقرتين الزائدتين .

وبهذه العلاقات ، تحول « البييخو راينو » - على حد قول الوصية الحادية عشرة (٢) عن الطريق القويم وترك الذهاب إلى الكنيسة . كان يقول له « دون ثوسيمو » ، القس الذي كان يتولى مهمة الوعظ في القرية حينذاك : « راينو ، لماذا لا تأتي إلى القديس ؟ » ، فيجيبه « البييخو راينو » مختالا : « لا يوجد إله كان جدى قردا . هذا ما يقوله الأستاذ أوستاسيو » .

وعندما اندلعت الحرب الأهلية ، ذهب خمسة فتيان من قرية «توريثيو ريجو» ، يتزعمهم «بلتسار» ، من «الكركو» ، وهم يحملون البنادق إلى باب بيته . كان اليوم أحدا وظهر « البييخو راينو » وهو يرتدى حلة الإجازة المتواضعة ويضع في قدميه الحذاء الضيق ، فدفعه « بلتسار » بفوهة البندقية قائلا :

« الآن أعلمك أين ترعى الخنازير » . طرقت عينا

---

(٢) الوصية الحادية عشرة لقب آخر يطلقه المؤلف على إحدى الشخصيات النسائية لاكتارها الاستشهاد في أحاديثها بنصوص تنسب إلى الوصية الحادية عشرة من الكتاب المقدس - ( المترجم ) .

« البيينو راينو » ولم يقل سوى : « ماذا تريد ؟ » • رد  
« بلتسار » : « أريد أن تأتي معنا » •

كان « البلتسار » يزين صدره بالصليب ، فنظرت اليه  
امراة « البيينو راينو » وكأنها تتوسل ، ثم نظرت الى زوجها  
الذى كان ينظر بدوره الى حذاءه ثم قال فى مسكنة : « انتظر  
لحظة » • وعندما عاد من داخل البيت كان يرتدى ثياب  
الرعى ويلبس الحذاء الجلدى الطويل ، ثم قال متوجها  
لزوجه : « الى اللقاء » وبعد ذلك قال « بلتسار » : « عندما  
تريد » •

فى اليوم التالى ، وجد « الأنتوليانو » جثته عند المنعطف  
وعندما حملها الى البيت تسمرفم « الراينو تشيكو » ، الذى  
كان صبيا وقتها ، بالرغم من تمتعه أيضا بفقرتين زائدتين ،  
ولم تفلح أية وسيلة لادخال الطعام فمه • أفتى « دون  
أورسينوس » ، طبيب « توريثو ريجو » ، بأن المرض عصبى  
وسيزول بمرور الوقت • عندما زال المرض ذهب  
« الراينو تشيكو » الى « دون ثوسيمو » ، قسيس القرية ،  
وسأله :

« أليس الصليب علامة على المسيحى ، سيدى القس ؟ » •  
« هكذا يكون » — أجاب القسيس • أضاف « الراينو تشيكو » :  
« ألم يقل المسيح : أحبوا بعضكم بعضا ؟ » • « هكذا قال » —  
أجاب القسيس • هز « الراينو تشيكو » رأسه هزة خفيفة  
ثم سأل : « حينئذ ، لماذا قتل هذا الرجل الذى يحمل الصليب  
أبى ؟ » • تضاعلت انسانية القسيس الطاغية أمام المشكلة •  
أمسك قبعته بحركة آلية قبل أن يتكلم : « اسمع — قال  
أخيرا — ، ابن عمى « باكو ميرينو » كان قسيسا فى « رولدانا » ،  
الواقعة على الجانب الآخر ، حتى أمس الأول • هل تعرف لماذا  
حتى أمس الأول ؟ » • « لا » — أجاب « الراينو تشيكو » •  
« اسمع اذن » — أضاف القسيس — : « لقد قيدوه الى عسود ،

تم قطعوا ذكره بموسى ورموه الى القطط أمامه . ما رأيك؟» .  
كان « الرايينو تشيكو » يهز رأسه لكنه استطاع أن يقول :  
« هؤلاء ليسوا مسيحيين ، سيدى القس » .

عقف القسيس أصابعه ثم قال فى تؤدة : « انظر ،  
يا بى ، عندما تنزل الغشاوة على الأعين ، فان الأخوين ،  
مسيحيين أم لا . يتقاتلان بضراوة كالآعداء » . لم يعلق  
« الرايينو تشيكو » على هذا الا بقوله : « آه ! » .

بعد تلك النحظة بدأ « الرايينو تشيكو » فى الابتعاد عن  
الناس والخروج الى الربى بصحبة القطيع الى ان تعاقد معه  
« دون أنتيرو » . الغنى ، كى يرعى أبقاره . وعلى عكس  
ذلك ، كان يحلوا لـ « الرايينو تشيكو » محادثة الأبقار ،  
وطبقا لما يروى ، فقد كانت لديه موهبة تفسير خوارها .

وسواء أصبحت هذه الرواية أم لا ، فانه قد برهن أمام من  
هم أكثر تشككا أن البقرة التى يتحدث اليها بحنان أثناء  
جلابتها ، تدر كمية من اللبن أكثر بكثير مما اذا حلبت فى  
صمت . كما اكتشف فى مناسبة أخرى أن البقرة التى تنام  
على حشية تعطى لبنا أكثر من التى تنام على القش ، وهو يقوم  
الآن بطلاء جدران الاصطبل باللون الأخضر حتى تزداد كمية  
اللبن حسبما يدعى .

اج « النينى » « الرايينو تشيكو » من ظهره فصاح :

— صباح الخير .

كان « الرايينو تشيكو » يتحرك ببلاء وتؤدة كرجل  
سمين ناضج . ولم يكن أبدا ينظر أمامه . سأل « النينى »  
ذات مرة عن سر حديثه مع الأبقار ونفوره من الرجال  
فأجاب : « الرجال لا يرددون سوى الأكاذيب » .

الآن ، يتجه « الرايينو تشيكو » نحو « النينى » ليسأله :

— « نينى » ، هل صحيح ان « الخوستيتو » يريد طردكم من المغارة ؟

— هذا ما يقولون .

— من هذا الذى يقول ؟

هز الصبى كتفيه ، ثم سأله :

— هل انتهيت من طلاء الاصطبل ؟

— مساء أمس .

— وماذا ؟

— انتظر حتى تقول الأيام كلمتها .

اجتاز الصبى منعطف الكنيسة . كانت الحفر هناك أشد عمقا والمياه راكدة ، وبالرغم من البرودة فقد كانت تنبعث منها روائح كريهة تصيب الرأس بالدوار . على سور منزل السيدة « كلو » ، أمام الكنيسة ، ترتفع لافتة كتب عليها بحروف ضخمة من القار : « تعيش دفعة ٥٦ » . كانت السيدة « كلو » تكنس بهمة درجتى السلم الأسمنتى المؤدى الى مدخل دكان الخردوات ، وعندما رفعت رأسها رأت الصبى وهو يحك العملة المعدنية فى جدران الكنيسة .

— الى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المبكر ، يا « نينى » ؟

استدار الصبى نصف استدارة وظل ناظرا تجاه المرأة منفرج الساقين . كان الطين قد ترك على احدى ساقيه بقعة بدت وكأنها جورب أسود .

استندت السيدة « كلو » على يد المكنسة ، ابتسمت بكل وجهها العريض ثم قالت :

— بدأ الجو يتغير ، متى سندبح الخنزير ، يا « نينى » ؟

نظر اليها الصبى نظرة متأنية ثم أجاب :

— مازال الوقت مبكرا .



ـ لو كانت جدتك موجودة ما فكرت كثيرا مثلك .

حرك « النيني » رأسه فى عزم :

ـ لا تشغلى بالك ، يا سيدة « كلو » ، فليس من الصواب  
ذ يجه قبل عيد « سان دامسو » . سأخبرك بالموعد فى حينه .

استأنف طريقه ولما رأى الكلبة تطوف حول بيت  
« خوسيه لويس » ، المحضر نادى عليها بصفرة خافتة . لبت  
الكلبة النداء وسارت مطيعة خلفه ، لكنها هجمت عندالناصية  
على سرب من العصافير التى كانت تنقر فى الروث .  
طارت العصافير محدثة صخباً بينما تابعتهم الكلبة ،  
رافعة رأسها ومحركة ذيلها المقصوص بعصبية .

كان يسمع صوت منشار « الأنتوليانو » واطل « النيني »  
من الباب ، المفتوح حتى فى أيام الشتاء الأشد برودة ،  
فرآه ، منحنيا على الطاولة ، ويده القوية تمسك بمقبض  
المنشار . الورشة عبارة عن غرفة سيئة التهوية وحقيقية ،  
تغص بسلخات خشبية ونشارة ، وبها أربع كتل من الخشب  
الخام ملقاة رأسيا فى أحد الأركان . على الحائط ، بجانب  
النافذة ، كان يوجد جبل يدور حول نفسه وينقر فى قضبان  
القفص . مضى زمن كان يعيش فيه « الأنتوليانو » على  
ما يكسبه من صناعة مكاييل الحبوب ، لكن بعد الاستعاضة  
عنها بموازين الحبوب الجديدة مثل الكيلو ، انقطع مورد رزق  
« الأنتوليانو » ، وأصبح يعمل فى كل ما يعرض عليه .  
عند النظر الى « الأنتوليانو » من جانب ، يلاحظ عدم  
التناسق الواضح فى أنفه ، الذى يبدو وكأنه قد نما وحده  
ثم توقف فى منتصف الطريق نكاية فى صاحبه . على أية  
حال ، كان أنف « الأنتوليانو » يشبه أنف ملاكم ، ويشكل  
بالنسبة له ، هو الذى يتباهى بالقوة والجسارة ، نقطة  
ضعف وامتهان . كثيرا ما كان يتطوع بشرح الأمر دون أن  
يطلب منه أحد ذلك : « هل تعرف السبب فى أن أنفى يشبه

كمكة العجين المقلى ؟ يداى هاتان ، عليهما اللعنة » • يدا  
« الأنتوليانو » ، وعليهما الآن نشارة الخشب ، تشبهان  
مجرشتين كبيرتين ، وطبقا لروايته ، فقد كان يسير ذات ليلة  
حالكة السواد وهما فى جيبه فعثرت قدمه وسقط بوجهه  
على حافة بئر « الخوستيتو » ولم يسعفه الوقت لانتزاعهما من  
مكمنهما •

— أهلا — قال له « النينى » من على عتبة الباب •

تسللت الكلبة داخل الورشة ثم أقعت فى زاوية منها ،  
بجوار الشرائح الخشبية المسحوجة حديثا •

— يا شقية ! — ناداها •

انفرجت شفتا « الأنتوليانو » عن ابتسامة مبتسرة دون  
أن يرفع عينيه عن اللوح الذى كان يقوم بنشره •  
— اتركها ، فلن تحطم شيئا •

اضطجع « النينى » على عتبة الباب • كانت شمس  
خريف العذبة تغمر الشارع وتغطى نصف باب الورشة •  
تأ الصبى بكسل وعيناه على الشمس :

— ماذا تصنع ؟

— كما ترى • أصنع نعشا •

التفت اليه « النينى » مندهشا وسأله :

— هل مات أحد ؟

أنكر « الأنتوليانو » دون أن يتوقف عن العمل •

— ليس من هنا — قال • انه من « توريثيوزيجو » •  
« الديفونسو » •

— « الديفونسو » ؟ •

— كان كهلا • تعدى السابعة والخمسين •

ترك « الأنتوليانو » المنشار على الطاولة • جفف عرق  
جبينه بساعده • كان شعره الأشعث يلمع بالنشارة وتفوح  
من كل جسده رائحة الخشب الخام • قال :

— أثمان النعوش فى العاصمة تزداد يوما بعد آخر •  
وكما ترى فكل واحد منها لا يزيد عن أربعة ألواح •  
اكفهرت نظرتة عندما أضاف :

— حقا لا يحتاج الواحد منا لأكثر من هذا •  
جلس عند الباب ، على المصطبة الحجرية ، بجوار الصبى ،  
ثم لف بعناية سيجارة :

— أحضر « أدولفو » البذور أمس • والحوض جاهز —  
قال وهو يمرر طرف لسانه على الطرف اللاصق لورقة  
السيجارة •

— عليك أن تضع فى الحوض تربة حامية — قال الصبى •  
— حامية ؟

— طبقة من الروث أولا ، ثم طبقة أخرى من التراب  
المنخول •

أشعل « الأنتوليانو » السيجارة وسأل بشفتين مضمومتين :  
— روث أبقار أم خيول ؟

— روث خيول اذا كنت تريد تربة حامية ، ثم ترويهـا  
بعد ذلك •

— حسنا • •

جذب « الأنتوليانو » نفسا عميقا من السيجارة ، منكرا  
قال وهو ينفث الدخان بلذة

— اذا نما نبات عش الغراب فى الحوض ، فيجب أن  
أزرعه فى المغارات العلوية •

- فى مغارة جدى ؟
- وفى مغارة « المودو » (٣) والفجرية • فى الثلاث •  
استنكر الصبى بنظرة منه :
- لا يجب أن تفعل هذا – قال : يمكن أن تسقط تلك  
المغارات فى أى يوم •
- صدرت عن « الأنتوليانو » ايماءة بعدم الاكتراث :
- تنبغى المخاطرة •
- تسلق الديك الأبيض فجأة سور الحظيرة ، المجاورة  
للورشة ، نفش ريشه تحت ضوء الشمس ثم مد عنقه وصاح  
بصوت خشن • وثبت الكلبة فى طين الشارع وأخذت تنبح  
بغضب وعندئذ أمال الديك رأسه وأخذ ينفخ من الغيظ  
كالأوزة •
- يمكن أن يسقط هذا الديك • سيجلب لك الكدر  
والاستياء ذات يوم •
- نهض « الأنتوليانو » ، ألقى بعقب السيجارة فى الوحل  
ثم داسه بقدمه وهو يقول :
- لابد وأن يتولى أحد حراسة البيت •
- وعندما هم بدخول الورشة بدا أنه تذكر شيئاً فعاود  
الخروج :
- تقول ان طبقة التراب يجب أن تكون فوق طبقة  
الروث ؟
- نعم • ومنخولة جيداً – أجاب الصبى •
- أمال « الأنتوليانو » رأسه قليلاً وقبل أن يدخل الورشة  
أوماً بيده الضخمة ايماءة صداقة • نادى « النينى » على  
الكلبة وتواريا فى الشارع ، المؤدى الى النهر •

(٣) المودو (El Mudo) لقب آخر لاحدى شخصيات الرواية ، ومعناه الآخرى –  
( المترجم )

كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تنسب الى « النيني » صفة العلم اللدني . لكن « دونيا ريسو » (١) ، أو الوصية الحادية عشرة كما كان يناديها أهل القرية ، كانت تؤكد أن معرفة « النيني » مصدرها الشيطان ، لأن العم اذا كان أحمق فمن الضروري أن يكون ابن العم كذلك .

أما السيدة « كلو » فقد كانت تؤول المثل السابق قائلة ان ابن العم يمكن أن يكون أحمق أو ذكيا تبعا لوجهات النظر المختلفة . أما « الأنطوليانو » فقد كان يرى خلاف ما تقدم : « لكن ، دونيا ريسو ، أليس الأحمق الا ذكيا تجاوز الحد؟ » . فترد « دونيا ريسو » مستنكرة : « رجعنا ثانية للفلسفة ! » . فيضيف « الأنطوليانو » : « ألم أقل صوابا ؟ » وعندئذ ترد عليه « دونيا ريسو » : « لا أدري اذا كان صوابا أو لا ، لكنه مما يروق لك ترديده » .

على أية حال ، فان معرفة « النيني » تنبع فقط من نظريته الفاحصة المتأمل ، ودون الذهاب بعيدا ، فلئن كان الأطفال والشبان يحومون حول العم « روفو » ، العجوز (٢) ، فقد كان هذا بدافع رؤية يده وهي ترتجف ، كي يتخذوها مادة للتسلية فيما بعد ، أما « النيني » فقد كان يقترب منه

---

(١) دونيا (Dona) ( لقب بمعنى سيدة مثل سنيورا (Senora) لكن الاول أكثر وجاهة وخصوصية - ( المترجم ) .

(٢) اللقب الحقيقي الذي أطلقه المؤلف على العم « روفو » هو « الكوي » ( نظرا لبلوئه المائلة سنة ) ، لكننا استعاضنا عنه في الترجمة بكلمة عجوز لأنها أكثر شيوعا في الاستعمال - ( المترجم ) .

بدافع حب الاستطلاع . كان العم « روفو » ، العجوز ، يعرف الكثير عن جميع الأشياء . كان يتحدث دائما بالأمثلة ويعرف أسماء القديسين التي تطلق على كل أيام السنة . وهو وان كان لا يتذكر بالتحديد السنوات التي يحكى عنها . فقد كان بإمكانه ، وعلى خلاف ذلك ، التحدث بجلاء عن طاعون ١٨٥٨ ، وعن زيارة جلالة الملكة « ايزابيلا » وأيضا عن شن المصارعة الراقى لكل من « كوتشارس » و « التاتو » ، بالرغم من أنه لم يشاهد أبدا لمصارعة الثيران .

وعندما كان « النيني » يجلس الى جواره على مصطبة البيت لم يكن يدقق النظر فى حركاته العصبية . بل انه لم يكن يرد أحيانا بنعم أو بلا ، لكن عينيه المترقبتين واهتمامه الفاحص كانا يشجعان العجوز ، هذا بالاضافة الى رباطة الجأش المبكرة عند طرحه لأسئلة أو تقديمه لاجابات .

كان العجوز يتحدث ، عادة ، عن الزمن وعن الحقل مستخدما أسماء القديسين :

— عندما يحل يوم « سان أندريس » ، يبدأ الشتاء .

أو :

— فى « سان كليمنتى » تربو التربة وتغطى البذور .

أو :

— اذا أمطرت السماء فى « سانتا بيبينا » ، يسمنر المطر أربعين يوما وأسبوعا .

كان العجوز اذا تكلم أسهب فى الحديث . وبهذا الشكل تعلم « النيني » الربط بين الزمن والمناخ ، بين الحقل واسماء القديسين ، كما تعلم التنبؤ بالأيام المشمسة ، بموعد وصول القبرات والصقيع المتأخر . وأيضا التمييز بين العقق والشقراق الأزرق ، وبين الحمام المطوقة والحمام البرية .

تعلم الصبى أيضا أشياء أخرى من أجداده • فقد كان لديه ، على خلاف المعتاد • ثلاثة أجداد من جهة الأب والام : جدان وجدة • عاش الثلاثة معا فى المغارة المجاورة ، وأحيانا كان « النينى » يسأل مستقصيا ، وهو صغير جدا ، العم « راتىرو » (٣) عن الجد الحقيقى منهم • «الجميع حقيقيون» — كان يرد عليه العم «راتىرو» وهو يبتسم ابتسامة بين بلهاء وماكرة • قليلا ما ينطق العم « راتىرو » بأكثر من أربع كلمات متتالية • وإذا فعل هذا فمن خلال مجهود كبير يدعه منهكا ، لا بسبب التعب الجسمانى بقدر ما هو بسبب التركيز الذهنى الذى يتطلبه الفعل فى حد ذاته •

كان « النينى » يصحب الجد « أبونديو » ، مقلم الاشجار ، الى « توريشيو ريجو » ، حيث « دون بيرخيليو » الذى يملك خمسين هكتارا من أشجار العنب ويبتاع جميعا بعريشة كرم ومخزنا مهجورا ، بسقف من القرמיד تملوه الثقوب ، حيث يمضيان الليل بصحبة كلاب الرعاة ورجال من اقليم « اكستريمادورا » كانوا يعملون وقتها فى زراعة الجبل بالاشجار • فى الليلة الأولى ، كان الجد « أبونديو » لا ينام ، فقد اعتاد أن يقضى تلك الليلة فى اصلاح السقف بالواح من الصفيح والحجر للاحتماء من البرد والرطوبة • كان يعجب « النينى » تغيير رتبة الحياة بالذهاب الى « توريشيوريجو » بالرغم من شدة فزعه من رجال « اكستريمادورا » بحكاياتهم التى يقصونها الى جوار النار ، أثناء اعدادهم للعشاء البسيط بينما تنام كلاب الرعاة ، مطوية ، تحت أقدامهم • كما كان يفزعه فى الصباح صرير مضخة البئر التى يفتحها جده ، قبل الشروق للاغتسال • كان رجال « اكستريمادورا » يهددونه بالضرب المبرح اذا لم يقلع عن تلك العادة ، لكن

---

(٣) العم « راتىرو » هو والد « النينى » ، لكن المؤلف يطلق عليه هذا اللفظ لأن أهل القرية اعتادوا مخاطبته به — ( المترجم ) •

عندما يجد الجد لا ينفذ أحد منهم وعيده ، ربما لشدة البرودة خارج المخزن .

وفى الحقل ، كان يملك « النينى » احساس مؤلم كل مرة يرى فيها اسوداد الجفان .

وعلى خلاف هذا ، كان الجد « أبونديو » يقطع ، دون شفقة ، الأفرع عديمة الفائدة أينما وجدت ومن فوق كتفه يعطى التعليمات للصبي :

— التقليم ليس قطع الجفان ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

— كل جفن له تقليمه الخاص ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

— الجفنة الخضراء البالغة من العمر ثلاثين عاما تحمل فرعين متصلين ، وآخرين جديدين ، وطرفين أو ثلاثة بدون تقليم ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

— فى الأشجار التى يستخرج منها النبيذ الأبيض أو الأحمر القانى لا نفعل هذا ، بل نترك فى كل منها فرعين بدون تقليم ، برعمين و ( يذبوذ ) ، أسمعت ؟

— نعم ، يا جدى .

عندما كان الجد ينتهى من تقليم كل جفن كان يدفن تحته الأفرع المقطوعة لكى يستفيد بها كسماد . كان يروق للصبي عمل جده وكان يعتقد أن اهتمامه الكبير بالنظافة قد اكتسبه من وظيفته ، من كثرة عمله فى إزالة كل ما هو متسخ وغير نافع من على عريشة الكرم .

وبالرغم من كونهما أخوين ، إلا أن الجد « رومان » كان بمثابة النقيض للجد « أبونديو » ، فلم يكن يقرب الماء الا فى شهر يناير ، وهذا لأن — على حد قول العم « روفو » — ، « الأرانب البرية تعتاد ورود الماء فى الشهر المذكور » . كان



يترك لحيته ولا يحلقها الا مرة كل عام ، فى الحادى والعشرين من مايو ، وهو اليوم السابق لـ «سانتاريتا» . آخر مرة حلق فيها لحيته ، بعد الحاح من أخيه ، كانت فى الشتاء وأرغى وأزبد يومها . كان الجد « روما » يقول للجد « أبونديو » كل مرة يضبطه فيها وهو يفتسل من ماء الدلو : « ابتعد عني ، يا أبونديو ، تفوح منك رائحة مثل رائحة الضفادع » .

إذا كان يفكر ، أو يصطنع التفكير ، كان الجد « رومان » يدخل اصبعاً تحت قبعته الملوثة ويهرش جمجمته بخشونة . وهكذا ، الى أن جاء يوم أكمل فيه « النيني » أربع سنوات ، فقال له الجد « رومان » :

— ستذهب معى غدا الى الحقول .

وخرج ، تحت شمس كالسفرجل ، وفى الأرض المحروقة تحول الجد « رومان » الى نوع من الحيوانات المتربصة . كان يمشى منحنيًا فى زاوية مستقيمة ، يشم الهواء بصوت رنان ، فى كل يد قضيب ، وحتى لحيته بدت وكأنها مزودة بحاسة اللمس . من وقت لآخر كان يتوقف ويختلس بعض النظرات على ما حوله ، دون أن يحرك رأسه تقريبا . عيناه ، فى تلك الأحوال ، تبدوان وكأنهما اكتسبتا حياة مستقلة . أحيانا ، كان الجد « رومان » يميل برأسه الى ناحية متسمعا أو يستلقى على الأرض ليفحص بعناية الحجارة والقش المتبقى من الحصاد .

التقط فى إحدى المرات التى بحث فيها بعرة صغيرة داكنة من فوق فلقة حجر ، ثم ابتسم مبتهجا وكأنه عثر على لؤلؤة ففرع « النيني » :

— ما هذا ، يا جدى ؟

— ألا ترى ؟ البعرة . ليست بعيدة من هنا ، البعرة لا تزال ساخنة .

— ما هى البعرة ، يا جدى ؟

— خى ، خى ، خى ، الروث ! اهكذا أنت ؟  
وفجأة ، تخشب الجذ « رومان » ، اصبعه تحت القبعة ،  
عيناه ثابتتان كزرين ، ثم قال دون أن يحرك شفتيه :  
— انظر ، انها هناك .

اعتدل ببطء ، غرس قضيبا فى الأرض ووضع فوقه  
القبعة ، ثم تحرك رغما عنه راسا نصف دائرة صغيرة بينما  
كان يعطى تعليماته للصبى فى صوت هامس :  
— لا تتحرك ، يا بنى ، حتى لا تفر . أترى فلقة الحجر  
البيضاء على بعد مترين من المنخفض ؟ انها تقعى هناك .  
لا تتحرك ، اسمعت ؟ الا ترى عينيها الوقحتين ؟ لا تتحرك ،  
يا بنى ، لا تتحرك . لم يهتد « النينى » لرؤية الارنبه البرية ،  
لكنه لمحها بعد أن اقترب الجذ شاهرا القضيب الآخر . كان  
ينبعث من عيني الحيوان الصفراوين ، عندما نظر بهما الى  
القبعة . بريق فوسفورى . وشيئا فشيئا بدأت معالم الحيوان  
تتضح للصبى : الخرطوم ، الأذنان الزرقاوان الملتصقتان  
بصلبه ، المؤخرة وبها نتوء خفيف . كانت الأرنبه البرية ،  
كبيوت القرية ، تشكل ، فى انسجام بيئى مدهش ، جزءا  
لا يتجزأ من الأرض التى تقف عليها . اقترب الجذ بجانبه  
منها ، دون أن ينظر اليها تقريبا ، وعندما أصبح على بعد  
ثلاثة أمتار منها رمى المحجن بقوة مخلخلا الهواء . تلقت  
الأنبه الضربة على ظهرها ، دون أن تتحرك ، وفجأة فتح فمها  
مثل زهرة واهتزت مرتجفة عدة لحظات داخل الحفرة . قفز  
الجد « رومان » فوقها وأمسكها من أذنيها . كانت حدقتاه  
تبرقان .

— حجمها كبير مثل كلب ، ألا ترى ؟  
— حسنا — أجب الصبى .  
— تم كل شئ بنظافة ، أليس كذلك ؟  
— نعم .

نكن الصبى لم يعجبه عمل الجد « رومان » ، فقد كان يكره الموت فى جميع صوره . . .

وبمرور الزمن لم يتغير موقفه تقريبا ، بمعنى ، أنه كان يسمح فقط بموت الفتران التى كان يأكلها والغربان والعقاق ، لأن ريشهما الجنازى كان يذكره بموت الجد « رومان » والجد « الومينادا » ، بنعشيهما المتجاورين فوق عربة « لاسيميونا الكارو » ولنفس السبب كان الصبى يكره « ماتياس ثليمين » ، المختلس (٤) .

كان الجد يواجه ، على الأقل ، الأرانب البرية ، بيتما كان المختلس يتسلل الى مراقدها ، ويطير جماجمها بطلقات بندقيته ، دون أن يعطيها أية فرصة . ومع هذا لم يكن المختلس يكف عن سؤال الصبى :

— « نينى » ، أيها الصعلوك ، دلنى على مكان الزبذب (٥) وسأعطيك خمس بيزيتات ان أصبت . . . كانت عينا المختلس رماديتين ومشاكستين كعيني صقر . أما جلده المحترق بشمس ورياح الهضبة فقد كان ينطوى ألف طية عندما يضحك متجها الى الصبى ، وكان فمه يبين ، فى تلك الأحوال ، عن أسنان مفترسة مخيفة .

تعرف « النينى » ، بجوار الجد « رومان » ، على الأرانب البرية ، تعلم متى تجرى ومتى تبحث عن مأوى بين الحقول ، كما عرف أنها تتفادى أيام الشتاء جفان الكرم وأشجار الصنوبر الصغيرة ، واذا هبت الريح من جهة الشمال فانها تأوى الى جنوب الجبل أو الى النباتات الشائكة ، أما اذا هبت من الجنوب فانها تأوى الى الشمال ، وأنها تبحث فى الأصبحة المشمسة لشهر نوفمبر عن ملاذ آمن بين المنحدرات . كما

---

(٤) المختلس هو الذى يصيد ، لا رخصة ولا يحترم قواعد الصيد ولا مواسم الحظر .  
(المترجم) .

(٥) الزبذب . حيوان برى يعيش فى الجبال أو فى الصحراء .  
(المترجم) .

تعلم التمييز بين ارناب الأماكن المنخفضة - بنية كارض المنطقة - وبين الأرناب الجبلية - حمراء مثل ارضه - .  
تعلم أن الأرنبة البرية ترى في الليل مثل النهار ، وحتى عندما تنام ، واستطاع التمييز بين طعم الأرنبة التي صيدت ببندقية وبين التي صيدت بالضرب أو التي صادها كلب ، حيث يكون لحم الأخيرة لأذعا بسبب المشوار الذي جرت به . وتعلم ، في النهاية ، كيف يحدد مكانها بدقة ويحدد ، في غلس الليل البهيم صوتها الخشن الخارج من الحلق . لكنه تعلم أيضا ، بجانب الجد « رومان » ، الاحساس ينبض الحياة حوله .

في القرية ، كان الناس يلعنون السكون ويسخطون عند رؤية الغمام والجفاف أو الصقيع الأسود قائلين : « لا يمتن العيش في هذه الصحراء » . لكن « النيني » ، الصبي ، كان يعرف أن القرية لم تكن صحراء وأن كل جزء من الاراضي المزروعة أو البور ينبض بمئات الحيوانات . كان يكفيه الاستلقاء على الأرض والملاحظة لاكتشاف تلك الحيوانات . كانت تدله بعض الآثار على الأرض أو بقايا الأفرع المهشمة أو مجرد ريشة ملقاة على وجود الحبارى الصغيرة ، بنات عرس ، القنافذ أو الكروان .

وذات يوم ، منذ عامين ، حلق الجد « رومان » ذقنه ومرض . أما الجدة « ألومينادا » ، التي كانت ترعاه في المغارة ، فقد وجدوها في الفجر متييسة ، جالسة على المقعد ، دون أن تتغير ملامحها أو هيئتها ، كما لو كانت نائمة .

كانت الجدة « ألومينادا » تذبح لأغنياء المنطقة كل عام ، وتفتخر بأن أي خنزير لم يكن يهمهم أكثر من ثلاث مرات بعد ذبحه بالسكين ، كما أن سكينها لم تكن تخرج روثا من بطن الحيوان عندما تقوم بسلخه .

وعندما وصلت عربة « لاسيميونا » الكارو الى المغارة وعليها التابوت ، مات الجد « رومان » أيضا ولزم احضار تابوت آخر . كان حمار « لاسيميونا » يجر التابوتين مبتهجا .

فى طريق المنعدر . لكنه عندما وصل الى القنطرة الصغيرة  
دخل الاطار الايسر للعربة فى التعشيقه فسقطت فى النهر .  
وعندئذ فتح تابوت الجدة وظهرت وهى تنظر اليهم فى  
هدوء . كان فمها فاغرا ، كأنما أخذت على غرة ، ويداها فى  
حضنها . لكنها هناك ، داخل التابوت ، طافية فوق المياه  
القدرة ، كانت أشبه بامرأة محفوظة . عندما علقت السيدة  
« كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، على سكون الجثة وصفوها  
داخل التابوت قالت ان « لا الومينادا » خلقت لتعيش تحت  
الأرض ، وأن الموت لم يكن يفزعها . عندما عاد « النينى »  
والعم « راتيرو » من المقابر ، كان الجد « أبونديو » قد رحل ،  
لا أحد يعلم الى أين ، ومعه أدوات التقليم .

## — ٤ —

انحنى العم « راتيرو » ، الصق أذنه بالأرض وفحص  
متسمعا أحشاءها • عاود النهوض ، أشار بسيخ الحديد الى  
حفرة بجوار النهر وقال :  
— انها هناك •

مزت الكلبة ذيلها المقصوص وتشممت فوهة الحفرة •  
جست أخيرا على الأرض ، ورأسها الصغير مائل الى ناحية ،  
ظلت بلا حراك ، مترقبة •

— حذار — قل « الراتيرو » وبضربة واحدة غرس  
السيخ على بعد متر من الشاطئ •

مرقت الفأرة بسرعة أمام خرطوم الكلبة محدثة ، عند  
مرورها بين حلفاء الشاطئ الجافة ، حفيفا كحفيف الأوراق  
المتساقطة • صاح « النيني » :

— هيا وراءها •

أسرعت الكلبة كالبرق خلف الفأرة • جرى الرجل  
والصبي في المنحدر ، محمسين الحيوان بصيحاتهما • جرت  
مطاردة مضنية بين مخلفات الحلفاء وشجر اللبلاب • هشممت  
الكلبة ، في هيجانها ، سيقان نبات البوط الهشة ، فتساقطت  
ثمارها في النهر وحركتها الأمواج حركات متأرجحة •  
توقفت الكلبة فجأة • تعسف « الراتيرو » و « النيني » على  
مكانها بالضبط بفضل نباتات البوط المنتصبة السامقة ،  
هناك حيث تنتهى الثلثة المفتوحة بين الأحراج •  
— أحضرها يا « فا » — صاح « النيني » •

اهتزت نباتات البوط لحظة ، سمع حفيف هراع مكنوم ،  
وفى النهاية ، دمدمة قصيرة ، قال العم « راتيرو » :

— لقد أمسكت بها .

رجعت اليهما الكلبة وهى تحرك ذيلها المخصوص  
بابتهاج والفأرة فى فمها . أخذها العم « راتيرو » من بين  
أسنان الكلبة ثم تمتم :

— انه ذكر كبير .

كانت أسنان الفأر نطل دن تحت خرطومها فى عدوانية  
عديمة الفائدة .

منذ « سان تكارياس » و الرجل والصبي يهبطان الى  
النهر كل صباح . وظل الامر على هذا الحال منذ ان ادرك  
الصبي التمييز بين الاشياء . كان عليهما الاستنادة من  
الخريف والشتاء . ففى شذنين الفصلين ننساقط اوراق  
الاشجار الوارفة ، ويتحول الكرفس المائى والصفصاف  
واللبلاب وشجيرات النعناع الى فضلات جافة تستطيع الكلبة  
البحث الجيد خالها . فقط كان البوص ، بأوراقه التى يحركها  
الهواء ، والبوط بشماره الداكنة يسجلان فى عرض النهر  
علامة البقاء والاستمرار . كانت أطراف نبات الأسل انقليل  
على جانبي النهر تصفر ، وكأنه شئ يتدهور ، فى طريقه  
أيضا الى الزوال . ومع ذلك ، وعام بعد آخر ، عندما يصل  
الربيع ، تزين الخضرة مجرى النهر من جديد ، فتمتد قامة  
نبات الأسل ، ويكتسى البوص بأوراق كالحرايب وتنضج ثمار  
البوط لتفمر الحقول بالزغب الأبيض لزهرة الشوك . كان  
الأريج اللزج للنعناع الشيطاني والازدهار الكثيف لكرفس  
الماء ، يغطى الممرات ، ويعوق أية محاولة للمطاردة تقوم بها  
الكلبة .

وعندما يحل موسم الحظر كان العم « راتيرو » ، محترما  
فترة تناسل الفئران ، يظل فى مغارته حتى مقدم الخريف .

لم يكن العم « راتيرو » يريد استئصال شأفة الفئران .  
أحيانا ، كانت الكلبة تستعد للهجوم وعندما يلاحظ العم  
« راتيرو » بعض الأعشاب الجافة على باب الجحر كان يردعها  
قائلا :

— انها تجهز العش للصغار ، هيا بنا .

وعندئذ تنسحب الكلبة دون مقاومة . فبينها وبين  
الرجل والصبي يوجد تفاهم غير منظور . كان الثلاثة يوقتون  
أنهم باصطياد الصغار لن يحصلوا على شيء آخر سوى البقاء  
دون مورد للطعام . تتكاثر الفئران كل ستة أسابيع وفى كل  
بطن تلد الجرذة ما بين خمس أو ست . ولهذا ، فان كل بطن  
تعنى عشر بيزيتات على الأقل ، وهو مبلغ لا يستهان به .  
كما كانت الكلبة تتخذ موقفا سلبيا مشابها اذا كان باب  
الجحر تحت مستوى ماء النهر . لأنها تدرك أن محاولتها  
ستبوء بالفشل .

وفى مثل هذه الحالات ، كان العم « راتيرو » يعتمد  
على نفسه . كان يغمس يده اليمنى فى الطين ضابطا تجويف  
راحتة على أبعاد الجحر ، ثم يخذ بعد ذلك بيده اليسرى  
فتتحرك الجرذة محاولة الهرب . بعد هنيهة يشعر بدغدغة  
لزجة تلامس يده فيطبق وبسرعة يده القوية ثم يرفعها  
منتصرة الى السطح وهى ممسكة بخرطوم الفريسة . كان  
يكفيه جذب ذيلها بقوة لكى يحطم عمودها الفقرى .

فى «سان ساباس» عضت جرذة العم « راتيرو » . كانت  
قد انقضت حينذاك أربعة أسابيع على انتهاء موسم الزراعة  
بالقرية .

اعتاد العم « روفو » ، المجوز ، القول : « بعد انتهاء  
عيد آخر قديس ، اجمع الشوك وازرع القمح » . وفى هذا  
العام ، وكأنه شعار يجب أن يتبع ، ظهر كل حقل من حقول  
القرية وبه عمود علق عليه غراب ميت . حامت أسراب



الغربان مشوشة طوال يومين بالأمكن القريبة ثم طارت  
أخيرا فى اتجاه الشمال .

كان « بيرخيليو مورانتى » ، زوج السيدة « كلو » ،  
يضحك فى الحانة قائلا :

— سيشكر لنا هذا الصنيع أهالى « توريشيوريجو » .

ولكن اذا كانت الغربان قد ابتعدت عن حقول القرية  
فان المطر تأخر . ولذا فقد انبرى « الروسالينو » ، وكيل  
أعمال « دون أنتيرو » ، قائلا :

— اذا لم تمطر السماء فى « سانتا ليوكاديا » فعلينا  
زراعة الأرض من جديد .

فرد عليه « البرودن » الذى تشخذ المصائب قريحته ،  
بأن الأذى يحقق فقط بالفقراء ، لأن من يستخدم الماكينات ،  
مثلهم ، لن تكلفه إعادة الزراعة الا القليل التافه . فأطلق  
السيد « روسالينو » ، الذى كانت رأسه تلامس الأفرع الأولى  
لأشجار الصنوبر الثلاث ، ضحكة مدوية ، ثم قال :

— فلتلطموا الخدود اذن لأنه لا يزرع الآن سوى  
المتسولين والبلهاء .

فى المساء ، أتى « البرودن » الى باب المغارة مكتئبا :

— « نينى » ، السماء لا تمطر ، ماذا نفعل ؟

— الانتظار — رد الصبى فى اتران . عندئذ طأطأ  
« البرودن » رأسه ، لأن نظرة « النينى » الهادئة كانت تربكه .

عندما مضت الفارة اصبع العم « راتيرو » ، فى « سان  
ساباس » ، كانت تسبح فى السماء الخريفية الصافية شمس  
حمراء منتفخة كمنطاد . وفوق القرية يمتزج ضباب فاتر  
بدخان القش المحترق فى البيوت .

كان القطامى يرقب فوق برج الكنيسة مطوحا جناحيه  
بغصبية ، دون أن يتقدم أو يتأخر .

نظر الصبى الى السماء فى اتجاه القمم العالية ثم قال :  
- ستمطر غدا .

- نعم - أردف العم « راتىرو » ، ثم استوى جالسا فى المنحدر ، نتج الخرج وأخرج نصف رغيف عليه شحم خنزير .  
قسم ما معه وأعطى الصبى نصفه . قطع بعد ذلك شحم الخنزير وحمل بسن المطاوعة قطع الشحم الى فيه .  
- شن نشمر بوجع ؟ - سأل الصبى .

نظر « الراتىرو » لأصبعه المتورمة ، وأجاب :  
- لا أحس الآن بوجع .

ذئف حظيرة المواشى التى يسمد منها « خوستيتو » ،  
العمدة ، أرضه رنت جلاجل قطع « الرايينو جراندى » .  
كن « المورو » ، الكلب ، قد سبقه ووقف ينظر اليهما وهما  
ياكزن محركا ذيله فى استكانة . اقترب من الكلبة فمهممت  
له كاشفة عن أنيابها . كان « الرايينو جراندى » يضع جلد  
شاة على كنفه ، قال بعد أن نظر الى الشمس :

- ألم تعد فى السماء نقطة ماء واحدة ؟

لف سيجارة دون انتظار لاجابة ، أشملها ثم جذب  
نفسين عيقتين وظل ناظرا الى قداحته البدائية فى استياء :  
- ألن يستحدثوا قانونا لدفع الضرائب على مثل هذا  
الجلد ؟

لم ينظر اليه العم « راتىرو » . فأضاف « الرايينو  
جراندى » :

- لو حدث هذا لألقيت به فى النهر ، ولا أبالى .

كان يدخن وهو واقف ، مستندا على عصاه ، بلا حراك ،  
وعيناه تنظران الى بعيد ، كتمثال . وجلاجل النعاج ترن  
حوله . سأل « الراتىرو » فجأة :

- هل رأيت ه ؟ مشيرا بابهامه فى اتجاه «توريشيوريجو» .

— لم أراه فى عامنا هذا — رد الراعى دون أن يغير موقفه .

— لقد رآه « المالبينو » — قال « الراتيرو » .

— ما تقوله غير صحيح .

— لقد رآه « المالبينو » — أصر « الراتيرو » .

فى الحانة ، كان « المالبينو » قد حذره اليوم السابق :  
« حذار من هذا ، يا « راتيرو » ، فهو يأتى ليسلبك لقمة العيش . أنت تعمل فى هذه المهنة قبل أن يولد » .

ألقي « الرابينو جراندى » ، الراعى ، بعقب السيجارة فى النهر ثم طلب بعد تفكير :

— أعطنى جرذتين ، هيا ، بيزيتتين الا ربما ، حقا ؟

— بل بيزيتتان — رد « النينى » .

— حسنا ، لكن أعطنى هذا الذكر .

نفض العم « راتيرو » ، تمطى بكسل معملقا فى النهر ،  
وواضعا يده امام وجهه للاحتماء من ضوء الشمس .

قال الراعى غاضبا :

— أخبرتك أننى لم أراه ، يا « راتيرو » . ألا تثق فى كلامى ؟

— لقد رآه « المالبينو » — تحدث « الراتيرو » من بين أسنانه .

تحسس « الرابينو جراندى » صلب الجرذتين بلذة قبل حفظهما . وعندما هم بالانصراف قال :

— أرجو أن يستقيم لك الحال .

عندما غابت الشمس وراء الأفق ، ذهب الرجل والصبي الى القرية . كان الضباب يتكاثف فوق البيوت ، وتطلق

تحت اقدامهما الأرض المحروقة والصلبة بفعل الجفاف .  
والكلبة تسير خلفهما متعبة . وقد عادت حمائم « الخوستيتو »  
الى أبراجها ، ولم يبق سوى أربعة صبيان يبتون بألعابهم  
الروح فى شوارع القرية الميتة . فى العانة ، كان الوضع  
مختلفا . نظرا لبعض النشاط داخلها . كان المصباح العارى  
يوزع ضوءه الأصفر على الموائد . وعلى المائدة الخلفية كان  
يلعب « فروتس » ، المحلف ، مباراة الدومينو التى لا تنتهى  
مع « بيرخيلين مورانتى » ، زوج السيدة « كلو » ، الذى كان  
يترنم بأغنية يختتم كل مقطع منها بضرب المائدة بقطعة  
« دومينو » .

قال « البرودن » بمجرد أن رأى « الراترو » :

— « مالبينو » ، كأس من النبيذ للعم « راترو » .

كان حدثا غير عادى ، لما اشتهر به من بخل . لكن  
« البرودن » فى تلك الليلة كانت تبدو عليه أمارات الاثارة .  
أخذ « النينى » من عنقه وبدأ يشرح له فى غموض مشروع  
الرى الذى تناولته الصحيفة اليومية وتقع قريرتهم فى  
نطاقه . قال للصبي مندفعاً ، من مكانه على المقعد الخلفى :

— ضع فى اعتبارك ، يا « نينى » ، أن الأمر سيكون  
سواء : أمطرت السماء أم لم تمطر . عندما يريد « البرودن »  
ماء فما عليه الا رفع محبس المياه . أفهمت ؟ سنترك العيش  
كالكلاب ناظرين الى السماء اليوم بطوله .

أطبقت فترة صمت طويلة ، لم يكن يقطعها الا صوت  
اصطدام قطع الدومينو بالمائدة ، مصحوبة باللحن المكرر الذى  
يغنيه « بيرخيلين مورانتى » . وأخيرا ، نطق العم « روفو » ،  
العجوز ، من الناصية المقابلة بصوته الجهورى :

— لو كانت المشاريع تكثر من الغلال ، لما بقى فى هذه  
الساعات مكان فارغ بالشون . أطبقت فترة صمت أخرى .

نظر « البرودن » بثبات الى « النيني » ، لكن شفتا الصبي لم  
تنفرجا عن كلمة •

نادى مفتاظا رجل منكمش الكتفين من على المائدة  
المجاورة :

ـ هات كأسين • قبل أن يصل الماء هيا نقضى على  
النبيد •

كان الجو مظلما خارج الحانة ، أطل قمر أخضر فاتح  
وعليل من خلف ربوة « كلورادو » ثم ارتفع بفتور فوق سماء  
معدنية عالية •

فى « سان دامسو » أرسلت السيدة « كلو » ، صاحبة  
دكان الخردوات ، فى طلب « النينى » اقتادته الى حظيرة  
الخنازير :

— اختبره ، يابنى ، أعتقد أنه نما بما فيه الكفاية .  
تحسس الصبى الخنزير ثم قال :  
— لم يصل بعد الى الحد المطلوب .

كانت السماء تمطر وقتذاك ولم يكن من المستطاع فعل  
شئ .

فى « سان نيكاسيو » انقطع المطر ، لكن الصبى نظر الى  
السماء وقال :

— اصبرى ، يا سيدة « كلو » ، مازال الجو رطباً  
ينبغى الانتظار حتى تصفو السماء . منذ أن وصل « النينى »  
لسن الإدراك ، عرف بأن السيدة « كاو » ، صاحبة دكان  
الخردوات ، تحتل المرتبة الثالثة بين أغنياء القرية . كان  
أمامها فى الترتيب « دون أنتيرو » ، الغنى ، و « دونيا ريسو » ،  
الوصية الحادية عشرة . كان « دون أنتيرو » يمتلك ثلاثة  
أرباع أرض القرية ، وتملك السيدة « كلاو » و « دونيا ريسو »  
ثلاثة أرباع الربع الباقي ، أما الجزء المتبقى فموزع مناصفة  
بين « البرودن » والثلاثين فلاحا الموجودين بالقرية . ولم  
يمنع هذا « دون أنتيرو » من التباهى فى مسامراته بين  
أصدقاء المدينة بأن « ما يفعله من خير لقريته يوازى التوزيع  
العادل للأرض » وعلى فرض أنه كان يعتقد هذا ، فإنه لم يكن  
يدخر وسعاً وقت الدفاع عن ممتلكاته وفى العام الماضى رفع  
دعوى ضد « الخوستيتو » ، العمدة ، لأنه لم يخلق برج  
الحمام أثناء موسم الزراعة . وعند تدبير الأمر ملياً يتضح

أنه لم يكن يمر عام الا ويختلق فيه « دون أنتيرو » مناجرة أو اتنتين بالقرية ، وأنه لم يذن يعمل هذا لسوء طويته ، على حد تعبير « روسالينو » وكيل أعماله ، بل لأن مواسم الشتاء طويلة ومملة في المدينة ولا بد من شيء يتسلى به سيد \* وبنى أية حال ، فقد كان « دون أنتيرو » يؤجر ، عندما يدخل عيونه القرية السنوي ، بقرة معيبة لكي يجرى وراءها النيسان ويضربوها على هواهم ، وبهذا الشكل ينفسون عن الاحتقاد والضغائن المتجمعة في الصدور طوال الاثنى عشر شهرا السابقة .

وفي تلك المناسبة ، ومنذ ثلاث سنوات ، خاد « السبي » أن يعهد الامور \* كان من الممكن ان تفع كارتة محفقه لولا تدخل « دون أنتيرو » ، الذي كان يطمح في ان يتسلى مع السبي الصبي أجيرا منقطع النظر \* وتتلخص الواقعة في ان « النيني » رق قلبه لخوار البقرة المؤثر في الهزيع الأخير من الليل ، وعليه فقد تسلل الى حظيرة « دون أنتيرو » واطلق سراحها \* لم تفد لمحتة الانسانية الا في القليل ، لأن السيوان عندما عاد الى الحظيرة ، بعد الامساك به صدقة خارج القرية ، كانت جبهته تنزف وقرنه مكسورا وظهره مثقنا بالجراح \* ومع هذا فقد كان من الممكن أن تتأزم المسألة ، عندما امار « ماتياس ثليمين » ، المختلس ، في خسة قائلا : « هذا عمل لا يقوم به الا « النيني » الصعلوك » \* ولحسن الحظ فقد كان « دون أنتيرو » يعرف مواهب الصبي وعلمه اللدني فسوجه الى « الروسالينو » ، وكيل أعماله ، مستفسرا : « أليس هو « النيني » ابن « الراتيرو » ، صاحب المفارة ، هذا الذي يعرف كل شيء ويفعل كل ما يطلب منه ؟ » \* « أجل ، يا سيدى » - أجاب « الروسالينو » \* « اذن دعه يتشاقى واليوم الذي يبلغ فيه الرابعة عشرة أحضره الى بيتى » \*

أثناء فصل الشتاء ، كانت الثلوج تسقط بغزارة ، ولم يكن « دون أنتيرو » يزور القرية الا لاما \* لم تكن السيدة

« كلو » ولا « دونيا ريسو » تذهبان لأرضهما لا فى شتاء أو صيف ، لأنها كانت مؤجرة . ولكن ، بينما كانت « دونيا ريسو » تحصل ايجارها نقدا وفى موعده ، سواء أمطرت السماء أم لا ، نزلت الثلوج أو تكاثف البرد ، كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تقبض ايجارها قمحا أو شعيرا أو سلتا اذا كانت الأمور تسير على ما يرام ، أما اذا كانت الأمور لا تسير على ما يرام أو لا تسير ، فانها كانت تحصل ايجارها كلمات معسولة مطمئنة .

وبينما كانت الوصية الحادية عشرة لا تسمح بمناداتها الا بلقب « دونيا » ، كانت صاحبة دكان الخردوات تسمح بنطق اسمها مجردا : وبينما كانت الوصية الحادية عشرة نحيفة ، خصوما وفظة ، كانت السيدة « كلو » بدينة ، صريحة وبشوشا : وبينما كانت « دونيا ريسو » تتفادى التعامل مع الناس وتهوى النسيمة ، كانت السيدة « كلو » متحدثة بارعة ، تدبر شئون الدكان والمخزن بنفسها وتتفانى فى خدمة العصفورين ، وسكنا لزوجها ، « ألبرخيليو » ، وهو فتى أشقر ، مهذب ومثقف ، أحضرته من المدينة وكان يقول عنه « المالبينو » ، صاحب الحانة ، أنه فتى غض الاله لم يخلع ملابس المدرسة الا حديثا .

تدخل « النيني » تدخلا مباشرا فى موضوع العصفورين اللذين أرسلتهما أختها ، « لادى ميريس » ، المتزوجة بموظف فى مصلحة التليفونات . أسكنتهما السيدة « كلو » فى قفص مذهب جميل ، به حوض للأكل مطلق باللون الأزرق ، كانت تضع فيه بذور القنب ولباب الخبز ، وفى المساء كانت تدخل فى القفص حصاة صغيرة مكسوة بالقطن حتى لا يفقد العصفوران الدفء الأموى . وبعد أن شبا عن الطوق ، كانت السيدة « كلو » تمسك بورقة من الخس بيد وتدخلها بين قضبان القفص وباليدين الأخرى حجرا من الكلس ، الورقة لكى لا يحدث للعصفورين امساك والحجر لكى يشحذا



منقاريهما فيه • فى خلوتها معهما ، كانت تتحدث اليهما  
ينبرة صدق كما كانت توپخهما بلطف كلما سنحت الفرصة •  
من شدة العناية بهما وصل العصفوران الى حد اعتبارها اما  
حقيقية لهما ، وفى كل مرة كانت تقترب من القفص دان  
الذكر ينفش ريشه ويظهر حوصلته الوردية الفاتحة كما لو  
كان يتهايا لضمها الى صدره • وهى بكلام معسول : « لنرى  
من الأول الذى سيعطينى قبلة ؟ » • ويحدث هرج ومرج بين  
العصفورين ، يحاول كل منهما أن يكون الأول الذى يضع  
منقاره الصغير بين شفتيها السميكتين • وتحذرهما السيدة  
« كلو » اذا تشاجرا معا : « لا ، يا صغارى ، أتسمعان ؟  
يا صغارى ، لا » •

فى « سان فيلبكس » ومنذ أربعة أعوام ، أهدي « النينى »  
للسيدة « كلو » عشا فارغا للعصافير ، منبها اياها بأن  
العصافير تتكاثر وهى غير مكشوفة فأضاء وجهها بالسرور كما  
لو كان يخبرها بأنها ستكون جدة • وفعلا ، فعندما استيقظت  
السيدة « كلو » ذات صباح لاحظت أن الأثنى ترقد فوق العش  
ولم تحضر لاعطائها القبلة المعتادة عندما تقترب من القفص •

لم تغير العصفورة من مرقدها طوال فترة الحضانة ، وبعد  
عدة أيام ظهرت فى العش خمسة عصافير وردية فأسرعت  
السيدة « كلو » ، بقلب مفعم ، الى الشارع وأعلنت الخبر لكل  
من قابلها • لكن فرحتها لم تدم كثيرا ، فبعد ساعات قليلة  
مات زوج من العصافير وبدأ الآخرون فى فتح مناقيرهم  
وضمها كما لو كان ينقصهم الهواء • أرسلت فى طلب  
« النينى » ، وبالرغم من مراقبة الصبى المتأنية فى الساعات  
التالية ، واجتهاده فى تقديم ثمرات برية وحبوب من مختلف  
الأنواع للعصافير ، الا أنهم فارقوا الحياة صبيحة اليوم التالى  
والسيدة « كلو » مغتمة ، رحلت الى المدينة ، عند أختها ،  
لتحاول النسيان •

عندما عاهت بعد اثني عشر يوما ، لاحظ « النيني » ،  
الذى كان الى جوار « لاسابيننا » المكلفة برعاية الدكان ، أن  
عينى السيدة « كلو » تتألقان كعينى تلميذة فى مدرسة  
ثانوية . تحدثت الى « لاسابيننا » متعجلة : « فى «سان أمانثيو»  
أنت مدعوة لحفل زفافى ، المريس يسمى «بيرخيليو مورانتى»  
وهو فتى أشقر وعيناه زرقاوان كحلية صغيرة » .

عندما قدم « انبرخينيو مورانتى » الى القرية ، شابا  
صغيرا غض الالهاب ، كان الفلاحون ينظرون اليه بازدراء  
وأخذ « المالبينو » يستظرف فى الحانة قائلا أن الفتى لم ينلح  
ملايس المدرسة الا حديثا . لكن منذ أن تناول «البيرخيليو»  
كأسين من الشراب وعزف مقطوعة موسيقية أبكت السم  
« روفو » ، العجوز ، عم التقدير والاحترام بين الجميع ،  
وهكذا فما من مرة يرونه فيها الا ويقولون :

— هيا « بيرخيليو » ، أيها الفتى ، اعزف لنا قليلا .

فيحقق رغبتهم أو يرد :

• اليوم لا أستطيع — اعذرونى ، صوتى مبجوح

وخلال الاحتفال بالأضحية ، فقدت الثرثرة معناها فى  
بيت السيدة « كلو » . كان الناس يحضرون هناك مدفوعين  
بالرغبة فى سماع «البيرخيليو» وهو يفتى . حتى «النيني» ،  
الذى تولى مهمة الذبح بعد موت جدته ، كان يشعر  
بالتضاؤل .

صفت السماء فى « سان ألبينو » فهبط « النيني » الى  
القرية وأخذ خنزير السيدة « كلو » وتمشى به لمدة ساعة  
ثم وصف له الماء والنخالة . بعد يومين سقطت على القرية  
ثلوج قاسية .

فى مثل هذا الوقت تكون طيور الزرزور قد غرت  
ريشها ، ويأتى الشتاء الذى تلمع فيه الأرض من الصقيع

وتصبح صلبة كالجرانيت كما يتحول ماء النهر الى ثلج ، وكل صباح تنهض القرية متتاقلة فى جو من الزجاج ، حيث تقرقع أدنى ضوضاء مثل ضربة سوط .

حينما وصل « الراتيرو » و « النينى » الى دار السيدة « كلو » ، كانت الجلبة تصدر منها وكان اليوم عيد . لمد حضر من المدينة أبناء الأخت ، وكان هناك ايضا « لاسابيننا » و « البرودن » وابنهما ، « الماميريتو » ، والسيدة « لوبرادا » ، و « الخوستيتو » ، العمدة ، و « الخوسيه لويس » ، المحضر ، و « الروسالينو » ، الوكيل ، و « المالبينو » ، و « المامس » . الأخرس ، و « الانتوليانو » ، والسيد « رونو » ، العجوز ، وابنته « لاسيميونا » ، عندما دخلا كان « البيرخيليو » يعزف منفصلا وكلهم فاغرو الأفواه ، وبعد أن انتهى صمقوا له و « البيرخيليو » لكى يدارى ارتباكهم ، وزع على الحاضرين قطعة من الخبز المحمص وعددا من كئوس النبيذ . كانت النار تخرج كثيرا من الشرر وعلى المائدة والأرفف كانت السيدة « كلو » قد وضعت ، بالترتيب ، البصل ، ولباب الخبز ، والأرز والسكر لعمل السجق .

وبجانب الفرن صفت السكاكين حسب أحجامها ، كما كانت توجد جفنة كبيرة ، ثلاث من الأواني الخشبية وغلاية نحاسية لاذابة الدهن .

فى الحظيرة ، خلع الرجال ستراتهم الصوفية وشسروا عن سواعدهم برغم الصقيع وتجمد الهواء بمجرد خروجه من الأفواه . كان العجوز يجرجر قدميه بتثاقل وسط المجموعة وفيجأة فرك يدا بأخرى ثم قال : « يوم الثلاثاء لا تزوج ابنا ولا تذبح خنزيرا » . نظرت اليه السيدة « كلو » محتدة بعد أن سمعته : « دعك من النصائح . اذا لم يعجبك هذا فأرحنا من وجودك » . ثم اتجهت الى زوجها ، الذى شمر قميصه مثل الآخرين فأبان عن ذراعين أبيضين أمردين ، وقالت له : « أنت لا ، يا بيرخيليو ، يمكن أن تصاب بالبرد » .

فتح « الانتوليانو » الحظيرة فاطل منها الخنزير وعندئذ قبض على أذنه بيد من حديد وطرحه أرضا ، بمساعدة « المالبينو » ، « البرودن » و « الخوسيه لويس » . بعد أن رأى الأولاد الخنزير - الذى كان يصرخ صرخات تشكك كل واحدة منها سحابة من البخار حول فمه - مستلقيا على الأرض ، تجاسروا وبدعوا فى جذب ذيله وتسديد الركلات الى بطنه . بعد ذلك ، تعاون ستة من الرجال على تمديد الخنزير فوق المقعد وفحصه « النينى » ثم رسم علامة الصليب فوق قلبه بقطعة من الجص وعندما سدد العم « راتيرو » سكينه بنفس الثبات الذى يخرس به سيخ الحديد فى النهر ، أعطى للصبي ظهره وبدأ فى عد الهمهمات ، واحدة بعد أخرى ، حتى ثلاثة . وسرعان ما صاح « البرودن » :

— لقد مات !

التفت « النينى » حينئذ ، اقترب من الخنزير ، وباصبع مدربة ، وضع ورقة كرنب فى الثقب المفتوح فى الرقبة لكى يمنع نزيف الدم ، وأخيرا فتح فم الحيوان ووضع حجرا بداخله .

كان الرجال يتحلقون حوله بينما كانت النساء تتهاشم فى الخلف . سمع صوت « لاساينا » الخافت :

— يا له من صبي ! كل مرة أراه فيها أتخيل المسيح بين حواريه .

اجتهد « النينى » فى ألا يتذكر جدته « الومينادا » حتى لا يرتكب أخطاء . غلف بمهارة جثة الحيوان بقش السلست وأشعل فيه النار ، أخذ جذوة مشتعلة وكوى بعناية الفجوات الموجودة تحت الابطلين ، الحوافر والأذنين . ارتفعت رائحة الحريق وعندما خمدت النار قام « المامير تيتو » ، صبي « البرودن » ، وأبناء أخت السيدة « كلو » بتقليم أظافر الحيوان وأكلوا الكعوب .

وجاءت اللحظة الحاسمة ، لا لأن سلخ الخنزير كان مهمة صعبة في حد ذاته ، بل لأن الظرف كان يحتم الرجوع بالذاكرة الى ما كانت تفعله الجدة « الومينادا » . ارتعشت قليلا يد « النيني » التي كانت تحمل السكين عندما صاح من خلفه « المالبينو » :

— حذار ، سكين جدتك في مثل هذا الظرف لم تكن تخرج روثا أبدا !

رسم الصبي ذهنيا خطا متساوي الأبعاد للضرع ثم شق من منتصف زاوية اللغد وحتى الشرج دون تردد . بعد أن جزأ ، بعد ذلك ، نسيج الأمعاء بطعنة سكين ماهرة تعالت حوله صيحات الإعجاب . خرجت رائحة نتنة قوية تصيب الرأس بالدوار من الأمعاء التي أفرغها « النيني » في الأواني الخشبية ، ولكي ينجز عمله أدخل في الفتحة خابورين ليصنع منهما اسفيناً . ثم عاونه كل من « الأنتوليانو » و « المالبينو » في تعليق الخنزير من رجليه الخلفيتين .

سال من فم الخنزير خيط رفيع من الدم مكونا بركة صغيرة حمراء فوق أرضية الحظيرة الباردة .

اقتربت السيدة « كلو » من « النيني » الذي كان يغسل يديه في إحدى الأواني ، وقالت له بحرارة :

— تعمل ، يا بني ، بسرعة ومهارة تفوقان جدتك .

جفف « النيني » يديه في سرواله . ثم سأل :

— هل تريد تقسيمه أرباعا ؟

أخذت بكل يد سطلا ، ثم قالت :

— دع هذا لي .

اتجهت نحو البيت الذي دخل فيه الرجال منذ قليل وصاحت من على الباب ، مميلة رأسها بعض الشيء :



لكن « النينى » كان يضحك كثيرا بالرغم من انه لم يكن يفعل مدا سفاهة أو عتها كما يفعل الرجال خلال الاحتفال بالأضحية ، أو عندما يسكرون فى حانة « المالبينو » . أو عند رؤية المطر بعد انتظاره بفارغ الصبر طوال أشهر . لم يكن يضحك أيضا مثل « ماتياس ثليمين » . المختلس . كل مرة يتجه فيها اليه ، ثانيا جلده المدبوغ كجلد فيل الف نية وكاشفا عن أسنانه المفترسة . لم يكن النينى يتسعر بأدنى ميل تجاه المختلس . فالصبي كان يكره الموت فى كل صورته ، وخاصة الموت الغادر وغير المسبب ، على خلاف المختلس الذى كان يفخر بأنه فارس لا يشق له غبار فى هذا المجال . حقيقة أن الظروف هى التى دفعت بالمختلس للوصول الى تلك الحال . قبل الحرب الأهلية اجتهد فى اخفاء غرائزه العدوانية التى حاولت الطفو على السطح فى بعض المواقف . لكن الحرب جذعت كثيرا من الميول وجففت الكثير من الأحاسيس وحددت العديد من المصائر ، ومن بينها مصير « ماتياس ثليمين » .

قبل الحرب ، كان « ماتياس ثليمين » يذهب الى مزادات القرى المجاورة ويكسب دون بذل الكثير من الجهد أربعة أو خمسة آلاف ريال ( ١ ) . كان يستطيع أن يضع فى رأسه حتى رقم خمسة آلاف ريال وأن يجمع وي طرح منها أتعاب الغير لكى يعرف بالضبط المبلغ الذى سيربحه . وبقدوم

---

(١) الريال . عملة اسنادية تديمة انتهى العمل بها وبعمل الآن بالبيبرية . والبيبرية تسمى أربعة ريالات - ( المترجم ) .

الحرب بدا الناس يتعاملون بالبيزيتة وتصل الارقام فى المزايدات الى ثلاثين ألفا وهو شىء لم يتعود عليه ، وما زاد الطين بلة أنه كان لزاما عليه ضرب هذه الأرقام الكبيرة فى أربعة كى يحولها الى ريات ، الوحدة النقدية التى يعرفها . ومنذ ذلك الحين أخذ ينكمش ويخاف الى أن حدثته نفسه ذات يوم : « ماتياس ، ثمن الحجل مائة ريال صافية والثعلب أربعمئة والزبذب فوق هذا بكثير » . كما أحس فى نفسه القدرة على حساب سعر الخرطوشة عند تصنيع البارود فى البيت ، عن طريق خلط السكر بالكلورات وتعبئتها برؤوس المسامير .

ومنذ ذلك الحين أصبحت نظرته مسنونة وجلده كالمذبوغ ، وما ورد ذكره على لسان أحد فى القرية الا ورد المستمع قائلا : « آه ، هذا » . لكن « دونيا ريسو » كانت أكثر حسما عندما وصفته بمتشرد وشرير وضائع مثل سكان المغارات ورجال اقليم « اكستريما دورا » .

اعتاد « ماتياس ثليمين » السهر بالليل والنوم طوال النهار . كان الصباح يطلع عليه عادة وهو فى القفار أو الجبل بعد أن يكون قد انتهى من نصب عدة فخاخ للأرانب البرية عند عودتها من الحقول ، وفخا للثعلب وكمية من الألواح الحجرية فى طريق الحجلان . كما كان يستفيد أحيانا من عربة « لاسيميونا » الكارو أو عربة « دون أنتيرو » ، الفورديش ، للاقتراب من أسراب الحبارى أو لصيد زوج من الحمام البرية . لم يكن المختلس يحترم لوائح أو قانونا فقد كان يخرج الى الحقول فى الربيع والصيف وبنديقته على كتفه وكأنه لا يوجد حظر ، وإذا حدث وقابله مصادقة « فروتس » ، المحلف ، يبادر بقوله : « أنا ذاهب لصيد الوحوش الكواسر » . ويقتصر رد « فروتس » على : « معلوم » ، ويفهم له بعينه . يعتقد « فروتس » ، المحلف ، أن الخلاء غير صحى لأن الشمس تأكل صحة الرجال كما تأكل ألوان



ملابس الفتيات ، ولهدا السبب ، فقد كان يقضى أوقات فراغه فى حانة « المالبينو » يلعب الدومينو .

كثيرا ما كان دهاء المختلس لا يسعه ، وعندئذ ، يلجأ للصبى :

— « نينى » ، أيها الصعلوك ، دلنى على مكان الزبزب وسأعطيك خمس بيزيتات ان أصبت .

أو :

— « نينى » ، أيها الصعلوك ، لم تقع عينى منذ أسبوع على الثعلب . هل رأيته ؟

فيهز « النينى » كتفيه دون أن ينبس ببنت شفة . وعندئذ يهزه المختلس بعنف قائلا :

— يا لك من شيطان صغير ! ألم يعلمك أحد كيف تضحك ؟

لكن النينى كان يعرف الضحك بالرغم من أنه تعود عندما يكون بمفرده ومدفوعا بسبب . عند حلول موسم تلاقح الحيوانات ، كان الصبى يصعد ليلا الى الجبل ، ومع الفجر ، عندما كانت تمشط نسمات الصباح الأولى عيدان القمح الخضراء ، كان « النينى » يقلد الصوت الخشن للأرانب البرية فتأتى الحيوانات من الحقول ملبية النداء ، بينما يكون المختلس ، على الجانب الآخر من المرتفع ، يسب ويلعن لانتظاره العقيم . عندئذ كان الصبى يضحك بدهاء ثم يعاود الضحك بكل كيانه عندما يصطنع اللقاء ، عند عودته ، بالمختلس الذى كان يسأله عكر المزاج :

— من أين أنت قادم ، أيها الصعلوك ؟

— كنت أجمع بعض النباتات . هل اصطدت شيئا ؟

— لا شيء . أرنبه برية كانت تنادى من الجانب الآخر

فهرع على ناداتها كل من كان بالحقول • تم يلتفت اليه  
فجأة ، متشككا :

— ألا تعرف تقليد صوت الأرناب البرية ، يا « نينى » ؟

— لا • لماذا ؟

— أبدا •

وفى مواقف أخرى ، كان المختلس يخرج ومعه « لاميتا » ،  
الكلبة ، فيختبئ « النينى » ، وعندما تفضل الكلبة ، لأهنة  
وراء الأرناب البرى ، يخرج من مكانه ويخوفها بعصا  
والكلبة ، التى كانت جبانة مثل بقية كلاب الصيد ، تترك  
غريستها وتعود ادراجها • عندئذ ، كان « النينى » يضحك  
أيضا بينه وبين نفسه •

على أية حال ، كان « النينى » يعرف كيف يضحك دون  
الحاجة الى سخرية المختلس • خلال ليالى الربيع المقمرة ،  
كان يروق للصبى الذهاب الى الحقول والاختباء بين نباتات  
الأسل الموجود على الشاطئ ، لرؤية الثعلب وشئ يهبط من  
المرج للاستحمام فى النهر ، منتهزا فرصة تمام القمر الذى  
ينمر المنطقة بضوء فوسفورى لبنى • كان الثعلب يتصرف  
بتلقائية دون أن يشعر بوجوده • كان يرعى بقناعة حشائش  
الشاطئ القليلة ، وبين الفينة والفينة ، يرفع رأسه الجميل  
وينصت منتبها لبعض الوقت • كثيرا ما كان ضوء القمر  
يسقط على عينيه اللوزيتين فيصدر منهما بريق أخضر فاتح ،  
وفى تلك الأحوال ، كان يبدو الحيوان وكأنه كائن لا ينتسب  
لهذا العالم •

ذات مرة ، خرج « النينى » من مكانه وصاح بينما كان  
الثعلب يهرش ، وهو مقمى فى المرج ، جسده بقدمه مطمئنا ،  
فقتز الحيوان قفزة هائلة مبعثرا بذيله بسوقه السكرية  
الرائحة • جلجلت ضحكات الصبى بينما كان يجرى وراءه  
بين نباتات الأسل وفى الأراضى المزروعة •

فى لىال اخرى كان « النينى » يختبىء وراء شجرة بلوط ،  
فى مكان مكشوف بالجبل ، ويلأظ الأرانب ، التى يغمرها  
ضوء القمر ، وهى تركض وتلعب بين الأعشاب رافعة اذيلها  
البيضاء . من حين لآخر كانت تظهر بنات عرس وتختفى فى  
سرعة البرق . فى موسم التزاوج ، كانت ذكور الارانب  
البرية تتقاتل بشراسة أمام عينيه بينما كانت الانثى تقمى  
بهدهوء فى مكان مكشوف منتظرة المنتصر . وبعد أن تنتهى  
المعركة ويتجه المنتصر نحو الأنثى المنتظرة يصدر « النينى »  
صوتا مميزا فيلتفت الحيوان ، ويداه مرتفعتان ، فى انتظار  
غريم آخر .

فى بعض انليالى كان يصل عدد المجتمعين الى نصف  
دسته من الذكور ، وفى تلك الأحوال كانت المعركة تأخذ  
طابعا ملحيميا . ذات مرة ، رأى « النينى » ، تحت ضوء القمر  
الفضى ، ذكرا ينتزع آذن آخر بقضمة شرسة فصدرت عن  
الحيوان الجريح أنات حادة هزت أركان الصمت فى الجبل .  
فى « سان اخنيو » اصطاد « ماتياس ثليمين » ثعلبة  
لا مثيل لها . فى هذا التاريخ تكون الأضحيات قد انتهت  
ومضت أعياد الفصح ، لكن الجو يظل قاسيا وفى الصباح  
تبدو الأرض بيضاء وكأن الثلوج تغمرها . علاوة على  
تجريف السبخ من تحت المواشى وإزالة الحشائش الضارة من  
بين المزروعات ، فلا يوجد لأحد ما يفعله فى الحقول باستثناء  
المختلس . وبعد أن هبط هذا من القفار ، صبيحة ذلك  
اليوم ، غير طريقه المعتاد ليمر بالقرب من المغارة بهدف  
اطلاع الصبى على فريسته :

— « نينى » ! — صاح — « نينى » ! أيها الصعلوك ،  
أرأيت ما أخضرت !

كانت ثعلبة جميلة ، جلدها ضارب الى الحمرة . وعلى  
لوحتها الأيمن شامة غير مألوفة .

ضفط المختلس على تدى من ائدائها فخرج منه سائل  
أبيض لزج . رفع الحيوان بعد ذلك لكى يتأمله الصبى :  
- أنثى وتفساء - قال - . ثروة كبيرة ! اذا لم يفتش  
« الخوستيتو » جيبه كما ينبغى ، فساذهب بها الى المدينة ،  
سقى \*

تركت الهوام الجسد الميت وبحثت عن الدفء فى يد  
المختلس . تعقب « النينى » الرجل بعينيه ، رآه يعبر قنطرة  
الألواح الخشبية ، والثعلبة فى يده ، ثم تابعه وهو يختفى  
وراء مخزن التبغ العمومى دون أن يكف عن الصياح .

عندما حل المساء ، وبمجرد أن أحس بنوم العم « راتيرو »  
نهض من فراشه وسلك طريق الجبل . كانت الكلبة تتب الى  
جواره والصقيع يلمع حواليه تحت فلقة القمر الهزيلة . أخذ  
الصبى مكانا خلف شجرة بلوط أمام فتحة الجحر وتكومت  
الكلبة مطيعة تحت ساقيه . كان الصقيع يعرض ، بأسنان  
حادّة صغيرة ، أطراف أصابعه وأذنيه ، بينما كانت طيور  
الرعاة ترفرف بأجنحتها فوقه ، قريبة جدا من رأسه . بعد  
قليل أحس بعواء ، كانت أنه حادة مثل أنه أرنب برى ،  
ولكنها طويلة محزنة . طوى الصبى طرف لسانه وصفر  
عدة مرات ، بمهارة فائقة . بعد ثلاث صفرات برز من  
فوهة الجحر ، تحت ضوء القمر السقيم ، ثعلب صغير  
لا يتعدى الأسبوعين من العمر ، يمشى بحركات خرقاء وكأن  
ذيله الطويل يعوق تحركاته .

وبمرور بضعة أيام تعود الثعلب الصغير الحياة بينهم .  
فى الليالى الأولى كان يبكى فتزجر له الكلبة فى مزيج من  
خصومة أبدية وحماسة أسرية ، لكنهما سرعان ما أصبحا  
صديقين حميمين . كانا ينامان معا فى حجر الصبى ، فوق  
القش ، وفى الصباح يتشاجران بود فى رقعة الأرض الصغيرة  
المليئة بنبات السعتر والمؤدية الى باب المغارة .

وبسرعة طار الخبر لكل انحاء القرية وتوافد الناس  
لرؤية الثعلب، الذى كان يسترد غريزته المفترسة فى محضر  
الغرباء وينزوى فى ركن مظلم وينظر اليهم مكشرا عن  
أنياه • كان « ماتياس ثليمين » يقول :

— يا له من صنيع ، أيها الصعلوك ! لن يفلت من يدي •

بعد أسبوعين فقط كان الثعلب يأكل من يد « النيني » ،  
ويستقبله عند عودته من صيد الفئران لاعقا ساقيه المتسختين  
ومحركاً ذيله بفرحة غامرة • وفى المساء ، بينما كان العم  
« راتيرو » يطبخ البطاطس مع حسك البكالاو ، كان الصبى  
والكلبة والثعلب يلهون فى ضوء الموقد ، وفى مثل هذه  
الحالات كان « النيني » يضعك بصوت مسموع •

كل صباح ، وبالرغم من أن الثعلب كان يأكل كل ما يقدم  
له الا أن « النيني » كان يحضر له عققا ليكرم وفادته وعند  
رؤيته وهو ينتزع ريش الطائر بفمه الحاد الرطب ، كان  
الصبى يبتسم راضيا •

قالت « لا سيميونا » للوصية الحادية عشرة ، معلقة على  
ما يجرى فى المغارة :

— أول مرة فى حياتى أرى ثعلبا يتحول الى العيش  
كبنى البشر •

فتقطب « دونيا ريسو » حاجبيها :

— تريدن أن تقولى انه لأول مرة تشاهدين رجلا وصبيا  
يتحولان الى العيش كالثعالب •

كان « النيني » يخاف أن يلبي الثعلب نداء الطبيعة  
عندما يكبر ويتركه ، وان كان الى الآن لا يكاد يفارق المغارة ،  
وفى كل مرة يخرج فيها الصبى ، كان يعطيه بعض الارشادات  
والثعلب ينظر اليه بعينيه اللوزيتين ، وكأنه يفهمه •

ذات صباح ، سمع الصبى ، بينما كان يصطاد فى النهر ،  
طلقة عيار نارى • جرى ، كالمجنون ، ناحية المغارة وقبل أن  
يصل لمح المختلس يهبط المنحدر بخطوات واسعة ، يقهقه  
ويده خلف ظهره :

— خا ، خا ، خا ، « نينى » ، أيها الصعلوك ، أتدرى  
ما أحضرت اليوم لك ؟ بالطبع لا !

كان الصبى ينظر فزعاً الى يده التى أخذت فى الظهور  
شيئاً فشيئاً ، وأخيراً ، أطلقه « ماتياس ثليمين » على جثة  
الثعلب التى لا تزال ساخنة •

لم تطرف للصبى عين ، لكن بعد أن جرى المختلس هابطاً  
المنحدر ، انحنى على الحصباء وشرع فى قذفه مهتاجاً • كان  
المختلس يقفز مترنحاً ، كحيوان جريح ، دون أن يكف عن  
الضحك ، ويلوح فى الهواء بجثة الثعلب ، وكأنها نيشان •  
وقبل أن يختفى ، أخيراً ، وراء مخزن التبن العمومى ، رفع  
له الجثة مرة أخرى على ماسورتى البندقية •

كلما أوغل الشتاء فى التقدم يتناقص محتوى مخزن  
التبن العمومى . كان رجال القرية ونساقوها يأتون بحميرهم  
ويحملون التبن والقش الى بيوتهم ثم يخلطونه بالحبسوب  
ويعلقون به الماشية ، أو يضعونه تحت البهائم فى الحظائر  
ليتحول الى سماد بعد ذلك ، أو يحرقونه فى المطابخ للاحتماء  
من البرد .

وهكذا فعندما ينتهى شهر ديسمبر ، كان « النينى »  
يرى من المغارة ، التى تشرف على المخزن من عل ، الساحة  
المهجورة التى كانت مخصصة فى الماضى لانعال الخيول  
بالحدوات الحديدية .

فى « سان أبيريكو » ، وقبل أن ينقضى يناير انفلت  
عيار العاصفة الثلجية . رآها « النينى » . قادمة من بين  
قمتى « الشاتو » و « كنتامانياس » ، سوداء مهيبة ، تجرجر  
أذيالها فوق التلال . خلال ساعات قليلة غطت السحابة  
المنطقة ورشقتها بالثلج .

أصبحت القمم العالية ، التى تناطح السماء الرصاصية ،  
مثل كتبان من السكر ، شديدة البياض واللمعان .

فى المساء ، اشتدت الريح فبدا الثلج ، فى ضوء أربعة  
المصابيح المحتضرة للقرية ، وكأنه قادم من جهة الأرض ومن  
ناحية السماء .

كان « النينى » يلاحظ المشهد المروع فى صمت . خلف  
الصبى ، كان العم « راتيرو » قابعا فى المغارة ، مسترخيا

أمام النار وعند تغذيتها بحطب جديد أو جمع جذواتها كان يحرك شفتيه ويبتسم . نادرا ما كان يخرج ليطوف بالقمم التي الهبتها العاصفة الثلجية بسياطها ، وفي تلك الاحوال ، كان يربط قبعته المتسخة بحبل ، مثلما كان يفعل اثناء هبوب رياح الشمال الشديدة ، ويمرر طرفه تحت ذقنه كما كان يفعل الجد « رومان » قديما .

لدى ينمذن العم « راتيرو » من اشعال النار داخل المغارة أحدث فتحة في سقفها الترايبى السميكة بماسورة صدئة أحضرها له « روسالينو » ، الوكيل . حذره « الروسالينو » وقتها قائلا : « انتبه ، يا راتيرو ، فقد تسقط المغارة وتدفن فيها » . لكنه تصرف بحنكة عند خرق السقف الذى لم يحدث به الا صدع صغير اجتهد « الراتيرو » فى معالجته بدعامة بدائية . والآن ، يخرج من الماسورة الصدئة دخان يتلوى بين العاصفة الثلجية ، والعم « راتيرو » قابعا بالداخل منكمشا من البرودة ، يتأمل ألسنة اللهب العدوانية المتقلبة . كانت الكلبة تجثم بالقرب من النار وترسل ، بين الفينة والفينة ، بشخير منطفئ . عندما يتقدم الليل ، يطفىء العم « راتيرو » النار تاركا جذوتها وعلى حرارتها ينام الثلاثة فوق القش ، الصبى فى حضن الرجل ، والكلبة فى حضن الصبى ، ووقت أن كان الثعلب موجودا كان ينام فى حضن الكلبة .

لم يكن « الخوسيه لويس » ، المحضر ، يتورع عن الانذار دون مقدمات بكارثة : « راتيرو ، يمكن أن يشتعل القش وأنتم نائمون وساعتها ستسلقون كالأرانب » . كان العم راتيرو يسمع بينما تغلو شفتيه ابتسامة مأكرة ، متشككة ، لأنه يعلم أن النار صديقه ولا يمكن أن تفدر به ، وأن « الخوسيه لويس » يتحدث بلسان العمدة الذى أخذ على نفسه عهدا أمام رئيسه بالقضاء على وصمة المغارات .

.. فى مثل تلك الظروف ، كان « التينى » يحترم صمت « الراتيرو » . فقد كان يعلم أن أية محاولة للجديث معه لن



تعود بطائل ، لا لأنه مشاحس ، بل لمجرد أن نطق أكثر من أربع كلمات أو الربط بين فكرتين فى جملة واحدة كان كافيا لانهاك عقله . وقد اختار الصبى اسم « فا » للكلبة بالرغم من تفضيله لأسماء أخرى أكثر جاذبية حتى يوفر على « الراتيرو » الجهد . فقط عندما كان « الراتيرو » يفك وثاق جملة يتيمة بقصد افاقة لسانه من الخدر كان الصبى يجاربه :

— لقد أصبحت الكلبة عجوزا .

— لهذا تعرف .

— لا تتصرف كما ينبغي أثناء الصيد .

— لا تشغل بالك . مازالت قادرة على الإمساك بالفئران .

وينخيم الصمت مرة أخرى ليمتزج الضوت الخافت للعاصمة الثلجية فوق القمة وعواء الريح بقرقعات النار . فى صبيحة اليوم الثالث بعد « سان أبيريكو » ، أطل النينى من المغارة فلمح هيكلًا بشريًا مقوسًا يعبر البيدر ، فى طريقه الى القنطرة :

— « الأنتوليانو » — قال .

تسلى برؤيته وهو يقاوم الريح التى كانت تصوب حبيبات الثلج الى وجهة وتجبره على لى عنقه فى الاتجاه المضاد . انتصب عندما دخل المغارة ، ملأ رئتيه بالهواء ونفض الثلج بيديه الكبيرتين . قال « الراتيرو » ، دون أن يترك مكانه بجانب النار :

— الى أين أنت ذاهب مع كل هذا الثلج ؟

— انى قادم — أجاب « الأنتوليانو » ، ثم استوى جالسًا بجوار الكلبة ، التى نهضت وبحثت عن ركن مظلم ، حتى لا يضايقها أحد .

— ما وراءك ؟

- مد « الأنتوليانو » يده امام النار تم قال :
- « الخوستيتو » ، العمدة ، سيطرّدك من المغارة .
- مرة ثانية ؟
- بمجرد أن يصفو الجو سيأتى اليك ، لقد حذرتك -
- هز « الراتيرو » كتفيه :
- المغارة ملكى .
- كان « الخوستيتو » ، العمدة ، يزور بصفة مستمرة « فيتو سولورثانو » ، المحافظ ، فى المدينة ، ويناديه بـ « فیتو »
- يا ريس . فیرد علیه « فیتو » :
- خوستو، يوم أن تنتهى من موضوع المغارات أخبرنى -
- ضع فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » بل المحافظ نفسه .
- تعرف « خوستو فادريكى » على « فيتو سولورثانو » أثناء الحرب الأهلية عندما كانا يحاربان جنبا الى جنب وأصبعا صديقين . لكن ، الآن ، ما من مرة يواجه فيها « فيتو » « خوستو » ويطلب منه ضرورة الاسراع فى حل موضوع المغارات الشائك ، الا وتضيق جبهة الأخير وتتحول الى اللون البنفسجى وتخفق ، خفقات ضعيفة ، مثل قلب صغير :
- دع الأمر لى، يا ريس .
- وبعد العودة الى القرية يسأل العمدة « خوسيه لويس » ، المحضر ، باهتمام :
- أتعرف ما يعنيه الرئيس بقوله : ضع فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » ولا رئيسك ، بل المحافظ نفسه ؟
- فیرد « الخوسيه لويس » بثبات :
- انه سيكافئك ، هذا واضح للعيان .

ولكن امراته ، لأكولومبا ، كانت تضايقه في البيت :  
- خوستو - تقول له - ، ألن نخرج طوال حياتنا من  
هذا الحجر اللعين ؟

وعندئذ كانت جبهة « الخوستيتو » تحمر وتتسع بينما  
يرد عليها :

- وما الذى يمكن عمله ؟

فتضع « لأكولومبا » يدها على خصرتها وتصيح :  
- تخرج هذا البائس من مغارته ! السلطة فى يدك .  
لكن « خوستو » كان يمقت العنف بطبيعته . فقد كان  
يعرف أنه يرتد على صاحبه طال الزمان أم قصر .  
ومع ذلك ، فقد أتاح له « الخوسيه لويس » الفرصة فى  
« سان ليسمس » عندما قال له :

- المغارة على وشك السقوط ، وبالتالى فان طردك  
للراتيرو سيكون من أجل مصلحته . هدم ثلث المغارات  
الأخرى كان مسألة هينة . فقد ماتت « لا الومينادا » و « رومان »  
فى يرم واحد ، وغادر « الأيونديو » القرية دون ان يترك  
عنوانا . « لاسجراريو » ، الفجرية و « المامس » ، الأخرس ،  
كانا سعيدى الحظ بعد تغيير مغارتيهما ببيتين فى البيدر  
القديم . بكل منهما ثلاث غرف ومشمسان نظير ايجار شهرى  
قدره مائة بيزيتة . لكن الأربعمائة ريال مازال يعتبرها الدم  
« راتيرو » ثروة طائلة .

انتهت العاصفة الثلجية فى « سان سيبيرو » ونزل  
الضباب . ضباب ساكن ، عتيد ولزج ، يغمر المنطقة بأصداء  
غريبة ، وفى الهزيع الأخير من الليل ، يزيد من عتمة الصمت  
المعذب للأرض المقفرة . لكنه (١) كان يرى ، أحيانا أخرى ،

---

(١) يقصد الضباب - ( المترجم ) .

وهو يمضى بين القمم كشبح ، شفافا وثخينا على التوالي ،  
ليجعل من دوران الأرض واقعا ملموسا . تحت الضباب ،  
كانت العقاقق تطير متباعدة وتنطق بصوت غير منسجم ، خليط  
من الفيظ والدهشة . وتبدو القرية ، عند النظر إليها من  
المفارة ، مثل ديكور باهت سرعان ما يتلاشى تحت ضباب  
الفسق .

فى « سان أندريس » صفا الجو فظهرت الحقول فجأة  
وعليها غلال مترعة ، القمح بلون أخضر خفيف ، نصق  
شفاف ، بينما كان الشعر يشكل بساطا كثيفا من الخضرة  
الداكنة . تحت شمس شتوية شاحبة كانت الطيور تتمطى  
مندهشة وتنظر حوالىها غير مصدقة ، قبل أن تطير نحو  
السماء . ومعها كان يتمطى أيضا كل من « الخوستيتو » ،  
العمدة ، « الخوسيه لويس » ، المحضر ، و « الفروتس » ،  
المحلف ، والذي كان يتولى مهمة مبلغ الأوامر فى بعض  
الأحيان . عندما رآهم « النينى » يعبرون قنطرة الألواح  
الخشبية ، مهيبي الطلعة ويمشون بحذر داخل حلهم المخصصة  
للمناسبات ، تذكر المرة التى عبرت فيها مجموعة سوداوية ،  
يرأسها رجل فى ملابس الحداد ، القنطرة لحمل والدته إلى  
مستشفى الأمراض العقلية بالمدينة . كان الرجل ذو الرداء  
الحدادى ينطق بتفخيم كبير عبارة « معهد الصحة النفسى »  
بدلا من مستشفى الأمراض العقلية ، لكن ، لا بهذه أو  
بتلك (٢) استردت أمه ، « لا مارثيلا » عقلها ولا حريتها -

رآهم « النينى » يصعدون المنحدر لاهثين أثناء مداعبته  
بحركة آلية لشعر الكلبة المطوية تحت قدميه . كانت قيعة  
« فروتس » السوداء تلمع وكأنه يتصبب عرقا . وسرعان  
ما وصلوا جميعهم إلى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات

---

(٢) يقصد المؤلف ( متهمكا ) أن تلاعب رئيس المجموعة بالألفاظ ( استخدام عبارة  
« معهد الصحة النفسى » بدلا من « مستشفى الأمراض العقلية » ) لم يقدم ولم يؤخر  
بالنسبة لحالة الأم التى لم تسترد بعدها لا عقلها ولا حريتها - ( المترجم ) .

السعتر والمؤدية لباب المغارة ، وقف «الخوستيتو» و «الخوسيه لويس» فى ثبات ، دون أن يرفعا عيونهما من على الأرض ، أمر «الخوستيتو» «الفروتس» ، بصوت أجش :

— اقرأ المنشور ، هيا .

بسط «الفروتس» ورقة وبدأ يقرأ متعترا قرار الجمعية باخلاء مغارة العم «راتيرو» لأسباب أمنية . عندما انتهى «الفروتس» نظر الى العمدة ، و «الخوستيتو» دون أن يعدل من وقفته ، قال :

— لقد سمعت ، يا راتيرو ، انه القانون .

بصق العم «راتيرو» ثم فرك يدا بأخرى . نظر اليهم ، واحدا بعد آخر ، غير عابىء ، كما لو كان الأمر يتعلق بشيء هزلى .

— لن أرحل من هنا .

— ألن ترحل ؟

— نعم . فالمغارة مغارتى .

أضاءت جبهة «الخوستيتو» ، العمدة ، فجأة :

— لقد أعلنت على الملأ نبأ الاخلاء — صاح — . مغارتك

على وشك الانهيار وأنا العمدة وهذا من اختصاصاتى .

— انهيار ؟ — استفهم «الراتيرو» مستنكرا .

أشار الخوستيتو الى الدعامة والصدع .

— انها المدخنة — أضاف «الراتيرو» .

— أعرف أنها المدخنة . لكن سيسقط فوق رأسك ذات

يوم طن من التراب ويدفئك أنت والصبى .

ابتسم العم «راتيرو» فى بلاهة :

— بل أكثر .

— أكثر ؟

— تراب أكثر فوقنا ، هذا ما أعنى •  
عندئذ تدخل « الخوسيه لويس » ، المحضر :  
— عم « راتيرو » ! عليك اخلاء المغارة طوعا أو كرها •  
نظر اليه العم « راتيرو » بازدراء :  
— انت ؟ لا يمكنك أن تجبرني على هذا حتى ولو  
بأصابعك الخمس !

كان ينتص « الخوسيه لويس » الاصبع السبابة ليده  
اليمنى • لقد اجنز الحمار ذات مرة اصبعه بعضه واحدة ،  
لكن « الخوسيه لويس » لم يستسلم ، بل رد عليه بعضه  
انتزع بها شفة الحيوان العليا •

أحيانا ، عندما كان الموضوع يثار فى الحانة ، كان  
« الخوسيه لويس » يؤكد أن شفة الحمار ، وهى غير ناضجة ،  
مثل طعم عش الغراب باردا وبلا ملح • على أية حال ، فقد  
ظل حمار « الخوسيه لويس » طوال حياته وأسنانه مكشوفة  
للهواء كما لو كان يبتسم على الدوام • فقد « الخوستيتو »  
صبره :

— اسمع ، يا « راتيرو » — قال — أنا العمدة ولى  
اختصاصاتى • لقد أخذت حيطتى وأعلنت على الملأ نيا  
الاخلاء • وقد أعذر من أنذر ، ولا أكون العمدة اذا لم اهدم  
المغارة خلال أسبوعين • أعلمك بهذا أمام اثنين من الشهود •  
فى « سان سابينو » ، عندما عادت اللجنة الى المغارة ،  
كانت تضرب القسم المائية ، ريح متقلعة وتحدث توججات  
فى اعواد القمح والشعير مثل موجات البحر • كان  
« الفروتس » ، المحلف ، يمشى فى المقدمة ويعمل بيده  
أصابع الديناميت بينما الفتيل ملفوف حول خصرته •  
عندما أخذوا فى صعود المنحدر أطلق عليهم « النينى » الكلبة  
فاصطدمت بالفروتس الذى تدحرج حتى وصل الى الطريق  
بينما كان يسب ويلعن بصوت منخفض • كان العم « راتيرو »

قد استعد وتحدث فى هذا الشأن مع « الأنتوليانو » ، وهكذا فبمجرد ان هددته « الخوستيتو » بترك المغارة ، اخذ فى تكرار هذه العبارة وكأنه اسطوانة مشروخة : « أعلمنى كتابة ، أعلمنى كتابة » .

نظر العمدة الى « الخوسيه لويس » الذى كان ملما ببعض القوانين ، فأوماً اليه برأسه وبعدها انسحبوا . فى اليوم التالى ، أرسل « الخوستيتو » للعلم « راتىرو » بلاغا بمهلة أخرى قدرها خمسة عشر يوما . فى « سان سيرخيو » انتهت المهلة وهبطت اللجنة على المغارة قبل الظهر ، عندما نادوا من على الباب ، أجاب « النينى » من الداخل بأن البيت بيته واذا اقتحموه بالقوة ، فسيبلغ عنهم القاضى . نظر « الخوستيتو » الى « الخوسيه لويس » الذى هز رأسه وقال مهمهما : « تعد على حرمة المنزل ، حقا انها لجناية » .

فى اليوم التالى ، أوشك « الخوستيتو » على البكاء أمام « فيتو سولورثانو » ، الرئيس ، كانت البقعة البنفسجية التى فى جبهته تنبض وكأنها قلب :

— لا أستطيع مع هذا الرجل ، يا ريس . طالما ظل حيا ستبقى مغارات بالمحافظة .

حاول « فيتو سولورثانو » ، بصلعته الوردية المبتسرة ويديه المكتنزتين اللتين تعبثان بمحتوى المكتب الحفاظ على هدوئه . فكر عدة ثوان قبل أن يتكلم ، واضعا اصبعين من يده على خاتم الشمع الأحمر . تكلم أخيرا فى تواضع مشوب بعظمة :

— لو بقى لى شىء واحد أعمله غدا وأنا فى منصبى هذا ، فسيكون الانتهاء من مشكلة المغارات . أنت هدمت ثلاثا فى منطقتك ، خوستو ، أعرف هذا ، ولكن الأمر لا يتعلق بهذا الآن . لقد بقيت مغارة وطالما لا أستطيع أن أقول للوزير : « سيدى الوزير ، لم تبق ولا مغارة فى محافظتى » فكأننى

لم أفعل شيئاً • أنت تفهمنى ، حقاً ؟ أوماً « الخوستيتو »  
برأسه • كان يبدو كتلميذ فى مدرسة يعانى من توبيخ  
أستاذه • أضاف « فيتو سولورثانو » :

– رجل يعيش نى مغارة ولا يجد مائة بيزيتة ليدفعها  
فى بيت ليس الا متشردا • أليس كذلك؟ أحضره لى، وسأحبسه  
فى ملجأ الفقراء دون تحقيق •

مد « الخوستيتو » احدى يديه بنجل :

– مهلا ، يا ريس • هذا الرجل لا يتسول • له عمله •  
– ماذا يعمل ؟

– يصيد الفئران •

– هل هذا عمل ؟ لأجل ماذا يريد الفئران ؟

– انه يبيعها •

– ومن يشتري جردانا فى قريرتك ؟

– الناس جميعا • يأكلونها •

– تأكلون الفئران فى قريرتكم ؟

– انها لذيذة الطعم • اذا قليت وتبلت بالخل تكون  
أشهى من السمان •

انفجر « فيتو سولورثانو » فجأة :

– لا يمكن أن أتهاون فى هذا ! انها لجريمة فى حق  
الصحة العامة !

حاول « الخوستيتو » تهدئته :

– كل المنطقة تأكلها ، يا ريس • ألا نأكل الأرناب ؟

– مرت لحظة صمت • أضاف بعد ذلك : الشئران نفس  
الشئ ، انها مسألة تعود •

ضرب « فيتو سولورثانو » المكتب بقبضته فتناثرت  
محتوياته :



— لماذا أريد عمدا ورؤساء محليين اذا كانوا لا يحلون  
المشاكل بل يخلقونها لي باستمرار ؟ ابحت أنت عن الصيغة  
الملائمة ، خوستو ! ضع هذا الرجل في أى مكان ، افعل كل  
ما فى وسعك ! ولكن فكر أنت ، أنت ، بعقلك القاصر ،  
وليس عن طريقى أنا !

رجع « الخوستيتو » القهقري تجاه الباب :

— حسنا ، ياريس • دع الأمر لى •

غير « فيتو سولورثانو » فجأة من نفمة صوته واطاف  
عندما هم « الخوستيتو » بفتح باب المكتب :

— وعندما تنتهى من هذا الموضوع ، أخبرنى • ضع  
فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو »  
ولا رئيسك ، بل المحافظ نفسه •

فى « سان بالدوميرو » اكتشف « النينى » فوق حلمة « توريثيوريجو » السرب الأول لطيور الشتاء وهى تتجه مسرعة صوب الجنوب . تعاقبت الأسراب دون انقطاع خلال ثلاثة أيام بلياليها . كانت تطير عالية ، راسمة حرف V على السماء الزرقاء الهادئة ، وتصيح هائجة فى شىء من الفرع .

قديمًا ، كانت حلمة « توريثيوريجو » تسمى قمة « المورو » ، لكن « لامارثيلا » ، أم « النينى » ، أطلقت عليها الاسم الأول قبل عدة أشهر من دخولها مستشفى الامراض العقلية . بعد ولادة « النينى » ، لم تتحسن صحة « لامارثيلا » وفى كل مرة يضبطها « الراتيرو » وهى تنظر بعته الى الروايبى كان يسألها : « الى ماذا تنظرين ، يا مارثيلا ؟ » فلا تجيب . فقط كانت تتلعثم اذا هزها بعنف : « حلمة توريثيوريجو » ، وتشير الى قمة « المورو » المخروطية ، الكئيبة المتجهمة مثل فوهة بركان . « حلمة ؟ » - كان « الراتيرو » يسأل مستقصيا ، فتضيف هى : « كثيرون نحن على هذه الحلمة . لا تدر لبنا يكفى الجميع » .

بعدها بأيام ضبطها « الراتيرو » وهى تنشر رجل مقعد بلا مسند . « ماذا تفعلين ؟ » - سألها . فأجابت : « الكرسي يعرج » . رد : « يعرج ؟ » . فلم تجبه ، وعندما حل المسام قامت بنشر الأرجل الباقية للكرسي .

فى ذلك الوقت كان « النينى » قد أكمل ست سنوات ، وما من مرة يقابله فيها المختلس الا ويسأله : « اشرح لى ، أيها الصعلوك . كيف يمكن أن تكون « لامارثيلا » أمك

وعمتك في نفس الوقت ؟ » - ينفجر ضاحكاً وكأن به شحنة هواء تسربت فجأة .

في اليوم الذي قرر فيه العم « راتيرو » أحداث بقب في سقف المعارة بالماسورة التي أهداها له « الروسالينو » ، الوكيل ، طلب من « لامارتيلا » رملاً ليخلطه بالأسمنت ، فجاءت إليه بعد طول انتظار وهي ممسكة بالمدراة . « خذ » - قالت . « ماذا ؟ » - سأل « الراتيرو » . « الرمل ، الم تطلب رملاً ؟ » - قالت : « رمل ؟ » - قال : فأضافت : « أسرع ، لأنه ثقيل » . كان « النيني » ينظر إليها مندهشاً لكنه نطق أخيراً : « أماء ، كيف يمكن جمع الرمل بالمدراة ؟ » - بعد مضي أسبوع على هذه الواقعة ، في « سان أوليبا » منذ أربع سنوات ، حضر الى القرية رجل في ملابس سوداء وحملها لمستشفى الأمراض العقلية ، لكن قمة « المورو » لم تسترد اسمها وظلت الى الأبد حلمة « توريثيوريجو » .

والآن ، تحلق طيور الشتاء فوق الحلمة ، هبط « النيني » الى القرية ليخبر العجوز :

- لا أراها ولكنني أحس بأصواتها - قال العجوز - . هذا يعني سقوط الثلوج . قبل مضي أسبوع ستغمر المنطقة بأسرها .

يبدو العجوز ، في وضع النهار ، ونصف وجهه مغطى بقطعة القماش السوداء وكأنه مومياء جافة . قبل أن يضع قطعة القماش سأله الصبي ذات مساء عما به :

- شيء تافه ، دمل سرطاني - رد العجوز مبتسماً .

عندما تساور « النيني » الشكوك حول شيء ما ( الرجال أو الحيوانات أو السحب أو النباتات أو المناخ ) فانه يلجأ للعجوز . كانت لدى العم « روفو » بغض النظر عن خبرته . أو ربما بسببها ، رهافة حادة للاصطباغ بصبغة الظواهر

الضبيوية . فى بعض الأحيان ، كان يتحدث عن «رياح صباه»  
از عن « تراب البيدر عندما كان شابا » أو عن « شمس خريف  
العمر » . بمعنى أن مراحل العمر تلعب دورا أساسيا فى  
مدارث العم « رزو » ، الأثر الذى أحدثته فيها ، فى مراحل  
بعضها . أشياء مثل السحب ، الشمس ، الرياح أو تراب  
الدراس الذهبى . كان العجوز يمرق الكثير عن كل شيء ،  
بأمرهم من أن فتیان القرية وصبيانها لم يكونوا يقتربون منه  
الا بقصد الضحك من حركاته العصبية أو ليكشفوا قطعة  
القماش من على وجهه « ليروا جمجمته » والسخرية ، بعد  
ذلك ، من مرضه :

— دعهم ، انهم صبيان — اعتاد أن يقول العجوز للنينى  
متدرا بالصر ، فى مثل تلك الحالات .

لم تكن « لا سيميونا نفسها ، ابنته ، تكن له أدنى  
تقدير . منذ أن بدأ العم « روفو » يشيخ ، أخذت  
« لاسيميونا » على عاتقها مهام البيت والحقل . كانت تعنى  
بالشئ ، تزرع ، تقتلع الحشائش الضارة ، تحصد ، تدرس  
المحصول وتنقل القش .

ولهذا السبب أصبحت سريعة الغضب ، بخيلة وشكاكة .  
كانت « دونياريسو » تؤكد بأن جميع الناس يتحولون الى البخل  
وسوء الظن عند ادراكهم لمدى ما يكلفه كسب بيزيتة واحدة  
من دنانة . وبالرغم من هذا ، فما كانت تفعله « لاسيميونا »  
مع أبيها كان زائدا عن الحد . فى المرات القليلة التى كانت  
تتحدث فيها مع جيرانها لم تكن تتورع عن التصريح بأنه  
« كلما تقدم العمر بالمجوز زادت شرايته ، شيء لا يطاق » .  
فتنظر اليها السيدة « كلو » وتردد : « يا لقسوة قلبك !

لا يمكن مقارنة ما تفعلينه بالاهتمام الذي أوليه لزوجي  
« البيرخيلين » (١) .

كل اهتمامات السيدة «كلو» ، صاحبة دكان الخردوات ،  
تنصب الآن على « البيرخيلين » . ترعاه كإبن لها ، وتود ،  
لو استطاعت وضعه في قنص وتعليقه في سقف الدكان ،  
كما فعلت من قبل مع الصافي .

وعلى خلاف هذا ، لا تعامل « لا سيميونا » والدها كما  
ينبغي ، بل إن عدم ثقتها به تزداد مع الأيام والآن ، في كل  
مرة تغيب فيها عن البيت ، ( تعلم ) الخبز وتقيس الدجاج ،  
واحدة واحدة ، لتعرف ما إذا كان العجوز قد أكل كسرة خبز  
أو طعم بيضة أثناء غيابها . وعند عودتها تقول :

— يجب أن تكون هنا ثلاث بيضات ، لنرى أين وضعنها .  
وعندما تنقص بيضة كان السباب والصياح يتجاوزان  
آخر بيت في القرية ، وإذا كانت الريح مواتية تصعد  
الصيحات إلى الغارة فيتألم « النيني » ويحدث نفسه : «ها هي  
لا سيميونا تعنف العجوز » .

على أية حال ، لم يذن يستطاع أحد أن يقول عن  
« لا سيميونا » أكثر من أنها تكفل والدها عجوزا ، وتنولي  
شئون البيت والحقل ، ولا تضمن بما يتبقى لديها من طاعة  
لدفن أموات القرية . كانت تستخدم في هذا عربة كارو  
عتيقة ، يجرها حمار أكل منه الزمان حتى شبع ، لا تكف عن  
ضربه بلا هوادة كل مرة تحمل فيها ميتا إلى المقابر . وفي  
مؤخرة العربة كان تربط « الدوكي » ، الكلب ، بحبل قصير  
جدا يكاد يخنقه . والكلب يعوى ، مميل رأسه قليلا لكي  
يتفادى ضغط الحبل ، وإذا لفت نظرها أحد إلى هذا فانها  
ترد بحدة :

---

(١) بيرخيلين « تصغير بيرخيليو » والتصغير ، علاوة على دلالة الحسية المعروفة ،  
يستخدم كثيرا في الإسبانية للتعبير عن مشاعر الود والحب والعطف التي يكنها المتكلم  
تجاه الشيء المصغر ، واستخدام التصغير هنا يندرج تحت المعنى الثاني - ( المترجم ) .  
(٢) عيون القرية المقصود بها المصاييح - ( المترجم ) .

— هذا أفضل • فبهذه الطريقة لن يعدم أحط ميت كلبا  
يبكى عليه •

كانت « لا سيميونا » تسب وتلعن كالرجال وفى الأيام  
الأخيرة ، عندما تشير الى شراة والدها ، تسخر من مرضه  
بالسرطان وتقول : « العجوز يأكل لاثنين بدلا من واحد » •  
الى الآن ، يستطيع العجوز الانتقال من مكان لآخر ،  
ولكنه فى الساعات المشمسة يلزم المصطبة الموجودة خلف  
الدار حيث يضطجع فوقها مغمض العينين • كثيرا ما كان  
« النينى » يهبط للاستمتاع بصحبته وهو يفك ألغاز الطبيعة  
أو لسماع حكاياته القديمة • وفى الأيام الأخيرة يجد الصبى  
لذة فى تأمل قطعة القماش السوداء التى تغطى جانبا من  
أنف العم « روفو » ووجنته اليسرى ، وفى كل مرة يجلس  
فيها الى جانبه ، كان يشعر برغبة لا تقاوم فى رفع قطعة  
القماش • كانت تملكه نفس الرغبة التى تملك صبيان  
القرية ، مع مطلع الخريف ، عندما كانوا يلعبون بالدمى  
ويصيحون : « الساعة تدق الرابعة ، هيا نظير قطعة القماش  
الهاجعة » • ومع ذلك ، كان « النينى » يسيطر على رغبته ،  
فقد كان يوقر العجوز ويشكر تلقائيا نصائحه •

قال العجوز للصبى عندما أخبره برؤية الطيور تحوم  
حول حلمة « توريثيوريجو » ، ان الثلج على وشك السقوط ،  
ربما قبل مضى أسبوع ، وفى « سان بيكتوريانو » ، أى بعد  
خمسة أيام فقط ، أخذت قطع الثلج تتهاوى فتحوّلت المنطقة ،  
بعد بضع ساعات ، الى كفن لا نهائى • أدمى البياض عيون  
القرية (٢) وطوبها اللبن ووضعت تحت الثلوج الأسوار  
الشائكة التى تحيط بالحظائر المتهاكة • تبدو الحياة وكأنها  
هربت من العالم تاركة وراءها صموتا مخيفا وكثيفا كصمت  
المقابر ، يطوق المنطقة بأسرها • هجعت الوحوش داخل

---

(٢) عيون القرية المقصود بها المصاييح - ( المترجم ) •

ججورها والعصافير بعد طيران حائر بين الثلوج عادت الى الأرض تلتمس الدفء . وهناك ، داخل الفجوات ، ظلت القبرات ساكنة ، تطل برؤوسها ذات العيون المستديرة المندهشة ، لترقب ما حولها جائئة .

أحيانا كان « النينى » يتسلى بالطواف حول تخوم القرية وعندما تراه العقاقق والقبرات وطيور الزرزور تتناقل فى الارتفاع عن الأرض ، لكنها بعد طيران راسى قصير ، وكأنه وثبة ، تعود بسرعة الى أوكارها .

فى « سان سيمبليثيو » ، لى « الصبى » والكلبة النداء الخادع للثلوج فخرجوا الى الحمول . دانت قدمه تحدث صريرا خافتا ، يحوله صمت المنطقة المهيبة الى قرقرات صماء معتمة ، كان ينبسط أمام عينيه كوكب متسع ، معدنى ، منعزل وأخرس ، وعليه أن يطوفه مدفوعا بالرغبة فى الاكتشاف . دار حول قمة « ميرينو » وعندما بدأ فى هبوط المنحدر ، لمح أثرا لحجل . كان يمكن تحديد آثار أقدامه الخفيفة بوضوح على الثلوج العذراء وتتبع الصبى تلك الآثار ، والكلبة خلفه ، دون أن تحاول مجرد اقتفاء الأثر . اختفت الآثار فجأة فتوقف الصبى ثم نظر حواليه ، وعندما لمح عشب شجرة البلوط على بعد اثنى عشر مترا ، ابتسم ابتسامة لا تكاد ترى . كان يعرف من جده « رومان » أن الحجلان لا تتبخر ولا تطير فى الثلوج كما يدعى بعض الصيادين الذين يعتقدون فى الخرافات ، ببساطة ، كان الحجل ، لكى يتفادى وشاية آثاره به ، يقفز قفزة هائلة قبل أن يختفى داخل الجحر . ومن ثم فقد استنتج وجود الحجل هناك ، تحت العشب ، وعندما تقدم نحوه والابتسامة بين شفثيه ، مستمتعا بحلاوة المفاجأة ، وثب الحجل بحركات خرقاء والصبى وراءه ، بحركات خرقاء أيضا ، يضحك ويقع ، بينما كانت الكلبة تنبح الى جواره .

توقف الصبى والكلبه بعد ان اختفى الحجل بين المروج  
وعيناه الصفراوان متسعان من الرعب . وكرد قبل مباغت  
شرع « النينى » ، الذى مازال يلهث ، فى التبول فظهرت  
دائرة صغيرة سوداء من الأرض تحت الثلج المذاب .

انحنى على مقربة من المكان وصنع فى دقائق معدودة  
تمتالا من الثلج ، ثم وضع على فمه ملفعة واستعنت الكلبة :  
- « نا » ، انظرى ، ها هو المختلس ، اهجمى عليه .

لكن الكلبة نكصت على عقبيه خائفة بينما كانت تنبح  
وعيناهما على التمثال ، عندئذ ، شكل الصبى كرات نلجية  
وبدا يقذف التمثال الذى تهاوى بعد أربع تصويبات . أطلق  
ضغطة حادة وتجهجه رجع الصوت الكريستالى على التكرار ، ثم ،  
السياح مرة بعد أخرى ، كل مرة أعلى من سابقتها . تملكه  
خند نل هذا احساس بالكمال . صعد الرابية دون أن يكف  
عن السياح وعندئذ لمح المختلس ، بشحمه ولحمه ، هناك  
أسنل . يجر قدميه فى أراضى السيدة « كلو » المحروثة .  
أمسك « الأنينى » عن السياح وشمر بموجة من الغضب تسرى  
فى كل جسده . كان القانون يحرم الصيد أثناء سقوط  
الثلج ، لأن الحيوانات التى تمشى على الأرض تترك آثارا  
تفزع وجردنا بالاضافة الى أن الحجلان لا تستليح الحركة  
بحرية فى مثل تلك الظروف . ومع ذلك ، فقد كان المختلس  
هناك وبندقيته مشرعة . رآه الصبى يتجه نحوه فحاول  
تفاديه لكن المختلس قطع الطريق عليه . « ماتياس ثليمين »  
يضرب بالقانون والعرف عرض الحائط عند سيره فى الثلج ،  
وعند رؤيته من بعيد ، وهو يتسلل بخفة تحت لمعان القمم  
العالية ، يبدو وكأنه الساكن الوحيد لهذا العالم . عندما  
اقترب من الصبى ، قال له كاشفا عن أسنانه المخيفة المفترسة :  
- كنت أنت الذى يصيح هناك أعلى ، أيها الصعلوك ؟

- نعم .



— كنت تضحك بحماس ، ايه ؟ تضحك عندما تكون بمفردك كالمجانين .

حاول الصبى الاسراع لأن صحبته لا تروقه . كانت مغلاة المختلس منتفخة بما يشبه الحجلين . سأل «النينى» :

— ألم تشاهد آثارا ؟ أين يختبئ الزبذب فى هذه القرية ؟

— لا أدرى .

— لا تدرى ، لاتدرى ، أراهن على أنك تدرى جيدا .

هز الصبى كتفيه . أضاف المختلس :

— سيطرركم « الخوستيتو » من المفارة ، ايه ؟ الى أين ستذهبون ، أيها الصعلوك ؟ اذا فقئت عينا الأرنب ، مات . سيحل بك نئس المصير لأنك تنلق فمك بقفل .

هبطت من على الرابية الآثار الصغيرة لقدمى « النينى » وبجوارهما حذاء المختلس المليء بالمسامير والآثار الخفيفة للكلبة . تبدو الأرض وهى خالية ومنتفخة بعض الشيء بفعل أشكال القمم المستديرة ، وكأنها مسطح يغمره اللبن قبل لحظة الغليان .

رفع العم « راتيرو » ، الذى كان يجلس القرفصاء أمام النار ، رأسه عند سماعه لوقع أقدام الصبى :

— هل رأيته ؟ — سأل بغيظ مكتوم .

— لا — رد الصبى .

— « مالبينو » رآه .

— ليس صحيحا — أضاف الصبى . لا توجد مهجة حية بين الحقول .

شعذت نظيرة العم « راتيرو » الآبقة تحت الجفون.  
وتسمرت على النار ، لكنه لم يتفوه بشيء • والصبي هو  
الآخر فضل الصمت •

منذ أربعة أسابيع لا يفكر العم « راتيرو » الا فى غريمه •  
حاول « النينى » مرات عديدة صرفه عن هذا ، واقناعه بأن  
النهر للجميع ، لكن اصرارا شرسا قد تملك قلب العم راتيرو •  
« الفئران تخصنى ، وهو يسرقها منى » ، كان يقول : ويلهث  
من التعب والغىظ • فى « سان ميليتون » طلعت الشمس  
وأذابت الثلج ، ومع حلول المساء ، لم يكن قد بقى الا بعض  
أجزاء بيضاء هشة تطوق القمم العالية من ناحية الشمال •  
وفى نفس هذه الليلة لزم العجوز الفراش ، وبمجرد أن عرف  
« النينى » هبط لتمضية بعض الوقت معه • حقنة شرجية  
كانت معلقة فوق السرير الخشن ، وبجواره مصباح متواضع ،  
وفوق المصباح توجد صورة للعذراء • قال له العجوز دون  
أن ينظر اليه ، ودون أن يحرك عضلة واحدة من وجهه :

— هذا المساء ، قبل أن أنام ، أردت سماع صوت الريح  
بين نباتات البوط ، مثلما كنت أفعل وأنا شاب • استلقيت  
بجوار النهر وانتظرت ، لكن الصوت جاء مختلفا •

كل شيء يمضى فى هذه الحياة لا يتكرر أبدا ، يابنى •

شرع الصبي يتحدث عن الثلج والمختلس وعن الحجل بين  
أعشاب البلوط وأخيرا ، خيم الصمت ، وحدقتاه على قطعة  
القماش السوداء التى تغطى نصف وجه العجوز • لكن العم  
« روفو » ، الذى كان يلهث من التعب ، لم يعلق على كلمات  
الصبي •

فى مساء اليوم التالى عاد « النينى » الى جواره ، ولما أظلم  
الجو ، نهض وأضاء المصباح الموجود على رأس السرير •

تكررت زيارات « النينى » للمريض لمدة أسبوع لم  
يتبادلا فيه الا بضع كلمات ، لكن « النينى » كان ينهض

بمجرد رؤيته لاحتضار النهار ويضيء المصباح دون أن يطلب منه هذا . في الليلة السابقة ، وبعد أن أضاء المصباح ، نزع العجوز قطعة القماش السوداء باصبعين مرتجفتين ، وقال :  
- تعال هنا .

خفق قلب الصبي خفقات غير منتظمة . بدا الجزء الذى تغطيه قطعة القماش وكأنه عجيبة دموية محفورة فى اللحم ذاته . وفى الجزء العلوى من الانف ، بجانب الصدع ، ظهرت عظمة صفراء .

ضحك العجوز وقال عندما لاحظ وجه الصبي الممتقع :

- ألم تشاهد أبدا جمجمة رجل حى ؟

- لا .

عاود العجوز الضحك ثم قال :

- عندما نموت يأكلنا الدود . لكن الأمر سوء ، يا بنى .  
فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ولم تطق الديدان الصبر والانتظار .

في « سان سيجوندو » ، ومنذ أربعة أعوام ، يأتى الى القرية رجال من اقليم « اكستريمادورا » . كانوا يشغلون عند مجيئهم فوق حميرهم المرسجة قافلة غير منتظمة ويفنون ، وكانهم بدلا من قطع مسافة خمسمائة كيلو متر فى عشرة أيام وفى طرقت متربة ، قد انتهوا من أخذ حمام ساخن بعد الاستيقاظ من نوم عميق . كانوا يسكنون اصطبلات « دون أنتيرو » ، نظير خمسة ريالات للفرد فى اليوم الواحد . وبما أن عددهم يصل الى اثنى عشر فردا ويمضون بالقرية ما يقرب من ستة الأشهر ، فقد كان يدخل جيب « دون أنتيرو » سنويا حوالى أحد عشر ألف ريال .

أحسست «دونياريسو» ، الوصية الحادية عشرة ، بقدمهم فأغلقت النافذة بشدة :

— انهم هنا من جديد ، ليشملنا الله برعايته — قالت لـ « لابيتو » ، الخادمة .

خلال العامين اذولين ، شارك « النينى » هؤلاء الرجال فى نظهير الجبل من أعشاب الصنوبر . فعلوا هذا من قبل فى « توريثيوريجو » ، وهم الآن عمال تابعون للحكومة حيث تقع على عاتقهم المهمة الشاقة لتشجير الصحارى والجبال . قضية التشجير كانت الشغل الشاغل لرجال الحكومة الجدد . وفى أثناء الحرب ، التى لم يكن قد مضى على اندلاعها خير أربع وعشرين ساعة ، شكلت مجموعات من المتطوعين بغرض تحويل صحراء قشتالة القاحلة الى غابة وارفة . كان المؤيدون لهذه العملية لا يملون من التأكيد على أن « الأشجار تحسن

الطقس ، وتجلب الأمطار وتعجز الأتربة عن الأرض.  
المزروعة . فلا بد من زراعة الأشجار . يجب أحداث ثورة .  
ولينهض الريف ويتقدم ! » . وشمر رجال كل القرى عن  
شواعدهم ، حاملين الفؤوس ، من أجل المنحدرات القاحلة .  
وعندما جاءت شمس أغسطس أحرقت البراعم الطرية وظلت  
القمم عارية كالجماجم .

قال « جواد الوبي » ، خولى رجال « اكستريمادورا » -  
والذى كان بالرغم من اسمه ( ١ ) فتى لوحته الشمس ، مفتول.  
العضلات وذا ايماءات سريعة وفظة كفجرى - لفتيان القرية  
فى حانة « مالبينو » انهم جاءوا وفى نيتهم تحصيل اقليم  
قشتالة الى جنة فيحاء . ضحك « البرودن » وقتها متشككا  
فقال له « جواد الوبي » : « ألا تعتقد هذا ؟ » . فأجابه  
« البرودن » مكتئبا : « الله وحده هو الذى يصنع المعجزات » .

بدأ رجال « اكستريمادورا » العمل فى رابية « دونالتيو »  
وخلال أشهر معدودة رشقوها بأشجار الصنوبر الصغيرة ،  
فأصبحت مثل وجه آدمى هاجمه الجدرى . لكنهم بمجرد أن  
فرغوا من عملهم صبت شمس لا ترحم نيرانها على الرابية ،  
فأخذت البراعم الصنوبرية فى الذبول وبعد أسبوعين جف  
سبعون بالمائة من الأشجار المزروعة وأصبحت تشرقق تحت  
الأقدام مثل العطب الجاف . قاومت الأشجار الباقية أسابيع  
أخرى ، لكنها ماتت متفحمة وعادت الرابية الى ما كانت عليه  
قبل مجيء رجال « اكستريمادورا » ، عبوسة متجهمة .

كان البص الكريستالى يومض على حافة المنحدر ،  
وعندما شاهد « جواد الوبي » ، الذولى ، غمزات المرتفع سب  
ولعن :

— مازال يستخر منا هذا المخنث .

---

( ١ ) فى اسبانيا يعتاد تسمية النساء بهذا الاسم ( جواد الوبي ) لكنه يطلق  
على الرجال فى القليل النادر وقد ذكرنا هذا حتى يقف القارئ على قصد الكاتب .  
حملته الاعتراضية الاستدراكية - ( المترجم ) .

كانوا يتحدثون بغضب عن المرتفعات ، لكن عزيمتهم لم تفتقر ، بالرغم من النتائج العقيمة . أحيانا كان يظهر بالقرية المهندس ، وهو شاب بشوش وان كان يعلو وجهه شعوب أوراق الكتب الكثيرة التي درسها ، ويجتمع بالاثني عشر رجلا في حانة « المالبينو » ويخطب فيهم وكأنه جنرال يتوجه الى جنوده قبيل المعركة :

— أيها الرجال — كان يقول — ، أتعرفون أنه منذ أربعة قرون كان باستطاعة قرد دخول أسبانيا من على جبل طارق والوصول الى جبال البرانس ، وهو يقفز من غصن الى غصن دون أن تلمس رجله الأرض . بشجاعتكم سيتحول البلد الى غابة مترامية الأطراف .

تبادل « البرودن » و « المالبينو » نظرات لها معنى . بعد انتهاء زيارة المهندس ، الذي كان يشاركهم الشراب حفرد منهم ، يزداد تفانى رجال « اكستريمادورا » ، ويعمقون اكتر حفر شجيرات الصنوبر لكي تتجمع فيها الأمطار ويحمونها من رياح الشمال ، ولكن المطر كان يأبى على النزول ، وعندما يصل شهر يونيو ، تسلق شجيرات الصنوبر داخل حفرها مثلما يطهى الدجاج بنفس عصارته .

اعتاد « النيني » زيارة رجال « اكستريمادورا » لأنهم علاوة على مهارتهم الفائقة في اجتثاث أعشاب الصنوبر أو زراعة الشجيرات الصغيرة في ملح البصر ، يذكرونه بأيام « توريثيوريجو » وهو مع جده « ابونديو » ، عندما كانوا يقصون أثناء الليل ، تحت سقف المخزن المليء بالثقوب ، حكايات تثير الرعب والفرع . من وقت لآخر ، كان يأتي الى القرية أحد ( المعارف ) :

— « نيني » ، أيها الغلام ، ما هي أخبار جدك ؟

— ذهب .

— الى أين ؟

— لا أعرف .

— يا له من عجوز شقى ! لم يكن يتركنا ننام طوال الليل باغتساله المستمر . أما زلت تذكر؟ لكن أهل القرية لم يكونوا يحبون رجال « اكستريمادورا » لأن عملهم بلا ثمرة ، ولأنهم يمنعون النعام من الاقتراب من المنحدرات ولذا ، فقد كانوا ينسبون إليهم كل أنواع الرذائل . وخلال فترة تواجدهم كان أهل القرية يتمتعون بحصانة مطلقة . فعند حدوث ما يشين يبادر الناس قائلين :

— لا بد وأن يكون الفاعل من رجال « اكستريمادورا » .

أما الوصية الحادية عشرة فقد كانت تذهب لأبعد من هذا بكثير ، فلو ظهرت ورقة مالية فئة الخمس والعشرين بيزيته فى صندوق الكنيسة ، أو لو كان عندها علم بفعل من أفعال الخير ، كانت تقول :

— بالطبع ، ليس هذا من شيمة رجال « اكستريمادورا » .

لكن « النينى » كان يعرف انهم أناس طيبون فهم يتعبون طوال النهار ويكتفون بالقليل لسد رمقهم . وأجورهم كاملة تذهب الى « اكستريمادورا » حيث تنتظرهم نساؤهم وأولادهم بفارغ الصبر طيلة ستة أشهر كاملة .

ولم يغير كل هذا من رأى الوصية الحادية عشرة ، فهم بالنسبة لها ، وتحت أى ظرف من الظروف ، أناس غير مرغوب فيهم . اذا سكتوا اعتبرتهم خطرين ، واذا غنوا عديمى الحياء . واذا مرت من أمام المخزن وسمعتهم يفتنون بحماس كانت تنادى على « جوادالوبى » ، الخولى :

— « جوادالوبى » ، تأمرنا الوصية الحادية عشرة بعدم احداث ضوضاء .

فرد عليها « جوادالوبى » :

— واذا لم يفتنوا ، فماذا يفعلون ؟

– يصلون •

عندئذ يعقف « جوادالوبي » يديه السمرأوين فوق صدره ويهز رأسه من أعلى الى أسفل ، وكأنه يريد أن يبرهن على سكوته حتى لا تتفاقم الأمور •

فى « سان براوليو » ، التقت « دونياريسو » بالراتيرو فى الميدان :

– تسرنى رؤيتك – قالت له – هل تعرف أن الصبى يمضى كل الوقت بصحبة رجال « اكستريمادورا » الضالين ويشرب من أوعيتهم ويستمع لكلامهم الفارغ وحكاياتهم القذرة ؟

– دعيه ، يا « دونياريسو » – أجاب « الراتيرو » بابتسامته المبهمة •

– أهذا ما قدرت عليه ؟

– نعم •

– أليس من الأفضل له الذهاب الى المدرسة بدلا من تعلم مالا ينبغى ؟

– انه يعرف •

– تعتقد أنه يعرف ؟

– الكل يقول هذا •

– الكل ؟ واذا كانوا هم لا يعرفون شيئا ، فكيف يحكمون على الآخرين ؟

وضع « الراتيرو » اصبعها تحت القبعة وهرش رأسه بخشونة •

تحول صوت «دونياريسو» ، فجأة ، الى نغمة استرضاء :

– اسمع ، يا « راتيرو » – أضافت – • لدى « النينى »



مواهب طبيعية ، اعتقد في هذا ، لكنه يحتاج الى توجيه :  
اذا سلك الطريق الصحيح فيمكن أن يعرف ما لا يعرفه أحد .  
نظرت الوصية الحادية عشرة الى الساعة في معصمها  
وصدرت عنها ايماءة قلقة :

— ليس لدى وقت الآن ، يجب ان اتحدث معك ذات يوم  
على مهل . الفكرة السيئة التي كونتها « دونياريسو » عن  
« النيني » لم تكن بالشئ الجديد ، لكن قبل وصول رجال  
« اكستريمادورا » هذا العام ، اقتضت الوصية الحادية  
عشرة على الظن السيئ به أو توجيه بعض اللوم اليه . لكن  
هذا لم يمنعها من الاستفادة بخدماته وقت الحاجة ، مثلما  
حدث في « سان روبرتو » وفي « سان خوان » منذ عامين  
مضيا ، بالنسبة لموضوع الأرانب :

— « نيني » — سألته حينئذ — ألا تلد الأرانب كل شهر ؟  
— بلى .

— ما الذي جرى اذن لأرنبتى هذه التي يصحبها الذكر  
من ستة أشهر وكان شيئاً لم يكن ؟

لم يجب « النيني » ، فتح المشية واختبر الأرنبين بدقة ،  
وبعد برهة ، أغلق عليهما العشة من جديد ثم نهض وقال  
بصوت وقور :

— انهما ذكران ، يا « دونياريسو » .

بدت الوصية الحادية عشرة وكأنما نزل عليها سطل من  
الماء البارد ، وعندما استعادت هدوءها دفعته بكلتا يديها  
خارج الحظيرة .

في حياة « دون أليو جاجو » ، زوجها ، كانت  
« دونياريسو » مستبدة وتركب رأسها دائماً . كان « دون أليو »  
مريضاً بالضغط ولم يكن يقوى على المشي ، وبما أنه يرهب  
الخيول ، فلقد اشترت له بعض الخيول الضامرة التي تستغنى

عنها المؤسسات المتخصصة في تجهيز الموتى ودفنهم . كانت الخيول التي تجر مثل تلك المركبات مطيعة ولا تأتي بما يعكر الصنو . وبالرغم من هذا ، فقد ابقى « دون التيو » على سروجهم المذهبة وعلى الريش الاسود الذى يزين رؤوسهم لانه ربما يؤدى التخلي عن هذه اللوازم الى استغراب الخيول وهيجانها . كان الفلاحون يرسمون الصليب على صدورهم عندما يلتقون به وهو على هذا الوضع ، لانهم يعتقدون ان الحيوان المسرج بهذا الشكل لا يمكن أن يجر سوى المصائب . اعتاد « دون ألتيو » الذهاب عند مغيب الشمس الى قمة « ثيرال » ، وهناك يبدو وهو جالس بلا حراك فوق حصانه المزين بالريش ووجهه للضوء الباهت وكأنه شبح أسطورى . ومنذ ذلك الحين تحولت قمة « ثيرال » الى قمة « دونالتيو » ، لكن « دون ألتيو » ، بالرغم من مرضه بالضغط ، فقد دفن أربعة خيول قبل أن يموت ، وعندما حدث هذا اتشحت « دونياريسو » بالسواد ، حتى انها رفضت المشاركة فى عيد الفصح وواظب على قداس الأحد من خلال نافذة الاعتراف لمدة عامين .

كان قسيس «توريثيوريجو» ، « دون ثيرو » ، بعد أن يفرغ من قداسه فيها يذهب فى نفس اليوم لاداء قداس اخر فى قرية «النينى» . وبما أنه كان فى ريعان الشباب وخجولا فلم يستطع مقاومة رغبة «دونياريسو» : «اذا كنت تريد ان هذه الطريقة تريح ضميرك ، فاستمرى » ، كان يقول لها . يأتى « دون ثيرو » الى القرية ممتطيا جرار « دون أنتيرو » الزراعى ، فى تمام الحادية عشرة أيام الآحاد ، فيصلى صلاة خفيفة ويحاول التبسط فى شرح الانجيل . أما «الماميرتيتو» ، صبى البرودن الذى يعمل مساعدا للقس ، فلم يكن يقرع الأجراس الا بعد أن يشاهد من موقعه على البرج سحابة التراب التى تثيرها على الطريق غربة « دون أنتيرو » ، « الفوردهش » .

كان « المامير تيتو » يصر على التأكيد ، ومنذ نعومة أظفاره ، بأن الملاك جبريل يتراءى له قبل نومه • عندما بلغ السادسة لازمت وجهه أمارات الدهول فكانت « لاساينا » ، أمه ، ترجع هذا الى التهيؤات • لكن بعد سنتين سقط الصبى من على آلة الدرس فخرجت من أنفه حبة صنوبر لها جذور ومعها دم كثير وصدید ، ومن ساعتها عادت النضارة الى وجهه من جديد وعندئذ صاحت فيه « لاساينا » ، بخيبة أمل ، اذا ادعيت ثانية رؤية جبريل فسألطمك على وجهك •

فى « سان خوناس » ، أرسلت « دونياريسو » فى طلب « النينى » :

— ادخل ، أيها الصغير — قالت له — • دع الكلبة فى الخارج •

نظر اليها الصبى فى هدوء وقال برباطه جأش :  
— اذا لم تدخل معى ، لن أدخل ، ها قد عرفت •  
— حسنا • سنتحدث حينئذ فى الحظيرة •

لكنهما بقيا فى الدهليز ، جالسين على دكة عالية جدا من خشب الجوز ، لدرجة أن قدمى الصبى ظلتا معلقتين فى الهواء بعيدتين عن الأرض • استخدمت معه الوصية الحادية عشرة كلاما عذبا مهدبا هذه الليلة :

— أخبرنى ، يا « نينى » ، لماذا تمشى وحدك دائما ؟  
— لا أمشى وحدى ، يا « دونياريسو » •  
— مع من ، اذن ؟  
— مع الكلبة •  
— يالله ! أتعبر الكلبة أحدا ؟

نظر اليها « النينى » مندهشاً ولم يجب • استمرت « دونياريسو » :

— والمدرسة ؟ لماذا لا تذهب الى المدرسة ؟

— لماذا ؟

— لكى تتعلم .

— وهل تعلم المدرسة ؟

— يا له من سؤال ! فى المدرسة يتعلم الصغار ليصبحوا  
فى الغد رجالا ذوى شأن .

ابتسمت « دونياريسو » عندما لاحظت حيرة الصبى  
وأضافت :

— اسمعنى جيدا . سيقول لك جهلاء القرية ورجال  
« اكستريمادورا » الضالون انك تعرف الكثير . لكن لا تلتفت  
لكلامهم . اذا كانوا لا يعرفون شيئا ، فكيف يقومونك ؟

نظر كل منهما للآخر فى صمت و « دونياريسو » لكى  
لا يفلت الزمام من يدها ، أضافت أخيرا :

— هل تعرف مثلا معنى طول الأناة ؟

نظر اليها الصبى متحيرا ، كانت تعلق وجهه نفس  
الدهشة التى علتة منذ يومين عندما طلب منه « الروسالينو »  
وهو على متن العربة « الفوردش » أن يضرب بيده على  
« الكاربوراتور » لأن محرك السيارة يقطع . وبما أن الصبى  
لم يحرك ساكنا ، فقد سأله « الروسالينو » : « ألا تعرف مكان  
« الكاربوراتور » ؟ » فهز الصبى كتفيه وقال : « عن هذا  
لا أعرف شيئا ، انه من المخترعات » .

تأملته « دونياريسو » فى شئ من الكبرياء وعلى شذقيها  
مشروع ابتسامة :

— قل — ألحت — . هل تعرف معنى طول الأناة ؟

— لا — رد الصبى بجفاء .

تفتحت ابتسامة « دونياريسو » كزهرة الخشخاش :

— اذا ذهبت الى المدرسة فستعرف اكثر من هذا وستصبح  
فى القريب العاجل رجلا مهما .

أطبقت لحظة صمت . كانت « دونياريسو » تعد لهجوم  
جديد . لقد بدأت تززعها سلبية الصبي وغياب رد فعله .  
قالت فجأة :

— أتعرف عربية « دون أنتيرو » الكبيرة ؟

— نعم . يقول « الرايينوجراندى » انها من النوع  
الذكر (٢) .

— يا لله ، يا له من هذيان ! . أيمكن أن تكون السيارة  
ذكرا أو أنثى ؟ أهذا ما يقوله الراعى ؟  
— نعم .

— جاهل آخر . لو كان « الرايينوجراندى » ذهب الى  
المدرسة لما تفوه بمثل هذه الترهات — غرت من نفمة صوتها  
كى تواصل الحديث :

— وأنت ، ألا يعجبك أن تكون عندك سيارة مثل التى  
يملكها « دون أنتيرو » عندما تصبح كبيرا ؟  
— لا .

تنحنحت « دونياريسو » :

— حسنا — تابعت كلامها — ، لكن يعجبك معرفة كيف  
تزرع صنوبرا أكثر من « جوادالوبى » .  
— نعم .

— أو معرفة كم لدى النسر من أصابع أو أين يعيش  
العاسوق صائد السحالي ؟  
— أعرف هذا ، يا « دونياريسو » .

---

(٢) على خلاف ما هو معروف فى اللغة العربية فإن كلمة : سيارة أو عربة  
(el coche) فى الاسبانية تندرج تحت جنس الذكر — ( المترجم ) .

— حسنا — قالت الوصية الحادية عشرة بصوت مضطرب — ،  
( عايز تفرسنى ) • أهذا ما تريد ؟

لم يجب الصبى • كانت الكلبة تتأمله بخنوع من موقعها  
بالقرب من افريز الباب المذهب •

نهضت « دونياريسو » ووضعت يدها على كتف الصبى :  
— اسمع — قالت له بحنان — ، لديك مواهب فطرية لكن  
العقل تجب زراعته • انا لم تقدم الطعام يوميا لعصفور  
فانه يموت ، أليس هذا بصحيح ؟ والأمر كذلك بالنسبة  
للعقل •

— تنحنحت ببلاهة ثم أضافت :

— أنت تعرف مهندس رجال « اكستريمادورا » ؟

— « دون دومينجو » ؟

— نعم « دون دومينجو » •

— أعرفه •

— يمكن أن تصبح مثله •

— لكنى لا أريد أن أكون مثل « دون دومينجو » •

— حسنا ، ما أردت الا أن أضرب المثل به • ما أريد  
قوله هو أنك يمكن أن تصبح من السادة لو قدمت القليل من  
جانبك •

— ومن قال لك اننى أريد أن أكون من السادة ،  
يا « دونياريسو » ؟

وجهت « دونياريسو » نظرها الى السقف ، ثم قالت  
كاتمة غيظها :

— من الأفضل أن أتحدث الى والدك ثانية • أنت في  
غاية العناد • لكن ضع ما تقوله «دونياريسو» حلقة في أذنك :  
لا يمكن لأحد في هذا العالم أن يضع يدا على أخرى ويظل  
متأملا شروق الشمس وغروبها ؛ تقول الوصية الحادية عشرة :  
العمل حق •

كان « الرايينو جراندى » ينهض قبل طلوع الفجر وينفخ فى البوق وسط ميدان القرية فيلبى السكان اشارته ويفتحون أبواب الحظائر ، وهم شبه نائمين ، فتتقاطر النعاج والماعز بمفردها وتلتف حول الراعى محركة جلاجلها بسرور . فى مثل هذه الساعة ، يكون « الرايينو تشيكو » عائدا من النهر بعد سقى البهائم ويتقابل الأخوان فى الميدان فيحيى كل منهما الآخر برفع يده فى لمحة صداقة ، كالغرباء :

- صباح الخير .

- لينعم الله علينا بالخير .

بعد ذلك ، ينزوى « الرايينو تشيكو » داخل الاصطبل ، ينظف المداود ويعد الأعلاف ، بينما يسلك « الرايينو جراندى » بقليعه طريق الربوة لتفاجئه خيوط الصباح الأولى . عادة ، وهو فى مسارب القمم العالية .

خلال فصلى الخريف والشتاء ، يكون العم « راتىرو » و « النينى » هما أول الكائنات البشرية التى يراها « الرايينو جراندى » تحت فى السهل ، بين الربى العبوسة ، بالقرب من الخط الفضى للنهر . كان يميزهما بوضوح ، بالرغم من صغر حجميهما ، ومن حركاتهما كان يدرك متى تفر الجرذة ومتى يمسكان بها . وبينما هو جالس فوق صخرة ، لتناول غذائه ، يظل يرقبهما بلا اكتراث أو حماس .

تحت ، فى السهل ، ابتعد « الراتىرو » عن فوهة الجحر عكر المزاج وهو يقول :



— ليس به شيء •

يمضى النهر ، فى مجراه الضحل ، بصعوبة بين نباتات  
السعد والبوط ، وعلى جانبيه تحت شمس مشاكسة ، تلمع  
الأرض العطشى بالبياض ، فى تناقض واضح مع مظهر  
الكمال الخادع للفلال المنتصبة •

استعث الصبى الكلبة :

— عليك بها ، يا « فا » !

ألصقت الكلبة خرطومها بسطح الأرض ، تشممت  
المسارب على الشاطئ وعند عبورها النهر ، بربطت فى الماء  
بصوت عال • توقفت فجأة ، ذيلها المقصوص منتصب ،  
رأسها مائلة الى ناحية ، عيناها ثابتتان ، وجسمها متخشب  
بلا حراك :

— حذار ! — قال « الراتيرو » — شاهرا سيخه الحديدى •

أسرعت الكلبة بلا تبصر فهشمت كرفس الماء ونبات  
السعد الذى يعترض طريقها • جرت لعدة ثوان فى خط  
مستقيم ، ثم توقفت فجأة ، عادت أدراجها وهى تشم فى  
كل اتجاه ، وأخيرا رفعت رأسها حزينة وهى تلهث من  
التعب •

— لم تفلح فى الامساك بها — قال « النينى » •

— لقد شاخت ، لم تعد تنفع للصيد — رد عليه  
« الراتيرو » •

نظر اليه « النينى » بارتياح ثم قال بعد وقفة قصيرة :

— انها حامل • ستمود الى ما كانت عليه بعد الولادة •

لم يرد الرجل • قفزت الكلبة النهر ، أقعت ، ثم نبشت  
الأرض بيديها فى عصبية حتى غطت البقعة الصغيرة الرطبة •  
كل مرة تتبول فيها بين الحقول تحاول ألا تترك أثرا • فى

المفارة كانت تكفى اشارة من الصبى لكى يخرج الحيوان ويريح نفسه . فى شبابها كانت ترفع رجلها على النواصي لتفعل هذا ، مثل الذكور ، لكن بعد أول بطن لها ، أصبحت رزينة وأدركت معنى الأنوثة . من قبل ، قص «الانتوليانو» ذيلها بضربة ازميل واحدة ، لكن ذيل « لافا » ظل بهيجا ومعبرا ، مثل هؤلاء الرجال الذين يتسمون رغم كثرة المصائب . من ذيل الكلبة كان « النينى » يعرف أين توجد الجرذان ، اذا كانت حزينة أو مسرورة ، أين يعيش الهدد والكروان أو أين يكمن الخطر .

— انها حامل من كلب العجوز — أوضح الصبى ، بعد وقفة قصيرة ، دون أن يسأله الرجل .  
— من « الدوكى » ؟

— نعم . فى المساء تفك « لاسيميونا » وثاقه .  
حرك « الراتيرو » رأسه غاضبا . كانت ذقنه التى لم تحلق كثيفة الشعر ، وقبعته المتسخة تصل الى أذنيه .  
تعكرت عيناه عندما قال :  
— الآن لا توجد جرذان .

أوشك الربيع على القدوم والمخلاة يتناقص محتواها كل مرة عن سابقتها بالرغم من مضاعفة الجهد . لم يحدث هذا فى أى عام مضى . كانت الجرذان تكثر فى النهر — ما بين خمسة أو ستة فى الجعر الواحد — ونادرا ما كانت تقل حصيلة اليوم الواحد عن ثلاث دست . أما الآن ، فلا يكاد يسفر مجهود اليوم بطوله عن ثلث هذه الحصيلة . ولذا كان « الراتيرو » يقول من بين لثتيه الخاليتين مع الأسنان : « انه يسرقها منى » .

فى الحانة ، لا يكف « المالبينو » عن وسوسته الشريرة كل ليلة : « الجرذان جرذانك ، يا « راتيرو » ضع هذا فى رأسك . هذا الوغد لم ينتدبه أحد » . « معك كل الحق » .

كان « الراتيرو » يرد عليه وتتصلب عضلات رقبتة وذراعيه  
كما لو كانت ستنفجر . ومع ذلك يضئف « المالبينو »  
« يريد أن يسليك لقمة العيش ، لا تدع هذا التنبل يظاً  
أرضك » .

وبعدها لا يكف « الراتيرو » ، حتى مساء اليوم التالى،  
عن اجترار كلمات « المالبينو » بالرغم من اجتهاد « النينى »  
فى اقناعه بأن الجرذان مثل الغلال ، تكثر يوما وتشح اخر،  
وأن السبب هذا العام يرجع الى كثرة بنات عرس .

أحيانا كان الصبى يتصور أن الجرذان قد أصابها  
الوباء الذى يفتك بالآرانب ، لكنه بالرغم من بحثه الدائب  
فلم يعثر على جرذة واحدة مريضة . وعلى خلاف هذا ، فقد  
كان يعثر بسهولة على آرانب فى الصحراء أو فى مسارب  
الجبيل ، رؤوسها شقراء ضاربة للسواد ، جفونها منتفخة ،  
وأفواهها مليئة بالبثور . فالآرنب الذى تصيبه العدوى  
يصبح مخلوقا أعزل سرعان ما يموت جوعا : فهو عندما يفقد  
البصر وحاسة الشم لا يعود قادرا على البحث عن غذاء .

كشف « النينى » عشا ونادى على « الراتيرو » :

— انظر .

بين القش كان يتحرك جسدان صغيران ورديان وعيونهما  
مازالت مقفلة :

— ها قد رأيت — أضاف الصبى — . الذنب ليس ذنب  
أحد .

عادة ما تحتوى جحور الفئران على عدد يتراوح بين  
١٠ أو ثمان . قال « الراتيرو » بعد امعان المنظر قيهما :

— لقد ولدا هذه الليلة .

غطى الصبى الجحر بعناية حتى لا يؤذيها ، وألح  
نائلا :

— انها سنة كبيسة . الذنب ليس ذنب أحد .

فى سبيحة اليوم التالى ، التقى « النينى » ، بينما كان يبحث عن نعلب النهر ، بفتى « توريثيوريجو » الذى يصيد الجرذان . كان شابا وسيما ، ذا عينين متالقتين وتعبيرات جريئة ، ويلبس سترة مخملية بنية اللون وحذاء ملينسا بالمسامير مثل حذاء المختلس . كان كلبه يتشمم بلا قناعة بين كرفس الماء . ابتسم لـ « النينى » أثناء جلوسه القرفصاء وغرزه للسيخ الحديدى فى الأرض :

— ماذا حدث ، أين الجرذان هذا العام ؟

— لا أدرى — رد الصبى .

— فى العام الماضى كانت الجرذان (على قفا من يشيل) .  
— هذا العام ، لا . بنات عرس تهاجمهم ، وأبناء مقرض .  
— أبناء مقرض أيضا ؟

— احكم أنت . لا توجد أرانب فى الأماكن العالية .  
قضى عليهم الوباء . ولا بد أن يقتات أبناء مقرض بشيء .

صمت « النينى » بعد ذلك متأملا الفتى . نظرت الكلية اليه أيضا وهممت بغضب لم تفلح فى اخفائه . وقعت عينا « النينى » على الكيس المترهل المتدلى من حزام الفتى :

— ألم تصد شيئا ؟

ابتسم الآخر ، كانت ابتسامته بيضاء على خلاف وجهه الذى لوحته الشمس :

— بل قل هل رأيتها .

وضع الصبى مرفقيه على ركبتيه وأمسك وجهه براحتيه . ثم سأل أخيرا :

— لماذا تفعل هذا ؟

— أفعل ماذا ؟

— تصيد الجرذان .

— بقصد التسلية ، ثم لأنى أحبها .

— هل تبيعها ؟

أطلق الفتى ضحكة مجلجلة :

— أصيدها فقط لكي أكلها .

حينئذ أشار عليه « النيني » بالصيد في أراضى  
« توريثيوريجو » . فسأله الفتى :

— هل الصيد محظور هنا ؟

لم يجب الصبي . عندئذ جلس الفتى في المنحدر  
أخرج لفافة تبغ ، أشعلها ثم استلقى تحت وهج الشمس  
كانت عيناه تغمزان ، لا أحد يعرف هل بسبب دخان السيجارة  
أم لشدة ضوء الشمس ، وفجأة ، اعتدل وقال :

— يبدو أن المطر لا يريد النزول .

منذ « سان خوان كليماكو » و « البرودن » لا يمل من  
تكرار هذه العبارة في الحانة : « اذا لم تمطر فى « سان  
كينثيانو » فعلى الدنيا العفاء » . أما « الروساليتو »  
و « البرخيليو » و « الخوسيه لويس » و « الخوستيتو »  
و « الجوادالوبي » ومعهم كل رجال القرية ، فلم يكونوا  
يتفوهون بشيء ، لكنهم عند الاستيقاظ صباحا يرفعون  
عيونهم نحو السماء وعند رؤية الزرقة اللانهائية  
يسخطون ويلعنون من بين أسنانهم . وبرغم هذا ، فقد  
كانوا يعجلون بالذهاب الى الحقول مع أول ضوء للشمس  
لعزق الأرض ، وعندما ينتهون ، يجلسون فى الحانة صامتين ،  
وأحيانا يحاولون نسيان المأساة فيقولون : « هيا ، يا «برخيليو»  
اعزف لنا قليلا ، نستمع — على الأقل — للموسيقا » .

كان رجال القرية فى محاولة منهم للتسلح ضد المصائب ،  
يقيمون الأعياد والاحتفالات طوال العام . لكن المطر أو  
الغمام أو الآفات أو الصقيع الأسود كانت تتكفل بقلب كل  
شئ رأسا على عقب . بدت القرية هذا العام وكأنها تحولت  
الى ماتم فى أعياد « لاس مارتاس » . ومع ذلك ، فقد انقسم

الشباب ، كالمادة ، الى جوفتين تطالب كل واحدة منهما  
بانضمام « بيرخيليو مورانتى » اليها ، لكن الحماس ما لبث  
ان توارى حينما ظهرت السيدة « كلو » وأخبرتهم أن الليلة  
رطبة وأن « البيرخيليو » يشكو من البرد ومن الأفضل له ان  
يبقى بالبيت . لم تفلح الجسوقتان فى الغناء بدون  
« البيرخيليو » . وضحكت الفتيات من الشرفات على  
محاولتهما النشاز . بعد ذلك ، فى الحانة ، لم تكن الجرذان  
كافية لتلبية الطلبات عليها وصدقت ، مرة أخرى ، نبوءة  
العجوز : « عندما يكثر النبيذ ، تقل المون » . توجه  
« الخوسيه لويس » الى العم « راتىرو » قائلاً له فى غلظة :  
« لم تعد لك فائدة ، لتحجز لك من الآن مكانا فى الملجأ » .  
فرد « الراتىرو » : « لا توجد جرذان لأنه يسرقها منى » .  
بمجرد أن أعاد « النينى » من مهمته للبحث عن ثعلب  
النهر ، ألقى عليه الراتىرو هذا السؤال :

— هل رأيته ؟

لم يجب الصبى . فرفع العم « راتىرو » عينيه من على  
القدر وكرر السؤال :

— هل رأيته ؟

تأخر الصبى برهة فى الرد :

— انه لا يتقن الصيد — قال أخيراً — ولا الكلب الذى  
يصحبه .

أمسكه « الراتىرو » من شعره وأجبره على رفع رأسه :

— أين رأيته ، تكلم ؟

تقلص فم الصبى فى تعبير عن الألم الذى يحسه :

— فى « لاس ريبويلتس » ، لكنه لا يفهم فى الصيد . لم  
يصد جرذة واحدة طول النهار .

تركه العم « راتىرو » لكن أصابع يده ظلت متعامة ثم

ضمها أخيرا لأصابع اليد الأخرى ، وكأنه يقبض على رقبة شخص ما ، ثم قال :

— لو أمسكت به ، بقتلته .

وظل يلهث لبعض الوقت من المجهود الذى بذله .

فى « سان اندريس ايبيرنون » فقدت الكلبة احدى عينيها . حدث هذا فى نفس اليوم الذى قتل فيه « الرايينو جراندى » ، الراعى ، أفعى طولها متر ونصف المتر كانت ترضع نعجة « البرودن » بعد تخديرها . ادى جزع « الراتيرو » ورغبته المستمرة فى البحث بين نبات الاسل ، البسوس والسروال لأن تفقد « لافا » عيناها . كان لا يمل من تكرار : « هيا ، ابعثى » . والكلبة مطيعة كانت تقتفى الآثار بين كرفس الماء واللباب . عندما خرجت من بين الأحراج وعينها مصابة كانت تهمهم همهمات خافتة . قال « الراتيرو » : « لم تعد تصلح ، أصبحت عجوزا » . أخذها الصبى بين ذراعيه وسهر بجوارها طوال الليل ليضع لها الضمادات . فى صباح اليوم التالى ، غسل بعصير المشمش عيناها ، لكن محاولاته باءت بالفشل ، وبقيت الكلبة عوراء وعلى وجهها ارتسم تعبير غريب يجمع بين الصعلكة والاكفهرار .

فى « سان خوان » ، وضعت الكلبة ستة كلاب بجلود رقطاع وكلها بلون القرفة . هبط « النينى » الى حيث يقيم المعجوز ليزف اليه البشرى :

— لقد أصبحنا أقارب ، أليس كذلك ؟ — قال له المعجوز :

— أقارب ، ياعم « روفو » ؟

— لنر . أليست الكلاب المولودة من « الدوكى » وكلبتك ؟

— بلى .

— اذن نحن أقارب .

لم يمتد الصبي الوحده - وهو الآن يفتقد وجود الدلبة  
الى جواره - كل مرة يفادر فيها المفارة كانت الكلبة تنبعه  
بعينها وتتحرير بين صحبتته وبين البقاء الى جوار صغارها -  
ذات مساء ، عندما عاد مع الخارج ، وجدها تعوى بحرقه -  
كان تحتها ، مختفيا بين ضرعها ، الكلب الذى بلون القرفة -  
بادره « راتيرو » وعلى شفثيه ابتسامة خبيثة :

- باين عليه شاطر ومفتح -

نظر اليه الصبي دون أن يفتح فمه - أضاف العم  
« راتيرو » :

- عيناه تتوقدان ذكاء -

تحرير الصبي ثم سأل :

- والآخرون ؟

- الآخرون ؟

- نعم ، أين وضعتهم ؟

ارتسمت على فم العم « راتيرو » تعويجة ما بين بلهاء  
وماكر :

- أين ؟ هناك -

كانت الكلبة تعوى الى جوار « النينى » الذى حمل الكلب  
الصغير بين يديه وخرج من المفارة - كانت « لافا » تتقدمه  
وتشمشم فى المنحدر ، ومن على تخوم حقول القمح وصلت  
الى المرج ، رفعت رأسها للريح ثم توجهت ، دون تردد ، الى  
النهر فى خط مستقيم -

وهناك جثمت على الأرض مطاطنة الرأس فى استسلام -  
عثر « النينى » على ست اليث بين نباتات البوط ، وهناك  
فى نفس المكان حفر حفرة عميقة وأمال عليها التراب -  
بعد أن انتهى وضع صليبا خشبيا على كومة التراب بينما  
كانت الكلبة مكومة الى جواره وتنظر اليه بعينها الوحيدة  
شاكرة -



غالباً ما تهاجر طيور اللقلق في مواعيد غير منتظمة .  
ومع هذا لا يعجز « النيني » عن التنبؤ بموعد عودتها كل  
عام . في المنطقة يسود اعتقاد قديم مفاده أن طيور اللقلق  
بشير بقدوم الربيع ، بالرغم من أن « سان باس » ، وهو  
التاريخ الذي تحضر فيه عادة ، يكاد يقع في منتصف فصل  
الشتاء القاسي . اعتاد العجوز ترديد : « في قشتالة ، كما  
هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم (١) ثلاثة » .  
ونادراً ما كان يشذ عن تلك القاعدة .

كان « النيني » يعرف أن طيور اللقلق التي تمشي  
في البرج هي بعينها الطيور التي هاجرت من قبل ، لأنه قد  
زودها ذات مرة بأطواق معدنية وفي العام التالي أتت في  
موعدتها وكانت الأطواق تلمع في ضوء الشمس على قمة برج  
الكنيسة كما لو كانت من ذهب . اعتاد « النيني » ، بعد  
ذلك ، الصعود إلى برج الأجراس كل ربيع ، بمناسبة عيد  
الفصح ، ومن أعلى البرج ، تحت عصيات العرش . كان ينأمل  
متبهماً منظر الأرض . في مثل هذا التاريخ ، تنهض القرية  
من العدم ، وتكتسب أرضها مظهراً خادعاً للخصوبة . كانت  
الغلال تشكل بساطاً أخضر يذوب في اللانهاية التي تعدها  
سلسلة الروابي بأعرافها التي يخفف من كآبتها اللون الأخضر  
الكاسي لنبات السعتر ، والأزرق الفاتح للخزامى والبنفسجي  
الداكن لنبات المريمية . ومع ذلك ، لا تزال القمم العالية

---

(١) الجحيم : المقصود به فصل الصيف ، ولقد استخدمت هذه الكلمة بدلا منه ( هي  
القول المأثور ) للدلالة على قسوته وشدته حرارته بالنسبة لشهور الشتاء الباردة  
(المترجم)

مطوقة بالنلج الذى تنعكس عليه قزحيات الجص الكريستالى  
المتقلب للمنحدر والسلوك الخانع لقطيع «الرايينو جراندى»  
وهو يرعى أطراف النباتات والحشائش القصيرة بين الفجوات  
والحصى .

تحت برج الاجراس تتمدد القرية المطوفة بالنهر  
وطريق المحافظة ومخزن التبغ العمومى وحظائر « دون  
أنثيرو » . يتراقص على صفحة النهر خيال أشجار الصنوبر  
الثلاث المخضرة الرفوس . وعلى الجانب الآخر من النهر ،  
كان « النينى » يلوح مغارته ، صغيرة على البعد ، وكأنها  
جحر جندب (٢) ، وبالقرب منها أنقاض مغارة أجده  
ومغارة « سجراريو » ، الفجرية ، ومغارة « الماس » ،  
الأخرى . وهناك خلفها يرتفع جبل أشجار البلوط العمومى  
الذى تطير فوقه الصقور والطيور الجارحة بحثا عن الطعام .

يبدو المشهد وكأنه بعث عجيب ، ومع وصول « سان  
أجوستين » ، يورف النهر بنباتات متشابكة ، وتكتسى تخومه  
يشقائى النعمان والأقحوانات ، وتتجمع روائح البنفسج على  
شكل عناقيد فوق الخنادق الرطبة وتطعن الجنادب صمت  
المنطقة بهياج عنيد .

ومع ذلك ، فقد ظل المناخ عبوسا هذا العام فى  
« سانتا ماريا كليوفى » برغم أن مفكرة حساب الأيام تشير  
الى بقاء أسبوعين فقط على بداية الربيع الرسمية .

كانت السحب العالية ، القاتمة بعض الشيء ، تشق  
عباب السماء بسرعة ، لكن رياح الشمال لم تهدأ وتبخرت  
الآمال فى نزول المطر . بجوار النهر ، فى قطع الأرض  
الصغيرة التى تصل إليها المياه ، زرع رجال القرية السلق  
والخرشوف والبازلاء القصيرة . حصداً آخرون غلال الأراضى

---

(٢) الجندب . نوع من الجراد - ( المترجم ) .

العالية كعلف أخضر للحيوانات ويدروا القمح قصيرالدورة .  
نحملت الأفراس وبلبن الماعز والنعناع صنع الجبن لسوق  
« توريشيو ريجو » . كما يعرض الأهالي خلايا النحل الجديدة  
للمنسمات لكي يتفادوا تجمع النحل السابق لأوانه . لم يجد  
« النيني » الوقت الكافي لتلبية طلبات أهل القرية :

ـ « نيني » ، أريد إقامة خلايا نحل جديدة . ان لم  
أحصد قمحا أجمع ـ على الأقل ـ عسلا .

ـ « نيني » ، أصبح آننى لو قمت بهدم خلايا الملكات  
سيهرب النحل ؟ وبحق الشياطين كيف أهتدى لمعرفة خلايا  
الملكات ؟

ويلبى « النيني » طلبات هؤلاء وأولئك بدمائته  
المعروفة .

انقشعت السحب فى « سان لمبرتو » ، وعلت السماء  
وفوق حقول الغلال بدأت تتشكل حلقات بيضاء . دق  
« البرودن » ناقوس الخطر ذات مساء فى الحانة :

ـ لقد وصلت الطفيليات ! لن تفلح معها أية وسيلة .

أجابه الصمت . منذ أسبوعين لا يسمع فى القرية سوى  
نعيب اللقلاق أعلى البرج ، والثغاء الحزين للخراف الوليدة  
خلف أسوار الحظائر . كان الرجال والنساء يمشون فى شوارع  
القرية المتسخة يجر جرون أقدامهم فى التراب ، النظرات  
غائمة ، وكأنهم ينتظرون مصيبة . كانوا يعرفون جيدا معنى  
الطفيليات لكى لا يهدأ لهم بال . ففى عام الجوع أتت على  
كل المزروعات ، وبعده بعامين لم تحترم سنبلة واحدة ،  
عندما يسمع رجال القرية هذا الاسم يعقفون أصابعهم آليا  
على شكل صليب كما لو كانوا يرون « دون ثيرو » وهو يصلى  
باللاتينية من فوق منبر الكنيسة على ميت . تهدد الطفيليات  
وتتوعد فى شهر أبريل من كل عام . ومن مقولات العم  
« روفو » : « لو لم يكن أبريل ما مر عام سيء » . ولذلك ،  
فان رجال القرية يبفضون من أعماقهم هذا الشهر الجامح

المتقلب . فى «سان فيديل سيجمارينجا» ، ونظرا لطول فترة الجفاف ، اقترحت « دونياريو » اخراج تمثال القديس للتوسل بنزول المطر ، لكن « دون ثيرو » ، قسيس « توريشيو ريجو » ، بشبابه وتواضعه الزائدين ، وخجله المتردد، لم يكن فى نظر رجال القرية أهلا لهذه المهمة الخطيرة . فيحكى عن « دون ثيرو » انه فى نفس اليوم الذى قتل فيه « اليايو » ، حداد « توريشيو ريجو » ، أمه ضربا بالعصا وبعد أن دفنها تحت كومة من الروث ذهب اليه ليعترف ، فما كان من « دون ثيرو » الا أن عفا عنه وقال له متلطفا : « صل يابنى ، ثلاث مرات بكثير من الخشوع ، ولا تفعل هذا ثانية » ١١ .

ومن هنا كان الحنين لـ « دون ثوسيمو » ، القس الكبير ، يزداد بمضى الوقت . كان « دون ثوسيمو » ، القس القديم ، يرتفع عن الأرض مترين ونصف المتر ويزن ١٢٥ كيلوجراما ، كان رجلا بشوشا لا يتوقف أبدا عن النوم . كانت أم « النينى » ، « لا مارثيلا » ، تخوفه به : « اذا لم تصمت ، سأحملك الى القس الكبير ، لتراه وهو يشخر » . وعندئذ كان « النينى » يسكت لأنه يخاف هذا الرجل الضخم ، المتشع بالسواد ، ذا الصوت الرعدى . وفى صلوات الاستسقاء كان القس الكبير يبدو وكأنه لا يتوسل بل يأمر : « الهنا ، أمدنا بالمطر النافع واجعل التيارات السماوية تجرى على سطح الأرض العطشى » وكأنه يتوجه لنظير له فى حديث ودى . كانت القمم العالية تبدو وكأنها ترتجف متأثرة بصوته الرعدى .

وعلى خلاف هذا ، كان « دون ثيرو » يجثو على ركبتيه فى التراب ، أمام الصليب الحجري ، ويقول مطأطئا الرأس ورافعا ذراعية النحيلتين : « الهى ، نسألك رفع مقتك وغضبك عنا بحق هذه القرابين التى نقدمها لك ، وأغشنا بالمطر العميم » . وكان صوته يخرج ضعيفا مثل ذراعيه

ويحتاج سكان القرية شعور بعدم الثقة في أن يجد مثل هذا الكلب الباهت استجابة من السماء .

ومثل ما تقدم كان يحدث في الخطب المنبرية - ففي كل مرة يصعد فيها « دون ثوسيمو » منبر الكنيسة يعدتهم عن عواقب الزنا وعن نار جهنم . كان يلقي الخطبة بصوتات من الأعماق ، وبعد انتهاء الموعظة الأخيرة يخرج الرجال والنساء من الكنيسة وهم يتصببون عرقا ، وكأنهم قد شاركوا الكافرين عذاب الجحيم لعدة أيام .

وعلى خلاف هذا ، كان « دون ثيرو » يتحدث ، بصوت عذب وبحنان بالغ ، عن الرب الرحيم والقريب ، وعن العدالة الاجتماعية وعدالة توزيع الثروات ، لكن رجال القرية ونساءها لم يكونوا يفهمون شيئا من ذلك وإذا كانوا يتقبلون هذا النوع من الخطب ، فقد كان فقط لأن « دون أنتيرو » وابنه الأكبر ، « المامل » ، عند خروجهما من الكنيسة ، في فصل الصيف ، يملكهما الغضب من « دون ثيرو » الذي يتحدث في السياسة ويدس أنفه فيما لا يعنيه .

وبرغم هذا الفارق ، فقد كانت القرية تذهب عن فكرة أبيها لصلوات الاستسقام خلف « دون ثيرو » . قبل أن يشق الفجر طريقه ، وعندما يرسل ديك « الأنتوليانو » الأبيض بصياحه المتقطع من خلف أسوار الحظيرة ، يتكون صفان بدائيان أسودان ويقتفیان بختنوع خطوط المسارب التي لم تتضع بعد . وخطوة خطوة يرددون تسبيحات صلاة الفجر وعندما يصلون إلى إحدى المعجزات التي تشتمل عليها التسبيحات يصمتون ، فيتناهى إلى مسامعهم حينئذ الصوت العذب لجلاجل نجاج « الرايينو جراندى » من على سفح الجبل . وعندها ينشد سكان القرية بصوت نشاز ، لكنه موجه : « المفرة ، يا ربنا » . وهكذا حتى يصلوا إلى صليب الرابية الجبرى وأمامه يجثو « دون ثيرو » متواضعا ويقول : « الهى ، نسألك رفع مقتك وغضبك عنا بحق هذه القرابين

التي نقدمها لك ، واغتتنا بالمطر الحميم » - وهكذا ، يوم  
بعد آخر .

انتهت صلوات الاستسقاء في « سان ثيليتينو » - طلت  
السماء صائيه ، دل يوم في زرقه اشد من سابقتها - وبالرغم  
من هذا ، فقد لاحظ « النيني » ، عند غروب الشمس ، ان  
دخان المغارة بعد خروجه من المدخنة يهبط ويزحف على  
منحدر القمة مثل الأفعى - ودون أن يفكر مرتين استدار  
وهبط المنحدر عدوا ، وذراعاه مرفوعتان وكأنه يحاول  
الطيران - وهو على القنطرة بالقرب من النهر لمح « البرودن »  
مقوسا على الأرض :

- برودن ! - صاح هائجا بينما كان يشير باصبعه تجاه  
المدخنة بـ : دخان على الأرض ، ماء في السماء ، ستمطر غدا -  
رفع « البرودن » وجهه المبلل بالعرق ونظر اليه مشوشا  
وكانه ينظر لشبح ، غرس الفأس في الأرض بسرعة ، ودون  
أن يرد بكلمة جرى كالمجنون في شوارع القرية ملوحا بيديه  
في الهواء وصائحا كالمعتوه :

- ستمطر ! هذا ما قاله « النيني » ! ستمطر !

ترك الرجال ما بأيديهم وابتسموا من الأعماق وأطلت  
النساء من النوافذ الضيقة وهن يهملهن : « من (يقك) لباب  
السماء » ، وأصابت العدوى الأطفال والكلاب فجروا خلف  
« البرودن » وهم يصيحون : « ستمطر ! ستمطر غدا ! هذا  
ما قاله « النيني » » -

في تلك الليلة جرى النبين في الحانة كالنهر - كان  
السرور يعتلى الرجال حتى « المامس » ، الأخرس ، أصر على  
التعبير عن نشوته بوضع أصابعه فوق فمه في حركات  
منفعلة - لكن لفظ أهل القرية لم يسمح لهم بترجمة حركاته  
مما اضطر « المامس » الى الاكثار من الايماءات حتى قال له  
« الأنتولياتو » : « يا أخرس ، لا ترفع صوتك هكذا ، فلست

أصم » . وضحك الجميع ، ثم شرع « البيرخيلين » فى غناء  
« ابنة خوان سيمون » فسكت الكل ، لكن « البرودن » وكز  
بكوغه « الخوسيه لويس » وتمتم : « ايه ، أنت ، انه يعنى  
الليلة مثل الملائكة » .

فى اليوم التالى ، ظهرت سحابة كبيرة وزقازق رصاصية  
فوق ربوة « دونالتيو » ثم انزلت تدريجيا فى الاتجاه  
الجنوبى الشرقى .

أمعن « النينى » النظر اليهما بمجرد أن نهض من فراشه .  
اتجه نحو « الراتيرو » وقال له :

— ها هو المطر .

ومع المطر نشطت الريح من عقالها ، وفى المساء ، كانت  
الريح تعوى بكأبة وهى تضرب القمم العالية . فتح هدير  
الرياح فى عقل الصبى بابا للتخيلات . تخيل أموات المقابر ،  
يتقدمهم الجد « رومان » والجددة « الومينادا » ، والحجلان  
والثعالب والطيور التى قتلها « ماتياس ثليمين » ، المختلس ،  
وهم يتوافدون زمرا على القرية للمطالبة بتصفية الحساب .

لكن الريح اقتصرت ، هذه المرة ، على توزيع السحابة  
الكبيرة على المنطقة ثم خمدت . أما الرجال ، الجالسون على  
عتبات بيوتهم ، فقد تركوا أنفسهم عرضة للمطر بينما كانوا  
يفركون أيديهم الخشنة ببعضها ويقولون ناظريش الى السماء  
بعيون مطبقة :

— ها هو المطر . لم يخلف مواعده هذا العام .

صبيحة اليوم الرابع أيقظ الصمت « النينى » . أطل  
الصبى من قم المفارة فوجد السحابة قد انقشعت وشعاع

الشمس الخجول ينثر خصلاته الطويلة البيضاء ليرسم قوس  
قزح مضيئاً بين قمتي « دوناليو » و « كلورادو » - وصلت الى  
الصبي الرائحة الرخوة للأرض السكرى وسرعان ما أحس  
بغناء العندليب ، هناك تحت ، بين أشجار الصفصاف  
وعندئذ أدرك أن الربيع قد أتى .



مند « سان جريجوريو » تحول صوت الجنادب فوق المنطقة الى هدير حقيقي . كان صراخا كثيفا وعنيدا يتبع فوق الأرض المزروعة ، وعلى مجرى النهر الضامر ، واحواطين الطين والقش البائسة والقمم الكثيبة التي تزين الازق . نوعا من الذبذبة العصبية التي تضيق ، ساعة الشفق ، هي موجات متنامية كمد البحر لكي تخف حدتها في الساعات الوسطى من الليل أو النهار . على أية حال ، كان صوت الجنادب له جرم وكثافة يتسربان الى كل الفجوات ويشكر خلفية صاخبة لسائر الأنشطة ، لكن رجال القرية ونساءها لم يكونوا يلتفتون اليه ، فقد كان شيئا ، مثل الهوام ، يتمنع بايقاعه الحيوي الخاص دون أن يحسوا به . فقط كانت « لاكلومبا » ، امرأة « الخوستيتو » ، تتجه أحيانا الى زوجها ، ويداهما مفتوحتان ومتقلصتان فوق صدرها وهي تولول :

— هذه الجنادب ، « خوستو » . هذه الجنادب تطبق على أنفاسي .

فيما عدا ذلك ، كان ظهور الجنادب يعني بالنسبة للقرية بداية فترة ترقب طويلة . فاللزروعات بعد تنقية الحشائش الضارة منها ، تلمع بالخضرة من على البعد وكأنها أمل قريب المنال ولا يكاد الرجال يرفعون أعينهم عن السماء . مصدر الماء والجفاف ، الصقيع والطفيليات ، وعليها وحدها يتوقف امتلاء السنابل وامكانية الحصاد .

مع ظهور الجنادب اعتادت « لاكلومبا » أن تطلب « النيني » ، لكي يعزل الدجاجة ويعهد بالكتاكيت الى الديك المخصى . لم

تدن تدفع له عادة قيمة خدماته لأنها تعتقد ان النقود تفسد الصبيان ، ومن ثم كانت تكتفى بتقديم قطعة شيكولاته وكسرة خبز له ، وبعدها تتحدث معه من مسافة ، بجانب حافة البئر ، وعندما يمشى الصبي يجتاحها احساس بالاضطراب ، مثل حكة غير محددة تنتشر في كل جسدها . كان يحدث لها نفس الشيء عندما يقترب منها أحد أفراد القرية . ولهذا السبب انتهى بها المطاف لعدم مخالطة أحد . في الحقيقة ، كانت « لاكلومبا » تجن لطفولتها في احدى ضواحي المدينة ولم تتأقلم مع هدوء القرية ولا مع ترائها وقذارتها أو الحياة البدائية فيها . كانت « لاكلومبا » تشتترط ، كحد أدنى للعيش ، وجود الماء الجارى وشوارع مسفلتة وسينما ومرفص لقضاء أوقات الفراغ . كانت لا تمل من ( الزن ) على « الخوستيتو » ، زوجها :

— « خوستو » ، عندما أنهض من السرير ، تملكنى الرغبة فى التقيؤ من فرط الاحساس بخواء العالم حولى .

فرد « الخوستيتو » مغتما :

— والى أين نذهب ونحن على هذا الحال ؟

فتبيض عينا « لاكلومبا » :

— الى الجحيم ! لأى مكان ! ألم يذهب « الكينثيانو » ؟

— يا له من نموذج ! « الكينثيانو » ذهب حمالا الى « بلباو » ليموت جوعا هناك .

— الموت جوعا فى « بلباو » أيسر من الموت كمدا فى هذه الصحراء .

تعتبر « لاكلومبا » القرية صحراء ، ولم يكن يغير من وجهة نظرها تلك وصول الهداهد ولا القبرات وطيور الخطاف . ولم يكن يغيرها كذلك وصول المجلان، واليعاسيب، والعقاعق الزرقاء ، أو الحمام المطوقة وهى تطير فى أسراب.

منتظمة على ارتفاع ألفى متر . ولم تكن تغيرها الأصوات  
المحمومة لصقور الليل ، ولا السيمفونية الرتيبة للجنادب  
غوق المزروعات أو نعاق اليوم الجاف .

لم تكن « لاكلومبا » تتجانس مع « النيني » فهي  
تعتبره نتاجا لتلك الارض البائسة وتنظر اليه باحنقار  
وازدراء كل مرة تقابله . ومن هنا فلم تكن تلجأ اليه الا في  
حالات الضرورة القصوى مثل قطف عسل خلايا النحل ، او  
خصى الخنزير ، أو عزل الدجاجة وحجز الديك المخصى مع  
« الكتاكيت » وفي مقابل هذا تحمل « الخوستيتو » مسئولية  
وحدثها وخذلانها :

— و « لونخينوس » ، تكلم ؟ ألم يترك القرية ؟ هل كان  
يوجد من هو أبأس منه في المنطقة كلها ؟

— هذا شيء مختلف . لقد ذهب مع أخته الى « ليون » .  
في مكان مضمون وجاهز .

— الكل لديه أسبابه ودوافعه ما عدانا نحن .

ومع هذا ، ففي كل مرة يحدثه فيها « فيتوسولورثانو » ،  
الرئيس ، عن موضوع المغارات الا ويلوح للعمدة بصيص  
من أمل :

— لو يساعدني الرئيس . . . — كان يقول — . لكن قبل  
هذا يجب الانتهاء من مشكلة المغارات .

وعندئذ تهيج « لاكلومبا » :

— سأكل أنا من الأحلام .

— أنت ، أنت . . . أنت تصلحين كل شيء بالكلام

عازا تفعلين لو كنت مكاني ؟

— أضع أصابع الديناميت وأشعلها . وسترى رشاقة

« الراتيرو » وهو يجرى .

— واذا لم يجر ؟

— كلب ومات •

كان « الخوستيتو » قد التقى منذ يومين فى الميدان بالسيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، فنادته على جانب :

— « خوستو » • أصحيح أنكم تريدون طرد « الراترو » من مغارته ؟

— هذا ما نريده • ستسقط فوقه ذات يوم وعندئذ يحدث مالا تحمد عقباه •

— أصلحها له ، هذا أسهل بكثير •

احمرت ناصية « الخوستيتو » :

— فى الحقيقة ، ليست هذه هى القضية ، يا سيدة « كلو » • الأمر يتعلق ، صراحة ، بالسياح ، تعرفين ؟ فلو جاء السياح هنا وشاهدوها ، فسيظنون أننا نعيش فى مغارات ، أليس كذلك ؟

— السياح ، السياح • • • دعهم يقولوا ما يشاءون ! ألا يمشون هنا وهناك كاشفين عن سيقانهم دون أن يقول لهم أحد شيئا ؟

واذا كان ما مضى لا يكفى ، فذات يوم أحاط « الخوسيه لويس » « الخوستيتو » علما باستحالة اخلاء مغارة « الراترو » عنوة • لقد اكتشف الخوسيه لويس ، بعد حديث طويل مع قاضى « توريشيوريجو » ، أن « الراترو » ، دون أن يدفع مليما واحدا ، يعتبر المالك الحقيقى للمغارة •

— المالك ؟ — سأل « الخوستيتو » متحيرا — • هل دفع لأحد فيها نصف بيزيطة ؟

رد « الخوسيه لويس » بثقة العالم ببواطن الأمور :  
- نقود ! القانون لا يأخذ في الاعتبار المال وحده . بل  
عامل الوقت أيضا .

- الوقت ؟

- نعم . لو وضعت يدك ذات يوم على شيء ما ، تصبح  
مالكاً له بمجرد مرور الوقت .

هذا كل ما في الأمر .

قطب « الخوستيتو » جبينه وخفقت ناصيته وكأنها شيء  
يتحرك :

- حتى لو كنت سارقاً لهذا الشيء ؟

- حتى لو كنت سارقاً له .

- لقد وقعنا ، اذن ، في حيص بيص - رد « الخوستيتو »  
حزيناً .

منذ مسألة المفارة ، بدأت « لاكلوميا » تنظر الى  
« النيني » بغضب وكأنه عدوها اللدود . وپرغم هذا ، يبدو  
أن الصبي كان يجهل شعورها نحوه ، ومن ثم فلم يدر بخلده  
أبداً أن يأتي يوم يتخذ فيه قراراً خطيراً مثل سكب صفيحة  
بنزين في بئر « الخوستيتو » ، لكن الرياح تأتي بمالا تشتهي  
السفن .

في « سان بيرناردينو » ، أرسلت « لاكلوميا » في طلب  
« النيني » ، كما هي العادة كل عام ، لعزل الدجاجة . حضر  
الصبي دون ابطام ، نتف صدر الديك المنصى ثم وضعه في  
الصندوق فوق الكتاكيت القلقة لتهديتها . كانت الدجاجة  
ترمقه ببلاهة وهو يفعل هذا من وراء قضبان القفص . وكأن  
الأمر لا يعنيها . وهكذا فبمجرد أن انتهى الصبي ، وبدلاً من  
أن تقدم له « لاكلوميا » الخبز والشيكولاته ، كالعادة ،

ظلت تنظر اليه بنفس بلاده الدجاجة . كانت « لأكولومبا » تقول أحيانا أن وجه « النيني » بارد مثل وجوه الموتى حتى في أشد أيام القيظ . و « المالبينو » من جانبه كان يوضح بأن هذا يحدث لكل من يفكرون كثيرا ، لأن المخ عندما يعمل تغلي الرأس ويبرد الوجه ، فالسعرات الحرارية موزعة بالقسطاس على جميع أعضاء الجسم وإذا تجمعت في عضو لزم خلو عضو آخر منها . وإذا حدث وكان « الراپينو جراندى » حاضرا ، فانه يعضد وجهه نظر صاحب الحانة ويتذكر الوجه البارد لـ « دون أوستاسيو دى لايدرا » عندما كان يتحسس الفقرتين الزائدتين لأبيه . لكن « النيني » الآن وأمام نظرة « لأكولومبا » المتبلدة لم يسعه لسانه الا عن :

— حسنا ، كل شيء جاهز .

عندئذ بدا وكأنها استيقظت من غفوتها ، وضعت يدها على كتف الصبي وقالت :

— « نيني » ، لماذا لا تتركون المغارة ؟

— لا . رد الصبي بجفاء .

— لا تريدون تركها أو لا يمكن معرفة السبب ؟

— الأمران معا .

— الأمران معا ، الأمران معا ! — جذبته من طوقه وعلت نغمة صوتها الحانق تدريجيا — : ذات يوم سيقرض الروماتيزم عظامك ، لأنك تعيش تحت الأرض ووقتها لن تستطيع فتح فمك ولا تحريك قدمك .

لم يهتز « النيني » ، ورد بثقة :

— الأرانب تعيش أيضا تحت الأرض ولا يأكل الروماتيزم عظامها .

فقدت « لأكولومبا » أعصابها . رفعت يدها وهوت بها على وجه الصبي لتترك عليه أثر لطمتين مهيبتين . وبعدهما

رفعت يديها الى خديها ، وكأنها المهانة ، وشرعت فى بكاء متشنج • فى نفس تلك الليلة مرق « النينى » صفيحة بنزين من جراج « دون أنتيرو » وأفرغها فى بئر « الخوستيتو » • فى الصباح ، شربت « لاكلومبا » ، كالعادة ، كوبا من الماء على الريق ، ثم تمطقت :

— هذا الماء له طعم — قالت •

— ( يا فتاح يا عليم ) — رد « الخوستيتو » :

— أقول لك ان الماء له طعم — أصرت « لاكلومبا » •

كانت أصابع « الخوستيتو » ترتعش بوضوح عندما قرب أنفه من الاناء :

— تعرفين أن معك حقا ؟ هذا الماء تفوح منه رائحة البنزين •

أشعل عود ثقاب فاضرمت النار فى السائل وعندها بدأ « الخوستيتو » فى ضرب صدره بقبضتيه والضحك ملء شديقه • بدا عليه الجنون عندما أخذ الدراجة وقال لامرأته بحركات منفعلة :

— الزمى الصمت ، أسمعين ؟ يوجد بترول هنا •  
سأبلغ الرئيس • هذا أكثر أهمية من موضوع المفارقات •  
لكن قبل أن يأتى الرئيس ، ولا كلمة ، أسمعت ؟

فى المساء حضر الرئيس فى عربته الصغيرة •

لم تكن الشمس قد اختفت بعد ولا يزال صوت الكروان الحاد يسمع من على سفح قمة « ميرينو » وصياح الجنادب المحموم بالقرب من سطح الأرض •

جرب « الخوستيتو » بيدى مرتعشتين ، وعندما شاهد الرئيس اشتعال الماء فى الاناء أحس بموجة باردة تجتاحه ، وتحدث أثرا عكسيا فى صلعته التى كانت تتصبب عرقا •

— حسنا ، حسنا • • — قال أخيرا في حركة عصبية متواطئة — • يجب احضار فنى للمعاينة يمكن ان يكون هذا اكتشافا عظيما • حتى أنا لا يمكننى التكهن بالنتائج • سأعود غدا • مزيد من الحيلة حتى أعود •

بعد أن هبط الليل ، تجمهر سكان القرية أمام بيت « الخوستيتو » • تحدث « روسالينو » ، الوكيل ، قائلاً بأن لديهم علماً بزيارة المحافظ التنكرية لأن « الأنتوليانو » و « الرايينو تشيكو » قد شاهدوا السيارة وبأن شيئاً مهماً لا بد وأن يكون قد حدث بالقرية • ومن ثم فيجب على « الخوستيتو » ، بصفته عمدتهم ، كشف النقاب عن الحقيقة •

بعد هذه الخطبة العصماء هبط من الروابي الصخب المحموم للجنادب وكأنه رائحة خانقة غمرت كل شيء ، تردد « الخوستيتو » ثم قال أخيراً :

— لا شيء ، لم يحدث شيء •

لكن السيدة « ليرادا » ، أم « لاساينا » ، زوجة « البرودن » ، زعقت بصوتها الجهورى :

— هيا ، « خوستو » ، لا تجعلنا نستعطفك •

وقالت « دومينكا » ، امرأة « الأنتوليانو » :

— هذا عيب كبير ، « خوستو » •

فالتفت إليها « خوستو » :

— ما العيب فى هذا ، يا « دومينكا » ؟

فقالت :

— أن تجعلنا نستعطفك •

عندئذ رفع « الخوستيتو » يده فى ايماءة مصالحة ثم قال : « حسنا » • وفى رصانة مفتعلة وصل الى البئر ، ملأ



سطلا صغيرا وأشعل فيه النار • تصاعدت ألسنة اللهب  
الحلزونية نحو السماء المظلمة فأخرج « الخوستيتو » من  
أعماق صدره صوتا مهيبا يليق بمنصب العمودية :

— أعزائي ! تعوم المنطقة من ربوة « دونالتيو » الى حلمة  
« توريثيو ريجو » على بحر من البترول • هذا ما اكده  
الرئيس • • غدا سنصبح أغنياء • لا أطلب منكم الآن سوى :  
الهدوء والتعقل •

وضعت صيحات الحماس ختاماً لكلماته • تعانق الرجال  
بحرارة وتبعثهم النساء ، طارت القبعات المتسخة في الهواء  
وتجرد « البرودن » من سترته الداكنة المتأكلة وظل يتب فوقها  
كالمجنون • من حين لآخر كان يبتعد عن السترة ويقول :  
« ضعى قدمك عليها ، يا « دومينيكا » • الثروة تحتها وعلينا  
الحافها » • وتوجه « المامس » ، الأخرس ، واللعب يسيل من  
فيه ، نحو العمدة وكأنه ذاهب لالقاء خطبة لكنه لم يزد عن :  
« خى » مصحوبة بزبد أصفر يتطاير من شذقيه • ثم عاد  
وكرر : « خى » • وعندئذ صاحت « لاساينا » كمن فقدت  
رشدتها : « لقد تكلم الأخرس ! لقد تكلم الأخرس ! » •

وعقبت السيدة « ليرادا » ، السوداء المتفضنة مثل حبة  
زبيب : « انها لمعجزة • لقد تكلم الأخرس » • وصاح  
« ألبرخيليو » ، الجالس فوق كتفى « المالبينو » : « الصوارينخ ،  
يا « فروتس ! » • وفى لمح البصر ، عاد « الفروتس » ،  
المحلف ، من مبنى البلدية وأخذت الصوارينخ تهتك أستار  
السماء بذيول مضيئة لتتمخض فى الأعلى عن انفجار قصير  
مكتوم • تقدمت السيدة « كلو » ناحية « لاساينا » متعثرة ،  
وهى تشق لنفسها طريقا بين الجموع ، لكنها عند رؤية  
« ألبرخيليو » على كتفى « المالبينو » صاحت فيه : « انزل •  
ستسقط على الأرض » •

سألت بعد ذلك « لاساينا » : « أصبح تكلم الأخرس؟ » •  
ردت « لاساينا » : « قال ( عفارم ) ، سمعه الجميع » •

وعندئذ أشارت السيدة « ريو » ، التى كانت تقف خلفها ،  
بعلامة الصليب على صدرها • لم يكن بعيدا عن هذه الجلبة  
سوى « الجوادالوبى » ورجاله الذين انتحوا ركننا قصيا  
مطأطئى الرؤوس • وأخيرا ، شق الخولى لنفسه طريقا ،  
بدفعات من يده ، حتى وقف فى مواجهة « الخوستيتو » •  
سأله بصوت مختم :

— ونحن يا « خوستو » ؟ ما الذى سنجنيه من وراء هذا ؟

تهلل وجه العمدة :

— سيكون لكم نصيب ، بالطبع • البترول هنا يكفى  
الجميع • ستحضرون نساءكم وأولادكم وتعيشون معنا •  
فى تلك الليلة لم ينم أحد فى القرية ، وفى الصباح ، بمجرد  
أن حضر السيد المحافظ ومعه رجلان ملغزان متجهمان فى  
السيارة الكبيرة ، طوقته الجموع الهائجة التى يغالبها النعاس •  
لكن « الخوستيتو » عندما أشعل عود الثقاب وقربه من السائل  
فانطلقا العود ، سرت حوله همهمة بفقدان الأمل وخيبة  
الرجاء • أصبح وجه « الخوستيتو » شاحبا ، لكنه أعاد الكرة  
ثلاث مرات متتالية دون نتيجة ، الى أن دعاه المحافظ ، أخيرا ،  
الى دخول البيت بصحبة الخبيرين ، وعندما خرجوا أحاطت  
بهم الجموع مترقبة ، فتسلق المحافظ ، الذى كان يتوارى  
خلفه « الخوستيتو » ، حافة البئر وقال بصوت مختم :

— أيها الفلاحون : لقد كنتم هدفا لدعابة سخيفة •  
لا يوجد بترول هنا • لكن لا يجب أن يفار هذا من عزيمتكم ،  
فالبترول عندكم فى أرضكم المحروثة الخصبة وفى أسنة  
محاريثكم • استمروا فى العمل ، وبمجهودكم سترقى حياتكم  
وستساهمون فى عظمة وطنكم • فلينهض الريف ويتقدم !

لم يصفق أحد • عندما هبط المحافظ من على حافة البئر  
أخرج منديلا أبيض ومسح به صلعته اللامعة ، ربت على كتف  
« الخوستيتو » وهمهم : « آسف » • ثم رفع صوته وقال :

« حقا ، اننى لفى غاية الأسف » • اتجه بعد ذلك الى الرجلين  
المهيبيين الملفزين وأشار الى السيارة : « تفضلا » • فتح لهم  
السائق ، بجلته الرسمية ، الباب واختفت العربة الكبيرة فى  
الطريق وخلفها سحابة من التراب •

عندما تجاوز العم « راتيرو » نهاية الظل اطبق جفنيه من شعاع الشمس الوليدة • يبدو وهو داخل المغارة ، وفى مقابلة الضوء ، أكثر قصرا وضخامة من حجمه الحقيقى ، كما أن وقوفه بلا حراك وعليه قبعته التى تصل الى الاذنين جعله أشبه بتمثال • كانت ذراعاها متهدلتين على طول جسمه ، حيث تصل يداها وأصابعه المتساوية ، وكأنها سويت بمقصلة ، الى ركبتيه • بعد بضع ثوان ، فتح الرجل عينيه وألقى بنظرة على حقول الغلال المضربة بشقائق النعمان • يتحول صوت الجنادب فى مثل هذه الساعة الى ايقاع قوى وكأنه طاقة كهربائية تسرى فى الأسلاك لأول مرة • ارتفعت عينا « الراتيرو » شيئا فشيئا حتى وقعتا على القمم العالية التى تشبه قواعد السفن المعرضة لضوء الشمس ، ثم انزلقتا ، أخيرا ، على السفوح الجرداء وتوقفتا على قنطرة الألواح الخشبية التى تربط المغارة بالقرية :

- حانت ساعة الهبوط - قال بهمة لا تكاد تسمع •

تقدم « النينى » اليه ، يتبعه الكلبان ، ووقف الى جواره • مازال على عينيه أثر النوم ، لكنه داعب بابهام قدمه اليمنى فى حركة آلية شعر الكلبة العوراء التى كانت تقبع الى جواره راضية ، بينما كان « لوى » ، الكلب الصغير ، يجرى كالمثلاث حوله •

- بهذه الطريقة سنقضى على الصغار فى الأعشاش وسيزداد الأمر سوءا - نبه الصبى • نفض الرجل على التوالى فتحتى أنفه من المخاط ثم مرر عليهما ظهر يده ، وقال :

— لابد وأن نقتات بشيء •

منذ أن بدأت الجرذان تتناقص ازداد صمت العم  
« راتيرو » • كانت قبعته المتسخة التي تصل الى اذنيه تعدد  
شكل جمجمته وكثيرا ما تساءل الصبي عما يختمر بداخلها •  
فى مثل هذا التاريخ منذ أعوام كان « الراتيرو » يدخر بما  
فيه الكفاية لانقاذ فصل الصيف ، لكن الموسم الأخير كان  
سيئا والآن ، اقترب موعد الخطر ، والجوع ينتصب أمامهما  
كشبح أسود •

— فى « سان بيتو » يتم التصريح بصيد سرطان الماء •  
ربما يكون هذا العام كثير الخيرات — الح الصبى •

أرسل « الراتيرو » زفرة عميقة ولم يقل شيئا • ارتفعت  
حدقتاه من جديد وتسمرت على القمم الرمادية التي تغطى  
الأفق • أضاف « النينى » :

— فى الصيف نصعد الى الجبل لقطع لحاء أشجار البلوط،  
التي يشتريها « المارثيلينو » ، الدباغ ، بثمان لا بأس به •  
من الأفضل الانتظار •

لم يرد « الراتيرو » • صفر تصفيرة خافتة فلبى الكلب  
الصغير النداء • حينئذ جلس « الراتيرو » القرفصاء وقال  
مبتسما : « انه يرى جيدا » ، ثم شرع فى مداعبته فهمهم  
الكلب بغضب مصطنع وأخذ يلثم يديه الخشنتين •

كانت أيام الفراغ طويلة ، وتعود « الراتيرو » أن يشغلها  
بتنظيف المغارة أو بتدريب الكلب الصغير بالقرب من النهر  
أو بتبادل أطراف الحديث ، عند مغيب الشمس ، على  
مصطبة « الأنتوليانو » أو فى حانة « المالينو » • فى بعض  
الليالى ، وقبل أن ينصرفوا الى بيوتهم ، كانوا يذهبون الى  
الاصطبل لرؤية « الرايينو تشيكو » وهو يحلب البهائم •  
كانوا يقولون له : « لا تتحدث اليوم اليها » ، وبعد أن ينتهى

يذكرون أنفسهم قائلين : « اليوم لم تدر الكثير من اللين » .  
وفى اليوم التالى ينبهونه : « تحدث مع البقرة عند حلابتها ،  
ياتشيكو » . وعندئذ يشرع « الرايينو تشيكو » فى مونولوج  
عذب فتزيد الكمية سطلا عن البارحة فيتغامزون مؤندين على  
صدق نظريته : « رأيتم هذا ؟ شىء لا يصدق العقل » . فى  
بعض الأحيان ، كان الحديث ينصب على فتى «توريثيو ريجو»  
الذى يصيد الجرذان ، أثناء تدخينهم بكسل فى الاصطبل أو  
على مصطبة « الأنتوليانو » ، فيقول الأخير : « نفضه ،  
يا « راتيرو » . ما فائدة يدك اذن ؟ » . عندئذ يرتجف العم  
« راتيرو » قليلا ويتمتم : « دع عينى تقع عليه » . فيضيف  
« الروسالينو » : « لو كان ابن أمى ما تركته » . واذا كانت  
المسامرة على الحانة ، يتجه « المالبينو » الى « الراتيرو »  
قائلا له :

— « راتيرو » ، لو دخل فقير دار غنى فهو لص ، أليس  
كذلك ؟

— بلى ، لص — يرد « الراتيرو » موافقا .

— لكن لو دخل غنى دار فقير ، فماذا يكون ؟

— ماذا يكون ؟ — ردد « الراتيرو » فى بلاهة .

— يكون جرذة !

أنكر « الراتيرو » بايماءة من رأسه .

— لا — رد أخيرا — . الجرذان ليست سيئة .

وعندئذ أوضح « المالبينو » :

— أردت أن أقول : ان المال ليس وحده الذى يسرق .

فتتذكر عينا « الراتيرو » كل مرة أكثر من سابقتها  
ويقول :

— كلامك فى محله .

اختتم عيد نهاية موسم الصيد فى « سانتا ايلينا »  
و « سان كاستو » ختاماً بأثسا وحزينا • أخرج : «الراتيرو »  
من الخرج جرذة بعد أخرى حتى وصل المجموع الى خمس :

— لا يوجد أكثر من هذا •

أطلق « البرودن » ضحكة كريهة :

— لهذه الرحلة لم تكن تحتاج الى خرج •

أدار « الراتيرو » نظرتة الغائمة حوله ثم عاد ليردد :

— الآن لا توجد فئران • انه يسرقها منى •

تقدم « المالبينو » نحوه وقال غاضبا :

— فلتحمد الله على ما أنت فيه ، لأنه بعد عام لن تبقى

لك واحدة حتى تقوم بعدها •

تقلصت عضلات ساعدى « الراتيرو » عندما شبك

أصابعه وقال بصوت مبحوح :

— لو أمسكت به ، لقتلته •

فى مثل تلك الحالات ، كان « النينى » يحاول تهدئته :

— اذا لم يكن فيه جرذان ، فسنجد سرطان الماء ، لا تشغل

بالك •

فلا يرد « الراتيرو » ، ومع هبوط الليل يصعد الى

المغارة ويشعل القنديل ثم يجلس صامتا بالقرب من الباب •

كانت الجنادب تصرخ بأعلى صوتها تحت ، فوق المزروعات ،

ويدور الذباب والفراشات المسائية فى دوائر مركزية حول

آلسنة الضوء ، من حين لآخر ، كانت تمر فوق رأسيهما

ومضة مثل صرير الخشب الجاف ، فيرفع الصبى عينيه

ويتجشأ الكلبان :

— انه الوطواط — يشرح « النينى » •

لكن « الراتيرو » لم يكن يسمعه • وفى اليوم التالى ،  
يجهد الصبى نفسه ، مثل كل صباح ، لايجاد مخرج • يترك  
المفارة عند الفجر ويمضى النهار فى صيد العصيات (١) ،  
وجمع البابونج (٢) ، أو قطف الزهور الصفراء التى تأكلها  
الأرانب •

فى بعض الأيام كان يصل الى قمم الجبال الاكثر وعورة  
بالمنطقة لجمع اللوز البرى • لكن هذا كله لم يكن يدر الا  
القليل • العصيات ، بالرغم من لحمها اللذيذ ، لم تكن تكفى  
طعامها الا بالكاد ، أما البابونج فقد كان يشتريه صيدلى  
« توريثيوريجو » ، « دون كريستينو » ، الكيلو بثلاث  
بيزيتات • أما الزهور الصفراء فقد كانت تشتريها السيدة  
« كلو » أو « البرودن » أو « الأنتوليانو » الحزمة بربع بيزيطة  
حتى لا يرجعوه مكسور الخاطر • حاول « النينى » ، مرة ،  
زيادة عدد زبائنه ، لكن أهل القرية أظهروا شحهم •

— الحزمة بربع بيزيطة ؟ لكن ، يابنى ، هذه الزهرات  
تغص بها المنحدرات !

ذات مساء ، فى اليوم السابق لـ « سان ريسيتوتو » ،  
قابل « النينى » من جديد فتى « توريثيوريجو » بالقرب من  
النهر • حاول « النينى » تفاديه لكن الفتى اقترب منه  
مبتسما بينما كان يداعب راحة يده بظهر السيخ الحديدى •  
كانت « لافا » تتشم ذيل كلب الفتى بين البوص • سأل  
الفتى :

— ما اسمك ، أيها الغلام ؟

— « نينى » •

— « نينى » فقط ؟

— نعم ، وأنت ؟

— « لويس » •

---

(١) العصيات : نوع من الزواحف - ( المترجم ) •

(٢) البابونج : نوع من الاعشاب الطبية - ( المترجم ) •



– « لويس » ؟ ياله من اسم غريب !  
– هل « لويس » اسم غريب ؟  
– فى قرىتى لا يسمى أحد بهذا الاسم .  
ضحك الفتى فلمعت أسنانه البيضاء فى وجهه الأسمر :  
– ألا تكون أسماء من هم بقريتك هى الغريبة ؟

هز « النينى » كتفيه ثم جلس فى المنحدر . اقترب الفتى  
من النهر حيث يقتفى كلبه الآثار بين الشجيرات وقال بلهجة  
روتينية :

– هيا ، هيا .

عاد بعد ذلك الى الصبى وجلس الى جواره ، أخرج علبة  
التبغ وورق البفرة ثم أعد سيجارة . عندما أشعلها بشرارات  
من قداحته نظر اليه فبدت عيناه ، تحت ضوء الشمس ،  
ثملتين مثل عيون القطط . قال له « النينى » :

– يجب أن تطلع الآن عن الصيد .  
– لماذا ؟

– لأنك بتعطيم أعشاش الصغار ستستأصل شأفة  
الفئران .

رفع الفتى السيخ الحديدى واحتفظ بتوازنه عدة ثوان  
فوق اصبعه السبابة دون أن يمسك به . ثم سحب يده بسرعة  
وأمسكه فى الهواء كمن يمسك بذبابة . ضحك :

– حتى لو كان الأمر كما تقول ، فمن يهتم أمرها ؟

كانت الشمس تتوارى خلف القمم العالية بينما يتعالى  
صراخ الجنادب حولهما . وعلى فترات متقطعة يسمع بين  
نباتات الأسل صوت الحجلان التى تتلاقح .

– ألا تحب الصيد ؟

– انه مجرد وسيلة لقضاء أوقات الفراغ . لكن يعجبني  
أكثر الخروج الى الحقل بصحبة فتاة . ومع غروب الشمس

يعود « النيني » من جولته ليجتمع بالعم « راتيرو » على مصطبة « الأنتوليانو » ، أو فى اصطبلات « دون أنتيرو » أو فى حانة « المالبينو » .

وفى أى من تلك الأماكن ، لا يتغير سلوك « الراتيرو » : أخرس ، النظرة آبهة ، ساعده مستريحان على فخذه ، بلا حراك ، وكأنهما يترقبان . فى حالة انعقاد المسامرة فى الاصطبل ، كان « الراتيرو » يراقب ، وهو مضطجع فى مذود ، « الرايينكو تشيكو » وعندما ينتهى الأخير من الحلاية يحرك رأسه فى ايماءة تأكيد مبهمة ثم يتمتم :

« شىء لا يصدق العقل » . وعندئذ يكزه بكوعه من يكون الى جواره سواء كان « البرودن » أو « البرخيليو » أو « الرايينو جراندى » أو « الأنتوليانو » ثم يسأله : « ما رأيك ، يا « راتيرو ؟ » . فيعود لتكرار : « شىء لا يصدق العقل » .

فى « سانتا بترونيلا » استدعت الوصية الحادية عشرة العم « راتيرو » من جديد :

— هل فكرت فيما عرضته عليك ؟ — سألته بمجرد رؤيته .

— « النيني » يخصنى — رد « الراتيرو » متجهما .

— اسمع — أضافت الوصية الحادية عشرة — . لا أريد حرمانك من « النيني » بل أريد أن أجعل منه رجلا . تقصد « دونياريسو » فقط تأمين مستقبل الصبى ، لكى يصبح فى الغد سيدا يمتلك المال الوفير ليشتري سيارة يحملك فيها الى كل أنحاء القرية . ألا تحب أن تتركب سيارة تطوف بك كل ركن فى القرية ؟

— لا — رد العم « راتيرو » بجفاء .

— حسنا . لكن يعجبك ترك المغارة ذات يوم وبناء بيت لك به شرفة وبار خاص على ربوة « دوناشيو » ، أليس كذلك ؟

— لا — رد « الراتيرو » — . المغارة تخصنى .

رفعت « دونياريسو » يديها الى رأسها وأمسكت بها كما لو كانت تخاف عليها من الطيران .

— حسنا . يبدو أن الشيء الوحيد الذى يعجبك هو حرق دمي . لكن قبل هذا يجب أن تعرف أنه بقليل من الاهتمام يمكن أن يتعلم « النينى » الكثير ، أشياء كثيرة مثل التى يعرفها مهندس . أفهمت ؟

هرش « الراتيرو » ما تحت القبة بخشونة وسأل :  
— وهل يعرف المهندسون ؟

— يا له من سؤال ! أية معضلة تعرضها على مهندس يحلها لك فى دقائق معدودات .

أمسك « الراتيرو » عن الهرش ورفع رأسه فجأة :  
— وأشجار الصنوبر ؟

— أشجار الصنوبر ؟ اسمع ، يا « راتيرو » ، لا يستطيع أى انسان مهما أوتى من ذكاء أن يخالف ارادة الرب . وقد قضى الرب بأن تظل قمم قشتالة وروابيها جرداء ، ولن تغنى مجهودات كل الرجال عن هذا القضاء شيئا . أفهمت ؟

لم يعترض « الراتيرو » ، فتشجعت « دونياريسو » وألانت صوتها كى تواصل الحديث :

— غلامك ذكى ، لكنه مثل حقل بلا زراعة . يمكن أن يذهب الى مدرسة « توريثيو ريجو » وبعد ذلك نتعاون فى اكمال تعليمه . ما عليك الا أن ترد على بنعم أو بلا . اذا قلت نعم ، سأخذ الصبى . . .

— « النينى » يخصنى — قاطعها « الراتيرو » غاضبا .

— حسنا . احتفظ به لنفسك . أرجو ألا تندم غدا على فعلتك هذه .

مع الغروب ، عندما اضيئت الأنوار الأولى فى القرية وعادت طيور الخطاف، التى كانت تصيح هائجة ، الى اوكارها على افريز برج الأجراس ، وصلت « دونياريسو » الى مبنى البلدية :

— هؤلاء الناس — قالت للعمدة وهى عكرة المزاج — يمكن أن يقتلوا للدفاع عن لقمة العيش ، واذا قدمت لهم فرصة على طبق من ذهب يقتلونك كمدا لعدم قبولهم لها ، أتفهم ما أعنى ، يا « خوستو » ؟

ضرب « الخوستيتو » ، العمدة ، جبهته ثلاث مرات باصبعه ثم قال :

— ينقص « الراتيرو » ما يوجد هنا (٣) . اذا كان لم ينهق فلأنهم لم يعلموه النهيق .

تدخل « الخوسيه لويس » :

— ولماذا لا نعقد له اختبارا ؟

— اختبار ؟ — سألت « دونياريسو » .

— نعم . هذه الأشياء التى يستفسر عنها . واذا جاء الطبيب ورأى أنه مجنون أو متخلف عقليا يودعه المستشفى (ويا دار ما دخلك شر) .

أضأ وجه « الخوستيتو » ثم سأل :

— مثل « الأجابيتو » ؟

— بالضبط .

منذ شهرين ، صدم « الأجابيتو » بدراجته عند عودته من « توريثيوريجو » طفلا صغيرا وللفتوى بمدى مسئوليته عن الحادث أخضعه الأطباء فى العاصمة لاختبار ، وتوصلوا بعده الى أن درجة ذكائه لا تتعدى ما لصبى فى الثامنة من

---

(٣) العقل هو المقصود بتلك العبارة — ( المترجم ) .

العمر • لقد تسلى « الأجاييتو » كثيرا بالاختبار ومن يومها أصبح طليق اللسان وفي الحانة ، كان يكرر الاسئلة التي وجهت اليه وكأنها تعويذة • « أعمل لك اختبارا » ، كان يقول • وفي مرات أخرى كان يشيد بتصرفه ونباهته : « سألنى الطبيب : اذا كانت العربية الأخيرة فى حوادث القطارات هى التى يحدث بها أكبر عدد من الاصابات ، فماذا تفعل لتفادى هذا ؟ » • فأجبتة : « اذا كانت المسألة لا تزيد عن هذا ، يا دكتور ، فالحل فى منتهى البساطة : لا نضع هذه العربية فى مؤخرة القطار • يظن أهل العاصمة أن سكان القرى أغبياء أو سذج » •

— لو يصرح الرئيس بهذا، فسيكون الاختبار هو الحل —  
قال « الخوستيتو » •  
أنزلت « دونياريسو » عينيها :

— اذا لجأنا لهذا الاجراء فسيكون أولا وأخيرا لصالحه •  
ادراك « الراتيرو » كادراك طفل ولق تقيده معاملتنا له  
كرجل •

فى عيد الفصح ، كاد أن يقع بالقرية حادث مروع .  
قبل أن يبدأ الاحتفال بقليل اصطدمت مدقة جرس الكنيسة  
بقفا « الأنتوليانو » فانزلق « الماميريتو » ، صبى « البرودن » ،  
من على البرج والجبل ملفوف حول وسطه . لحسن الحظ ،  
استعاد « الأنتوليانو » توازنه فى الوقت المناسب ، داس على  
الجبل فبقى « الماميريتو » متأرجحا فى الهواء ، بحلته  
الساوية التى تكورت تحت ابطيه ، بينما تهشم جناحاه  
الأبيضان المصنوعان من البلاستيك بفعل السقطة القوية .

كان « النينى » يرقب الحادث من الميدان فزعا ، لأنه من  
عامين فقط كان يقوم بدور « الماميريتو » ، لكن « ماتياس  
ثليمين » ، المختلس ، أطلق ضحكة خلف ظهره وقال :

« يبدو الصعلوك وكأنه حبارى صغيرة مقصوفة  
الأجنحة » . لكن الأمور لم تصل لأبعد من ذلك وأمرت  
« دونياريسو » « الأنتوليانو » برفع الصبى ثانية ، لأن  
الاحتفال لا يمكن أن يبدأ فى غياب رجال « اكستريمادورا » .

قبلت « دونياريسو » ، الوصية الحادية عشرة ، شروط  
« الجوادالوبي » على مضض ، لكن خيبة الأمل التى تملكته  
رجال القرية بسبب موضوع البترول لم تكن قد تلاشت  
بالكامل وعلى حد قول « الروسالينو » : « ليس لأحد منا مزاج  
هذا العام للقيام بدور المهرج » .

استطاعت « دونياريسو » بعد الكثير من المساعى تجنيد  
سنة رجال فقط للمشراكة فى دور الحواريين ، أما

« الجواد الويبي » ، الخولى ، فقد أظهر تشدده فى هذا الموضوع :

— اما أن يشترك الجميع أو لا يشترك أحد ،  
يا « دونياريسو » ، ها قد عرفت .

وقبل اشارة البدء فى احتفالات عيد الفصح ، سمحت  
« دونياريسو » لرجال « اكستريمادورا » الاثنى عشر بلبس  
حلل الحواريين المرقعة .

فوق الميدان المغطى بالغبار تحلق شمس مترعه ولزجه ،  
وبعيد جدا ، هناك حيث لا يصل حفيف الزحام ، كانت تطير  
متكاسلة ثلاثة صقور سوداء . لم يكن « النينى » يعرف المكان  
الذى تسكن فيه ومع هذا فقد كان وجود جثة قط أو أرنب  
كافيا جدا لاغارة تلك الطيور عليها من فوق الروابي . تحت  
الصقور الثلاثة ، كانت تحلق طيور الخطاف فى موجات  
متشنجة بالقرب من فتحات البرج ، وتحدث تحركاتها صريحا  
يصم الأذان .

ظهر أخيرا ، من خلف الكنيسة ، رجال « اكستريمادورا »  
راهم « النينى » وهم يقتربون بخطى وثيدة ، وتطل من تحت  
حللهم المتعددة الألوان سراويل من القطيفة الخشنة وأحذية  
يعلوها التراب . كان شعر ( الباروكات ) ، التى وضعت  
بغير عناية ، يتساب على أكتافهم ، وبرغم هذا ، لم تغل  
المجموعة من جمال الطلعة التى تزيد منها خلفية البيوت  
الطينية وأسوار الحظائر التى تشبه جفان الكرم . أفسح  
لهم أهل القرية الشارع فاصطف فيه رجال « اكستريمادورا »  
صامتين برؤوس منحنية ، وعندما وصلوا الى سلم الكنيسة ،  
انتشروا بين الجموع وبدءوا فى فتح الأبواب ، والقفز من  
على الأسوار ، ورفع الأحجار ، فى بحث محموم ، حتى أعطت  
« دونياريسو » ، التى كانت ترتدى الحلة الزرقاء وطرحة  
العذراء البيضاء ، الاشارة لـ « الأنتوليانو » فأخذ

« المامير تيتو » يهبط ببطء من اعلى البرج ، وهو يتأرجح بين  
الجموع ، بجناحيه المهشمين .

عند رؤية الملاك ، سجدت العذراء والحواريون وباقي  
الأهالى تملؤهم الرهبة ، وساد صمت كثيف الى ان ارتفع صوت  
« المامير تيتو » فوق صراخ طيور الخطاف المحموم :

— لا تبحثوا عنه . لقد بعث المسيح من جديد .

ظل « المامير تيتو » يتأرجح فوق الميدان للحظات ، وبينما  
كانت الجموع ترسم على صدورها الصليب سحب «الانتويانو»  
الحبل شيئا فشيئا . وبمجرد اختفاء الملاك فى شجوة البرج  
نهضت « دونيا ريسو » متناقلة وقالت :

— نحمدك أيها المسيح ونباركك .

فصاحت جموع الأتقياء :

— يا من افتديت العالم بصليبك المقدس .

دخلوا الكنيسة بعد ذلك وسجدوا ، بينما أطلق  
« الفروتس » ، من المكان العلوى المخصص لانشاد الكورال ،  
حمامة من برج حمائم « الخوستيتو » . طارت الحمامة ،  
مشوشة ، لعدة دقائق فوق الجموع ثم هبطت مذهولة فوق  
كتف « لاسيميونا » الأيمن . التفتت حينئذ الوصية الحادية  
عشرة من على درجات المذبح الى الجموع ونادت على  
« لاسيميونا » بصوت كصليل الأجراس :

— لقد اختارك الروح المقدس ، يا ابنتى .

حركت « لاسيميونا » كتفها خلسة ، محاولة ( هش )  
الحمامة ، لكنها استسلمت بعد أن باءت محاولتها بالفشل  
وبدأت تبلع ريقها محدثة ضوضاء غريبة ، كما لو كانت  
ستختنق ، وأخيرا اقتادتها «دونياريسو» الى المنصة ، وعندئذ  
اصطف أهالى القرية أمامها وأخذ بعضهم فى تقبيل يدها ،  
وانحنى آخرون بينما أوما من هم أكثر خجلا بأيديهم على



وجوههم التى لوحتها الشمس بما يشبه الصليب . بعد أن انتهت مراسم التكريم، تحرك الموكب، الذى تسير فى مقدمته العذراء ثم الملاك ثم « لاسيميونا » وبعدها الحواريون ، وطاف شوارع القرية ، بخطوات موقعة على نغمات القيثارة والطبلة ، بينما كان الليل يهبط بوداعة على القمم العالية .

عند شروع الركب فى التحرك ، جرى « النينى » الى العجوز الذى تحول الى كومة من العظام .

— عم « روفو » — نادى لاهثا — ، الحمامة هبطت الليلة على كتف « لاسيميونا » .

تنهد العجوز ، رفع اصبعه بصعوبة ناحية السقف وقال :  
— الصقور تحوم فى الأعلى . أحسست بهم هذا الصباح .  
— لقد رأيتهم — رد الصبنى — . كانوا ثلاثة يحومون حول برج الكنيسة ، يبحثون عن كلبة المختلس الميتة .  
أنكر العجوز بحركة من رأسه . وأخيرا قال ، بصعوبة بالغة ، مشيرا الى كتفه اليسرى :  
— انهم قادمون للهبوط هنا .

وبالفعل ، مات العجوز مساء اليوم التالى ، فى « سان فرانثيسكو كراكثيولا » . حملت « لاسيميونا » الجثة الى الدهليز ، ووضعتها فوق جوال من الخيش ، ثم نزعَت القماشة السوداء من على الوجه فلمعت عظامه تحت ضوء الشموع .  
تجمع أهالى القرية حولها صامتين فى ملابس الحداد وبسجرد أن دخل « النينى » قالت له « لاسيميونا » :

— هذا هو العجوز . أخيرا استراح كلانا .

لكن العم « روفو » ، بعينه الوحيدة وفمه المفتوحين ، لم يكن يبدو مستريحا ، ولم تكن تبدو « لاسيميونا » مستريحة أيضا ، فقد كانت تبلع ريقها دون توقف ، بضوضاء مكتومة ، مثل اليوم السابق عندما هبطت الحمامة فوق كتفها .

ومع وصول أى قادم جديد كانت تكرر نفس العبارة وعندما بدأت الذبابة الكبيرة تطير فوق المجتمعين ، بعد مكوثها عشر دقائق كاملة فوق وجه العجوز ، حاول كل منهم ابتعادها عنه بحركات منفعة ما عدا «النينى» و «لاسيميوننا» -

عادت الذبابة الى الجثة الهامدة ، لكنها كل مرة تسنانف فيها الطيران، يلوح الرجال والنساء الهواء خفية لكى لا تحط عليهم ، وبهذه الطريقة كان يحدث صفير خافت مثل صفير ريش المروحة - بعد نصف ساعة أحضر «الانتوليانو» تابوتا من خشب الصنوبر مازالت تفوح منه رائحة الراتينج، طلبت «لاسيميوننا» من الحضور مد يد العون ، ونظرا لتباطؤ الجميع ، تعاونت هى و «النينى» و «الانتوليانو» فى غلقه ، وبما أن «الانتوليانو» كان قد أخذ المقاسات مضبوطة لكى يوفر من الخشب ، بقيت رأس العم « روفو » محشورة بين كتفيه وكان عنقه قد دقت أو كان ساكنه يريد التعبير عن عدم اهتمامه بكل ما ينتسب لهذا العالم -

قبل الغروب وصل « دون ثيرو » ، القسيس ، وبصحبه « الماميرتيتو » ، قام برش الجثة بقطرات من الماء المقدس ثم انحنى الى جوار قدمى الميت وقال مكروبا :

- نضرع اليك ، يا ربنا ، ونتوسل بأن تنزل السكينة وتنعم بالجنة على روح عبدك « روفو » التى أمرتها بمغادرة دنيانا - بحق سيدنا المسيح - -

- آمين - قال « الماميرتيتو » -

وفى تلك اللحظة طارت الذبابة من على الجثة لتحط على طرف أنف « دون ثيرو » ، لكن « دون ثيرو » ، الذى كانت عيناه على الأرض ويداه معقوفتان بوداعة فوق عبايته ، بدا وكأنه فى حالة وجد ومن ثم فلم ينتبه لوجود الذبابة - عندئذ وكزه رفيقه وتمتم : « السرطان سيقرض أنفك » ، لكن « دون ثيرو » استمر فى صلواته رابط الجأش ، الى أن عطس

بشدة ، دون مقدمات ، ففزعت الذبابة وحطت من جديد على  
الجثة •

بعد انتهاء الصلوات ، تقدمت السيدة « كلو » وهى  
تحمل كتابا متأكلا فقالت « لاسيميونا » :

— انه كتاب العجوز •

كان مكتوبا على صفحته الأولى : « عطات من معجزات  
السيد المسيح ومريم البتول • بقلم خواكين أنطونيو دى  
ايجيليتا ، الحاصل على ليسانس العلوم الشرعية والأسقف  
الأعظم لكنيسة سان اجناثيو دى ليولا • الجزء الثالث •  
مدير • حقوق النشر محفوظة » •

رفعت « لاسيميونا » رأسها وكررت :

— انه كتاب العجوز •

— نعم — ردت السيدة « كلو » •

ثم فتحت الكتاب من منتصفه فظهرت ورقة مطوية تحتوى  
على ورقة مالية فئة الخمس بيزتيات على الورقة المطوية توجد  
كتابة ركيكة تقول : مدخرات لشراء طاقم أسنان • بين  
الصفحتين التاليتين توجد ورقة مالية أخرى من نفس الفئة ،  
وبين الصفحتين التاليتين أيضا ، وهكذا حتى الورقة الخامسة  
والعشرين • بللت السيدة « كلو » طرف اصبعها الابهام  
بريقها ، ثم عدت النقود بحنكة ، ورقة ورقة ، ثم سلمتها  
لابنة العجوز وهى تقول :

— خذى يا ابنتى ، انها لك • طاقم الأسنان لم يعد

ينفقه •

فى اليوم التالى ، عندما حمل الفتيان النعش ، لم يكن  
للقرية من حديث سوى السر الذى أعلنته السيدة « كلو » ، لكن  
الدهشة بحيازة العجوز لكتاب فاقت حادث العشور على  
الأوراق المالية •

كان « المالبينو » يقول بكثير من الارتياح : « وبعد هذا  
نتساءل عما اذا كان المعجوز يعرف أو لا يعرف . ومن هذا  
الذى لا يعرف وتحت يده كتاب ؟ » .

فى الطريق الى الكنيسة توقف الفتيان ثلاث مرات  
بالنعش ، وفى كل مرة كان « دون ثيرو » يصلى الصلوات  
المناسبة ، بينما كانت « لاسيميونا » تنتظر بفارغ الصبر على  
العربة الكارو ، ومعها « النينى » و « الدوكى » ، الكلب ،  
الذى كان مربوطا الى مؤخرة العربة بحبل مثل حبل المشنقة ،  
ويعوى بحرقة . بعد أن وصلوا الى الكنيسة ، وبمجرد أن  
وضع الرجال التابوت على العربة ، استحثت « لاسيميونا »  
الحمار فجرى بأقصى سرعة أمام دهشة الجميع .

كان شعر « لاسيميونا » أشعث ، ونظرتها لامعة وفكها  
متشجنين ، لم تحرك شفتيها الا عند الوصول الى الربوة .  
اتجهت الى « النينى » قائلة :

— وأنت ماذا تصنع هنا ، تكلم ؟

ألقي عليها « النينى » نظرة رصينة :

— ما جئت الا لوداع المعجوز .

وفى المقابر ، تعاون الاثنان فى جر التابوت الى الحفرة  
وبدأت الفتاة فى اهالة التراب عليه بهمة ونشاط . كانت  
عينها تزدادان امتلاء بالدموع كلما صدرت عن التابوت رنة  
فارغة من جلاء اهالة التراب عليه ، الى أن واجهها « النينى » :  
— « سيميونا » ، ماذا دهاك ؟

مسحت جبهتها بظهر يدها . ثم ردت غاضبة :

— ألا ترى سحابة التراب التى أثيرها بالمجرفة ؟

عندما وصلا الى سور المقابر ، بدأ « لوى » فى شم ذيل « الدوكى » بينما كان يطبق سكون لا يوصف على القمم العالية . أشارت « لاسيميونا » الى « اللوى » بالمجرفة :

— لا يعرف أنه أبوه ، رأيت !

فى طريق العودة حافظ الحمار على ايقاع نشط سرعان ما أصبح أكثر حيوية عند هبوط الربوة . لكن « لاسيميونا » سارت بالعربة فى طريق قمة « دونالثيو » ودخلت القرية من ناحية الكنيسة بدلا من الناحية المعتادة : طريق مخازن « دون أنتيرو » . سألتها « النيني » :

— ألى تذهبى الى البيت ؟

— لا . ردت عليه .

أوقفت العربة أمام بيت الوصية الحادية عشرة ، ترجلت وقرعت الباب بشدة مرتين عندما فتحت « دونيا ريسو » كان وجهها أشبه بوجه مريض يشكو ألم المعدة :

— يا امرأة — قالت — ، تأمرنا الوصية الحادية عشرة بعدم أحداث ضجيج .

انتظر « النيني » أن ترد « لاسيميونا » ردا جافا ، لكن الفتاة أثارت دهشته عندما جثت على ركبتها وقالت فيما يشبه الهمس :

— معذرة ، « دونيا ريسو » ، يمكن أن تأتى معى للكنيسة ، لو سمحت . أريد أن أهب نفسى لله .

رسمت الوصية الحادية عشرة على صدرها الصليب ثم ابتعدت عن الباب وقالت :

— حمدا لله . ادخلى ، يا ابنتى . لقد دعاك الله لحماه .

فى « نويسترا سنيورا دى لالوث » ظهرت بعض الحشائش  
الضارة فى المرج فأسرع « النينى » ليبلغ « الرايينوجراندى »  
حتى يبعد الأغنام عنها ، فقد كان يعرف من المعجوز أن النعجة  
التي تأكل من هذه الحشائش هالكة لا محالة .

فى نفس ذلك اليوم أخير « البرودن » الصبى بأن  
المناجد (١) تكثر فى بستانه وتعوق نمو السلق والبطاطس .  
عند الغروب هبط « النينى » الى شاطئ النهر وقام خلال  
ساعة بشق أنفاق صغيرة فى الأرض . تعلم « النينى » من  
جده « رومان » أن الأنفاق الصغيرة عندما يدخلها الهواء  
تصاب المناجد بالبرد فتترك أوكارها عند الفجر . كان  
« النينى » يعمل بتؤدة ، وكأنه يتسلى ، متتبعا أكوام التراب  
الطرية التي تتناثر حوله ، والكلبة ، التي شاخت فجأة ،  
ترقبه لاهثة من موقعها تحت ظل البوص ، بينما « اللوى » ،  
الكلب الصغير ، يركض على الحصباء مطاردا السحالي .

فى اليوم التالى ، وقبل أن تطلع الشمس ، هبط « النينى »  
ثانية الى البستان . كان الضباب يسدل ستارة كثيفة على القمم  
العالية فبدت أكثر بعدا ، وعلى النباتات تكاثفت قطرات  
الندى . بجوار المنحدر طارت سمانة بصخب ، بينما كان  
يخفت تدريجيا ، كلما اقترب الصبى ، صوت الجنادب  
والضفادع المرتفع الذى يعلن عن قدوم يوم جديد . وفى  
البستان ، ألقى « النينى » فى ركن بجوار النهر ، ولم تكد

---

(١) المناجد نزع من الحرذان اعمى ، يطلق عليه فلاحو مصر كلمة فحار -  
( المترجم ) .

تمضى عشر دقائق حتى سسمع حفيفا مكتوما ، مثل حفيف  
الأرانب ، لفت انتباهه لخروج أحد المناجد . كان يتحرك  
حركات خرقاء ويتوقف كثيرا ؛ لكنه اتجه بعد تردد لأحد  
الانفاق الصغيرة التي شققها الصبى وبدأ فى سحب التراب  
بفمه ليغطى به الفتحة . عندما شاهده « اللوى » انحنى على  
يديه ونبح بغضب ، محاولا الهجوم ، لكن الصبى ابتعد  
أمسك الحيوان بعناية ثم وضعه فى النسلة . فى أقل من ساعة  
صاد ثلاثة غيره وبمجرد أن سطع ضوء الشمس الاحمر فوق  
الروابي وانتشرت الظلال الأولى نهض « النينى » ، تمطى  
ونادى على الكلبين : « هيا » .

تحت قدم ربوة « كلورادو » كان « الخوسيه لويس »  
يسمد الأرض المحروثة ويعدده بقليل ، على الضفة الأخرى  
للنهر ، كان « الأنتوليانو » يحزم بعناية السريس والخس لى  
يعرضهما للضوء . ومن جهة القرية يتناهى الى الأذان صليل  
أجراس القطيع والأصوات الملوثة والكسولة لرجال  
« اكستريمادورا » فى فناء « دون أنتيرو » .

على بعد عشرين مترا ، بالقرب من البوص ، طار صقر  
دون سابق انذار . كان حدثا غير عادى أن يبیت صقر بين  
نبات الأسل وسرعان ما اكتشف « النينى » فوق الغوسج  
العش المكون من أربعة أفرع متشابكة مغطاة بفراء أرنب  
برى . نظر اليه صقران صغيران ، أحدهما أكبر من الآخر ،  
بعينين مستديرتين مرتابتين ، رافعين منقاريهما المخيفين فيما  
يشبه التهديد . ابتسم الصبى ، اقتلع فرعاً من نبات الأسل  
وتسلى باستفزازهما لبعض الوقت ، حتى أضجرهما . فى  
الأعلى ، تحت قبة السماء الزرقاء ، كانت الأم تحوم فوق  
رأسه فى دوائر واسعة .

لم يبح « النينى » بسر اكتشافه لأحد ، وكل مساء  
يهيئ لمراقبة نمو الصقرين وتصرفات الأم التى كانت تعود  
الى العشر ، من حين لآخر ، وبين مخالبتها الحادة جرذة أو

حجل • بعد كل غارة ترفب الأم من فوق نبات العوسج ما حولها في تحد وعظمة ، قبل ان تقوم بسلخ الفريسه وتسليمها للصغيرين • كان الصبي يختفى بين النباتات ويراقب تحركاتها ، يتأمل شراة الصغيرين انناء التهامهما الفريسة ، وسرور الأم المشوب بالخلاء قبل أن تقلع الى الفضاء من جديد • وظل الأمر على هذا المنوال حتى اكتسى الصغيران بالريش ، وذات مساء اكتشف « النيني » اختفاء الصقر الصغير والتفاف خيط من جذع العوسج حول قدم الكبير • وأثناء فكه لوثاقه على عجل خطر بباله « ماتياس ثليمين » ، الا أن تفكيره لم يطل لأن الأم هبطت رأسيا عليه من ارتفاع ثلاثمائة متر فنبحت الكلبة و « اللوى » ناظرين الى أعلى دون أن يتوقفا عن التقهقر • لمست الأم العش عند هبوطها ثم أمسكت بالوليد بين مخالبها ، وعادت من جديد فى اتجاه الجبل •

بعد يومين ، فى « سان باپلو » ، هبت ريح الشمال فرطبت الجو • كانت البرودة تزداد عند الفجر وتخفت حدة صياح السمان والجنادب أثناء الليل • فى اليوم التالى ، هدأت الريح ، ومع الغروب صفت السماء وفوق القرية انتثر جو ساكن شفاف • بعد أن أرخى الليل سدوله ، أطل القمر ، قمر أبيض وبعيد ، وأخذ يرتفع شيئاً فشيئاً فوق القمم العالية • عندما وصل « الراتيرو » و « النيني » الى الحانة ، كان كلب « المالبينو » ينبع على القمر فى الحظيرة نباحا ذا صدى كريستالى • تغير وجه « المالبينو » • قال :

— ما الذى جرى للكلب هذه الليلة ؟

بعد قليل ، ودون موعد سابق ، توافد رجال القرية على الحانة • دخلوا فرادى ، واحدا تلو آخر ، وعلى رأس كل منهم القبعة السوداء التى تصل الى الأذنين وقبل الجلوس على المقاعد كانوا ينظرون حولهم بخوف وعدم ثقة • من وقت لآخر ، كانت تسمع ، فقط ، كلمة غاضبة أو صوت ارتطام الكئوس



بالموائد • امتلأ الجو بالدخان وعندما ظهر « البرودن » من فتحة الباب ، التفت اليه عشرون وجها مدبوغة الجلد • كان يبدو شاحبا ومشوشا • سأل :

— الأفلاك تلمع بشدة ، أليس هذا نذيرا بسقوط الجليد الأسود (٢) ؟

أجابته الصمت ونباح الكلب المتأجج والمنتظم داخل الحظيرة • نظر « البرودن » حوله قبل أن يجلس وعندئذ سمع سباب « الروسالينو » خلف ظهره ، عندما التفت اليه ، قال « الروسالينو » :

— لو كنت الرب لأجريت المناخ تبعا لهواك حتى لا أسمع صوتك •

ساد صمت كثيف ومساوى بعد صوت « الروسالينو » المتجهم • تحرك « الخوسيه لويس » ، المحضر ، بهياج قبل أن يقول :

— « مالبينو » ، ألا تستطيع اسكات هذا الكلب ؟

خرج صاحب الحانة وبالداخل سمعت ركلة بالقدم والعواء الموجه للحيوان وهو يهرب • عندما عاد « المالبينو » بدا وكأن حدة التوتر قد تعاضمت بالمكان • تساءل « الجوادالوبي » الخولى بصوت خشن :

— هل رأى أحد منكم جليدا يسقط ذات مرة في « سان ميدرادو » ؟

اتجهت اليه الأربعون عينا و « الجوادالوبي » ، لكي يبدد اضطرابه ، أفرغ الكأس في حلقه دفعة واحدة • وصل اليه « المالبينو » حاملا الابريق وملا له الكأس دون أن يطلب منه ، ثم قال والابريق في يده ، مواجهها بثبات مالا يمكن تفاديه :

---

(٢) أهالي القرية يخلعون هذه الصفة ( الأسود ) على الجليد لأنه يحطم دائما محاصيلهم الزراعية ويقضى على آمالهم في الحصاد — ( المترجم ) •

— منذ عشرين عاما ، فى « سانتا أوليبا » ، أتذكرون ؟  
كانت الغلال منتصبّة وجافة وفى أقل من أربع ساعات ضاع  
كل شيء •

وسرعان ما تفجر الصمت :

— لم يصل ما جمعه كل واحد من حقله الى عشر كيلات —  
أضاف « الأنتوليانو » •

صاح « خوستيتو » ، العمدة ، من على مائدة فى إحدى  
الزوايا :

— شيء كهذا يحدث مرة واحدة • لن نراه ثانية •

كان « الأنتوليانو » يحرك ذراعيه الكبيرتين على المائدة  
المجاورة شارحا أبعاد المصيبة لزوج السيدة « كلو » ،  
« البرخيليو » :

— كانت السنابل متفحمة ، أسمعت ؟ كما لو أن النار  
قد أتت عليها •

كان صاحب الحانة يمر بين الموائد ليملاً الكتّوس  
الفارغة ، والألسنة ، المتراخية فى البداية ، استعادت  
نشاطها ، كأنهم يريدون الآن اتقاء الخطر بالأحاديث المتقدمة •  
بعد أن سادت المحادثات سمع من جديد العواء المؤلم للكلب  
فى الفناء •

قال « النينى » :

— الكلب ينبح وكان بالبلدة ميتا •

لم يجبه أحد وطاف عواء الكلب ، الذى كانت نغمته  
تتغير كل مرة ، بالموائد مثل صدمة كهربائية • خرج  
« المالبينو » الى الفناء • اختلط سبابه بالبكاء المتدمر للكلب  
وبصفق المختلس للباب عند الدخول • قال ، لاهثا وكأنه قد  
انتهى من قطع مسافة طويلة :

— الجليد يتساقط بغزارة • تجمدت سيقان النباتات  
وكأننا فى يناير • لم تبق فى البساتين نبتة مستوية على  
عودها • لماذا كل هذا العقاب ؟

ارتفع من جميع الزوايا حفيف لعنات مكبوتة • دوى  
فوقها صوت « البرودن » الهائج :

— يا مصيبتى ، يا خرابى • هل هذه حياة ؟ أعمل واكد  
أحد عشر شهرا مثل كلب ، ثم ، فى ليلة واحدة • • — التفت  
الى « النينى » وأضاف قائلا :

— « نينى » ، أيها الغلام ، ألا يوجد مخرج ؟  
— هذا يتوقف — رد الصبى فى صرامة •

— يتوقف ، يتوقف • • • يتوقف على ماذا ؟  
— على الرياح •

ساد صمت كثيف وصلب • ومثل أعين الغربان التى  
تتربص بالمزروعات فى شهر أكتوبر ، تجمعت الآن أعين  
الرجال على الصبى • سأل « البرودن » مستقصيا :

— الرياح ؟

— اذا هبت الرياح عند الفجر يسقط الجليد وتسلم  
السنابل • أما خضروات البساتين فقد فات أوانها — رد  
الصبى •

وقف « البرودن » وتجول بين الموائد • كان يمشى  
كالسكران ويضحك كالمعتوه قبل أن يصيح :

— أسمعتم ؟ لسه فيه أمل ، فلم لا تستجيب الرياح لنا ؟  
أليس غريبا نزول الجليد فى « سان ميدرادو » ، وبالرغم من  
هذا فهو يتساقط ؟ لماذا لا تهب الرياح اذن ؟ أمسك فجأة عن  
الضحك وراقب حوله انتظارا لتأييد أحد ، طاقت عيناه بكل  
الوجوه ، واحدا بعد آخر ، لكنه لم ير الا سحابة من الشك ،

استسلاما مخيفا قابعا هناك داخل الحدقات • عاود الجلوس حينئذ ثم أخفى وجهه بكلتا يديه • خلفه كان «الانتوليانو» يقول للعم « راتيرو » بصوت مسموع : « لا توجد جرذان ، المحصول يضيع من بين أيدينا ، أيمكن معرفة ما يربطنا بهذه القرية اللعينة ؟ » •

تلعثم « الرايينو تشييكو » : « الأر • • • الأرض \_ قال \_ • الأرض مثل المرأة » • صاح « الروسالينو » من الطرف الآخر : « بالضبط ، ليس لها أمان ! » • كان المامس ، الأخرس ، يعوج قسما وجهه بجوار المختلس ، تعويجات مخيفة مثل كل مرة يكون فيها عصبيا • صاح فيه « ماتياس ثليمين » : « صه ، أيها الأخرس ، لا تصب رأسى بالدوار » • عندئذ قال « الفروتس » : « ولو غنى « بيرخيليو » ؟ » • وكما لو كانت هذه اشارة جعلتهم يصيحون جميعا ، « هيا ، يا « بيرخيليو » ، نريد سماع صوتك » •

أخذ « الأجابيتو » يقرع المائدة براحتيه قرعات موقعة • رفع « الخوستيتو » ، الذى كان يعب طوال ساعتين من الابريق دون توقف ، صوته فوق أصوات الآخرين : « هيا ، يا « بيرخيليو » أيا كان ما تغنيه سينال الرضا والقبول » • تنحنح « بيرخيليو » مرتين وشرع فى الغناء • صفق « الأجابيتو » و « الرايينو جراندى » وسرعان ما انضم اليهما « الفروتس » ، « الجوادالوبى » ، « الانتوليانو » و « الخوسيه لويس » • بعد دقائق ، كانت الحانة تغلى وامتزج التصفيق بالأصوات النشاز المحمومة وهى تردد الأغاني القديمة الموجهة • وامتلات الحانة بالدخان ولم يتوقف « المالبينو » عن الطواف بين الموائد ليملأ الكئوس والأباريق • فى الخارج ، كان القمر يتبع صامتا خط سيره المعتاد فوق القمم وأسطح المنازل بينما يتكوم الجليد فوق الخضروات وأطراف السنابل •

زال الاحساس بالوقت وعندما اقتحمت « لاسابينا » ، امرأة « البرودن » ، الحانة نظر الرجال الى بعضهم فى دهشة

وكانهم يتساءلون عن سر تجمعهم هناك - فرك « البرودن » عينيه والتقت نظرتة بالنظرة الفارغة لامراته ، وعندئذ صاحت « لاساينا » :

- أيمكن معرفة ما حدث لكى تقيموا هذا الحفل الرافص حتى الخامسة صباحا ؟ ألم يخطر ببالكم سوى الصياح مثل الأطفال بينما يقضى الجليد على المحصول ؟ - تقدمت خطوتين وواجهت « البرودن » - : وأنت ، يا « أثيسكلو » ، ألا زلت تذكر الجليد الذى سقط فى « سانتا أوليبا » ؟ لتعلم اذن أن جليد هذه الليلة أسوأ منه بكثير - السنابل لا تتحمل البرودة وتنطوى كما لو كانت من رصاص -

خيم فجأة صمت شبحى - تبدو الحانة الآن وكأنها ردهة لغرفة محتضر ، حيث لا يقوى احد على مواجهة الأحداث ، والتأكد مما اذا كان الموت قد أصدر قراره أخيرا - تحت ، من اصطبلات « دون أنتيرو » ، سمع خوار باك لاحدى البقرات ، وكأن الخوار كان الاشارة المنتظرة ، فأسرع « المالبينو » الى النافذة الضيقة وفتح ضلفتها بشدة - تسلل ضوء مبهم ، شتوى بارد بين الزجاج المتسخ - لكن أحدا لم يتحرك - فقط عندما ارتفع الشخير المتقطع لديك « الأنتوليانو » الأبيض فوق الصمت ، وقف « الروسالينو » وقال : « هيا بنا » -

كانت « لاساينا » تمسك بذراع « البرودن » وتقول له : « انه الخراب » ، يا « أثيسكلو » أفهمت ؟ - فى الخارج ، بين القمم العالية ، كانت النجوم الأخيرة تنمحي وينتشر بدلا منها ضوء أبيض مبتسر فوق المنطقة - تحت الأقدام تقرقع الأرض مثل قشر عين الجمل ، وتغنى الجنادب على استحياء ومن فوق ربوة « دونالدثيو » يتناهى الى الأسماك نداء حجل ذكر -

كان الرجال يسرون على الطريق منكسى الرؤوس وأمسك « البرودن » « النينى » من عنقه ولم يكف عن سؤاله

مع كل خطوة : « ستهب رياح الشمال؟ أعتقد امكانية ذلك؟ »  
لكن « النينى » كان صائما عن الكلام . فقد كان ينظر الى  
المقابر فوق الربرة والى الصليب الصغير وسطها ويتخيل أن  
تلك المجموعة الخامدة من الرجال ، التى تتوغل داخل حقول  
الغلال الشاسعة . تنتظر ظهور شبح . كانت السنابل تنحنى  
بما تحمله فوق رأسها وأخذ بعضها فى الاسمرار . قال  
« البرودن » مكتئبا ، وكان هم الليل بطوله قد انهار فوق  
راسه فجأة :

« لن يصل العلاج فى الوقت المناسب » .

فى البساتين ، تحت ، سحق الجليد الخضروات ونرك  
اوراقها ذابلة . توقفت المجموعة بين المزروعات فى اتجاه  
حلمة « توريثيو ريجو » وتبت الرجال حدقاتهم على تخوم  
القمم العالية التى أخذت فى الظهور شيئا فشيئا . خلف ربرة  
« دونالدثيو » كان الضوء أكثر حيوية . ومن وقت لآخر ينحنى  
أحدهم على « النينى » ويسأله مهما : « فات الألوان ، حقا ،  
أيها الغلام ؟ » . فيجيب « النينى » : « قبل أن تطلع الشمس  
مازال الأمل موجودا . الشمس هى التى تحرق السنابل » .  
ويولد الأمل فى الصدور من جديد . لكن النهار كان يهجم  
دون هوادة ، أضاء الروابي وأبان عن بؤس بيوت الطوب  
البن وظلت السماء مرتفعة والجو ساكنا وعيون الرجال ،  
المفتوحة جيدا ، ظلت مثبتة ، بنهم متعكر ، على تخوم القمم  
العالية .

حدث كل شيء فجأة . هبت أولا نسمة رقيقة داعبت  
السنابل ، ثم زعقت الرياح وأخذت تهبط بفضاضة من على  
القمم العالية ، فطوحت سيقان النباتات وأحدثت تموجات  
فى حقول الغلال مثل موجات البحر . وبعد قليل ، تحولت  
الرياح الى هدير متقطع ألهب الحقول بسياطه وبدأت السنابل  
تتأرجح ، متخففة من الجليد، وتنتصب رويدا رويدا على ضوء  
الشروق الذهبى . ابتسم الرجال ، ووجوههم ناحية الريح ،

ابتسامات باهتة ، مثل المنومين مغناطيسيا ، دون أن يجروا  
أحدهم على تحريك عضلة واحدة من وجهه خوفا من معاكسة  
الظروف المواتية . كان « الروسالينو » ، الوكيل ، أول من  
استعاد صوته وعند التفاته اليهم قال :

— الرياح ! ألا تسمعون ؟ انها الرياح !

أخذت الرياح كلماته وحملتها الى القرية ، وعندئذ ،  
وكأنه صدى ، شرع برج الأجراس فى الكنيسة يصدر دقات  
مبتهجة ، وعلى صوته ، بدا أن المجموعة قد استيقظت ودوت  
هتافات غير متجانسة و « المامس » ، الأخرس ، كان يريل  
وينتقل من مكان لآخر مبتسما ويصيح : « خى ، خى » .  
رفع « الأنتوليانو » و « البيرخيليو » « النينى » فوق رأسيهما  
وصاحا :

— هذا ما قاله « النينى » ! هذا ما قاله !

ركع « البرودن » ، و « لإسابينا » خلف ظهره تنهنه ، بين  
أعواد القمح وفرك وجهه مرات متتالية بالسنابل ، التى  
تنثر حبها بين أصابعه ، دون أن يكف عن الضحك كالمجنون .

بجوار النهر ، اتى الجليد الاسود على ما بالبساتين الصغيرة من خضروات . وبالرغم من هذا ، نزل رجال القرية يملؤهم الاصرار الى البساتين الصغيرة وبكروا بزراعة الحميض ، الفجل ، السريس ، البازلاء ، الكراث والجزر . عكف «روسالينو» ، الوكيل ، على تقليم شجيرات البرباريس ، بينما انهمك « النيني » فى ابعاد اليعاسيب عن خلايا النحل وتصنيف الأرانب استعدادا لموسم التناسل . استقرت درجة الحرارة بفضل نعومة الشمس وتحت شعاعها نضجت الغلال وجفت خلال أيام قليلة . عندئذ دب النشاط فى القرية . لم يكف الرجال والنساء ، طوال النهار ، عن تنظيف البيادر واعداد آلات الحصاد ، وفى المساء قاموا بتطهير الصوامع استعدادا لاستقبال المحصول . فوق السماء ، الكثيفة الزرقاء ، طارت اللقالق سابقة للموعد الذى كان يتنبأ به المرحوم « روفو » : « فى « سان خوان » ، تطير اللقالق » .

كل صباح ، كان رجال القرية يركزون نظراتهم على الاتجاه الشمالى الغربى الذى ظل صافيا وهادئا خلال عشرة الأيام الأولى من الشهر . لم يكف « البرودن » عن ترديد : « ما يهمنى الآن هو عدم سقوط المطر » .

اعتاد المرحوم « روفو » تكرار حكمته القاطعة : « فى يونيو المطر ، يجلب الخطر » . ولذلك كان الرجال ينتظرون الشمس كل صباح بنفس الحمية التى ينتظرون بها المطر فى «نويسترا سنيورا دى سانشو أباركا» أو فى «سان تاوريو» . ومع هذا ففى « سان باسيليو » ساد تفاؤل مبكر بين السكان .



لقد أضفى عليهم حدث انقاذ الغلال من الجليد الأسود حب  
الثرثرة • « أنقذ المحصول بمعجزة » — كانوا يرددون • لكن  
السيدة « ليبرادا » ، الأكبر سنا والأكثر حيطة ، كانت تعذر :  
« لندع الكلام حتى امتلاء الصوامع بالغلال » •

أما العم « راتيرو » فلم يكن يعلق أملا على المناخ ، ويزداد  
صمته صلابة واكفهازارا • لا يحرك شفثيه تقريبا طوال  
النهار ، وعندما ينام فوق القش ليلا يقول للصبي فى ثبات :  
— علينا أن نذهب غدا للصيد •

فيوقفه الصبي :

— انتظر • فى « سان بيتو » يصرح بصيد سرطان الماء •  
— سرطان الماء ؟

— ربما يأتى هذا العام بخير عميم • من يدري ؟

منذ أسبوع ، فى « سانتا أروسيا » ، كادت الأزمة أن  
تنفجر عندما قدم « خوستيتو » ، العمدة ، الذى كان يزين  
رقبته برباط عنق المناسبات الكبيرة ذى اللونين الأخضر  
والأحمر ، عرضا للعم « راتيرو » فى حانة « المالينو » :

— « راتيرو » ، ما قولك لو عرضت عليك العمل بيومية  
تصل الى ثلاثين بيزيتة بخلاف الأكل والشرب ؟

مرر « الراتيرو » طرف لسانه على شفثيه المتشققتين ،  
ثم هرش ما تحت القبعة بخشونة ، وكأنه يستعد لحديث  
طويل ، لكنه لم يزد عن :

— هذا يتوقف •

— يتوقف على

— على طبيعة الـ

— انظر ، يكفي أن تصعد المنحدرات مع رجال  
« اكستريمادورا » لزراعة الأشجار — أشار الى « النينى » — :  
بالطبع يمكن أن تأخذ الغلام ليأكل معك .

فكر « الراتيرو » لعدة لحظات :

— حسنا — قال أخيرا .

تحسس « خوستو فادريكي » ذقنه التى حلقت حديثا  
بحركة ميكانيكية . لقد فعل نفس الشيء منذ يومين فى المدينة  
عندما قال له المحامى : « اذا كان هذا الشخص لم يتغير عما  
كان عليه من قبل ، فلا يوجد سند قانونى لاجراء اختبار له  
وحرمانه من رعاية الصبى » . نظر « الخوستيتو » طويلا الى  
« الراتيرو » وقال بعدم اكتراث متكلف :

— أشرت عليك فقط ترك المغارة .

رفع « الراتيرو » عينيه :

— المغارة تخصنى .

وضع « خوستو فادريكي » مرفقه على المائدة وأضاف  
متدرا بالصبر :

— تعقل يا « راتيرو » . البيت فى البيدر القديم ايجاره  
مائة بيزيتة وستكسب تسعمائة فى الشهر بالاضافة الى الأكل  
والشرب . ما رأيك ؟

— المغارة تخصنى — كرر « الراتيرو » .

مد « خوستو فادريكي » ساعديه على المائدة واجتهد فى  
تطرية صوته :

— حسنا ، سأشتريها منك . كم تريد فيها ؟

— لا شيء .

— لا شيء ؟ ولا ألف بيزيتة ؟

— لا .

— لها ثمن ، بالتأكيد تساوى شيئاً .

— شيئاً .

— كم ، تكلم !

ابتسم « الراتيرو » ابتسامة مراوغة ثم قال :

— المفارة تخصني .

هز « خوستو » رأسه من جهة لأخرى ، ثم ثبت حدقتيه  
الغاضبتين على « الراتيرو » :

— يمكن أن أمنع « لويس » ، فتى « توريشيو ريجو » ،  
من الصيد في زمام قرينتنا . ما رأيك ؟ تغير وجه « الراتيرو »  
في لحظة . استطالت زعنفتا أنفه وتصلبت شفتاه حتى  
خارت قواه :

— هذا ما سأتكفل به أنا .

نهض « خوستيتو » غاضباً :

— أنت لا تملك الشجاعة . على أية حال ، فكر فيما  
عرضته عليك . إذا قبلته ، بإمكانى مساعدتك .

منذ ذلك الحين ، كان « الراتيرو » يمضى الساعات في  
مراقبة النهر . كان يعيش في حالة من الانفعال المكتوم  
ولا يزور النوم جفنيه أثناء الليل . في بعض الأيام يصعد  
مع الصباح حلمة « توريشيو ريجو » ويرقب بلا هوادة حواشي  
النهر . وعندما يأتي المساء يلجأ الى الحانة أو الاصطبل أو  
مصطبة ورشة « الأنتوليانو » ، الذي كان يسر في أذنه :  
« لديك يدان ، يا « راتيرو » . لا يحتاج أى منا لأكثر  
منهما » . يحنى « الروسالينو » رأسه في اتجاه « توريشيو  
ريجو » ويضيف : « ما ينسب الى أحصل عليه بيدي هاتين » .  
وفي الحانة ، يستحثه « المالبينو » : « النهر نهرك ،

يا « راتيرو » . أنت تعمل بهذه المهنة قبل أن يخرج هو من البيضة » .

هذا بينما كان « النيني » يتعب نفسه في تلبية مطالب السكان ، لكن ابعاد اليماسيب عن الخلايا ، أو خصى الخنازير ، أو تصنيف الأرانب في حظائرها لم يكن يعود عليه بأكثر من نصف بيزيته . كان « المالبينو » يقول له : « حدد لنفسك تعريفة . ألا يفعل هذا الأطباء والمحامون ؟ » . فيهرز الصبي كتفيه ويرميه بنظرة حادة وعندئذ يتحير « المالبينو » ويؤثر الصمت . في « سان بيتو » رفع الحظر عن صيد سرطان الماء فهبط « النيني » الى النهر ومعه الشباك ، المطعمة بالديدان . عند غروب الشمس سقطت في الشباك خمس دست ولازال سرطان الماء يقع في الفخ المنسوب بسهولة كبيرة . بعد أن حل الليل أشعل المصباح ووضع أمعاء الدجاج ، كطعم ، بدلا من الديدان . كانت الجنادب تصيح حوله وفوق رأسه بينما ترفرف بومة على أول شجرة من شجرات الصنوبر الثلاث .

في منتصف الليل ، جمع « النيني » عدة الصيد ، وقبل أن يعود الى المغارة ترك فخا منصوبا داخل النهر . كان سرطان الماء ينزلق داخل الجوال ويحدث حفيفا رطبا ولزجا .

وفي انتظاره كان العم « راتيرو » قابعا عند مدخل المغارة تحت ضوء القنديل :

— هل رأيته ؟ — سأل قبل أن تطأ قدماه رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات السعتر .

— لا — رد الصبي .

خرجت هممة من بين أسنان « الراتيرو » . أضاف :

— وسرطان الماء ؟

— احدى وعشرون دسته ونصف من سرطان الماء . ولأول مرة منذ بضعة أسابيع تنفرج شفتا « الراتيرو » عن ابتسامة .

— اذا لم تنزل « لاسيميونا » للصيد هذا العام سيصبح كل شيء على ما يرام — أضاف الصبى • كانت « لاسيميونا » منافسا قويا للصبى • فهي تصطاد بيديها ، بعد ان تشمر ملابسها فتكشف عن ساقين بيضاوين ممتلئتين ، وتدخل الانملة الخشنه لابهام يدها اليمنى فى الفجوات أو بين كرفس الماء لتقبض على السرطان بشجاعة منقطعة النظير • وبهذا التكنيك الشديد البساطة مرت أعوام كانت تصيد فيها أكثر من خمسمائة دسنة • كان « أدولفو » ، سائق حافلة المدينة ، يحمل سرطان الماء ، بعد تصنيفه تبعا لحجمه ، ويبيعه فى سوق عاصمة المحافظة • لكن « لاسيميونا » تروحت هذا العام • أطلقت شعرها على كتفها ولبست عباءة سوداء تصل الى القدمين • نفس الوشاح الذى اتشحت به « لا أفروديسيا » منذ خمسة أعوام مضت ، وهى الأولى التى وهبت نفسها وأخذتها فى بيتها الوصية الحادية عشرة •

كان على « لاسيميونا » ، مثل « لا أفروديسيا » ، قضاء ثلاث سنين عند « دونيا ريسو » ، تقوم خلالها بالأعمال الصعبة والمهينة ، استعدادا للاعتراف •

اعتاد « المالبينو » أن يقول فى الحانة : « انها احدى الوسائل للحصول على خادمة مجانا » • ومع هذا ، فقد أيقظ تحول « لاسيميونا » المفاجئ جشع رجال القرية ، الذين يتحينون الفرص : « سيميونا ، ماذا ستفعلين بالعربة ؟ » • « أحتاجهما » — ترد عليهم بثبات • • • « والحمار ؟ » — يضيفون قائلين • « أحتاجه أيضا » — تجيب عليهم • وعندها يهرشون رؤوسهم ويسألون فى حيرة : « أيمكن معرفة لأجل ماذا تحتاجين عربة وحمارا خلال فترة الرهينة ؟ » • فتجيب دون تردد : « لأجل القربان المقدس » •

فى الآونة الأخيرة ، كان « النينى » يتفادى « لاسيميونا » لأنها ما من مرة تقابله فيها الا وتنحنى وتقول : « أهنى » • فيرفض الصبى بإيماءة من رأسه : « لا أفهم فى هذا » • « ابصق على » — تضيف • فيرفض الصبى • « ألم تسمع ؟

اقول لك ابصق على . تعلم طاعة الكبار » . فيقاوم الصبي ، لكنه ، في بعض الاحيان ، كان يضطر لاصطناع بصقة . فلا تكتفى : « ليس هكذا . بصقة أكبر وعلى الوجه . اسمعت ؟ » . مرات أخرى ، كانت « لاسيميونا » تنمدد على الارض وتتوسل اليه ان يدوسها بقدمه . وشيئا فشيئا بدأت تملك الصبي قشعريرة عند رؤيتها .

صعد ، مؤخرا ، لراس الفتاة التنبؤ بموتها فكانت تقول ان « الموت سيياغتها للحد الذي لن تستطيع معه الاستحمام قبلها » . اختارت « النيني » لتحقيق رغبتها الأخيرة : « هلم الى ، يا نيني - كانت تناديه - اذا مت خذ الحمار والعربة . تبيع العربة وتنفق ثمنها على اقامة قداس على روحى . اما الحمار فاحتفظ به لنفسك . يمكن أن تمتطيه عند ذهابك الى الحقول . لكن تذكرنى كل مرة تركبه فيها بالصلاة على صلاة قصيرة » . « وكيف تكون ؟ » - يسأل « النيني » مستقصيا . « يا للمسيح ! ألا تعرف هذا ؟ الصلاة القصيرة تقول فيها : اللهم اغفر لـ « سيميونا » . لا شيء أكثر ، اسمعت ؟ لكن كل مرة تركب الحمار ، أفهمت ؟ » . « نعم ، لا تقلقى » - يوافق الصبي . فتفكر لحظة ثم تضيف : « أو من الأفضل أن تقول كل مرة تمتطى فيها الحمار : يا رب اغفر الذنوب التى اقترفتها « سيميونا » برأسها أو بيديها أو بصدرها أو ببطونها ، وهكذا حتى تصل الى القدمين . أتفهم ما أقول ؟ » . كان « النيني » يحملق فيها بهدوء ، لكنه سألها : « أيمكن أن ترتكب البطن ذنوبا ؟ » . أجهشت بالبكاء دون سابق انذار . تأخرت فى الرد عليه . قالت أخيرا : « والكبائر منها . ذنبى كان يدعى « باكيتو » وهو الآن فى المقابر بجوار أبى . ألم تكن تعرف هذا ؟ » . « لا » - رد الصبي بحدة . أرجعت شعرها للخلف فى جزع ثم قالت : « حقا ، لقد كنت صغيرا وقتها » .

لكن « لاسيميونا » مرضت فعلا فى « سان بروتاسيو »

و « سان تريبونو » ، وعندما راها « النيني » وهى متمددة  
على الحشية تذكر موت العجوز • قالت له الفتاة :

ـ « نيني » • اذا مت خذ لنفسك العربية والعمار  
والكلب ، أسمعت ؟

ـ لكن ...

ـ لا تقل شيئاً ـ قاطعته ـ • بعد أن أموت لن أحتاج الى  
القربان المقدس •

ـ لن تموتى • لقد مات أبوك •

ـ اسكت • لا يفتدى الأب أبناءه بموته ، أسمعت ؟

ـ نعم ـ رد الصبي خائفا •

ـ نظير هذا أمل فقط تلبية طلبى السابق ، أمازلت  
تذكره ؟

ـ نعم ، كل مرة أركب فيها العمار أدعو الله أن يغفر لك  
ذنوبك مبتدئاً بالرأس •

تنهدت « لاسيميونا » مستريحة :

ـ حسنا ـ قالت ـ • والآن أهنى • لم يبق وقت حتى  
أغتسل • انى راحلة الآن •

ـ ماذا ؟

ـ ابصق على !

ـ لا •

تقلصت عضلات وجهها تقلصات سريعة :

ـ ألا تسمعنى ؟ ابصق على !

رجع الصبي القهقري ناحية الباب • لقد رأى على  
أسارير وجهها الحادة صورة موت العجوز وجدته «الومينادا» •  
ـ أما هذا فلا •

فى تلك اللحظة تسربت من بين فضبان النافذة صرخة  
حادّة وموجعة • ظلت « لاسيميونا » بلا حراك ، طرقت  
عينها بعصبية . وفجأة غطت وجهها بيديها وشرعت فى بكاء  
هستيرى :

— « نينى » ، ألم تسمع ؟ — قالت وهى تنتحب — • انه  
الشيطان •

اقترب الصبى :

— انها البومة ، هونى على نفسك • تصيد جرذانا من على  
سطح البيت •

استلقت حينئذ على ظهرها ، أطلقت ضحكة مدوية وبدأت  
تتفوه بأشياء غير متجانسة • فى « سانتا أجريينا » ، شفيت  
« لاسيميونا » • قابلها « النينى » فى الميدان ، لا تزال  
شاحبة تترنج ، ولأول مرة منذ أن وهبت نفسها للرهبنة لم  
تطلب منه اهانتها • سألها :

— هل أنت بخير ؟

— بخير ، لماذا ؟

— لا شيء •

ظلا لبرهة وجها لوجه يلاحظان بعضهما فى ارتياب •  
أخيرا ، أضاف « النينى » :

— ألن تذهبى هذا العام لصيد سرطان الماء ؟

— آه ، يا بنى ! الكلام ده كان زمان • لا أهتم الآن بمثل  
هذه الأشياء •

منذ تلك الليلة ، بدأ سرطان الماء يتفادى فخاخ  
« النينى » سواء أكان الجو هادئا أم مضطربا بهبوب ريح  
الجنوب أو الرياح الشمالية الغربية • عند المساء كان سرطان  
الماء يترك أوكاره تحت نبات الكرفس ويتبختر حول الشباك ،



لكن دون أن يقرر المرور من الطوق . وبالرغم من المجهود الذى يبذله « النينى » فلم يكن يصيد أكثر من ستة واحدة . وعند وصوله للمفارة يقول للعم « راتىرو » :

— « لاسيميونا » حسدتنى .

فيهersh « الراتىرو » باصرار ما تحت القبعة ويسأل :

— لا شىء ؟

— لا شىء .

— علينا بالنزول اذن لصيد الفئران .

لكن « النينى » فضل العودة للزهور الصفراء والسلاحف على تدمير أعشاش صفار الفئران . فى فصل الربيع . اجتهد فى توسيع دائرة زبائنه حاملا الزهور الصفراء من باب الى باب . وصل ، ذات مساء ، لبيت المختلس ، برغم فزعه من ابتسامة صاحب البيت المتوحشة :

— « ماتياس » — نادى عليه . — ألا تحتاج زهورا صفراء للأرانب ؟

— زهورا صفراء ؟ ( بطلوا ده واسمعوا ده ) ! ألا تعلم أننى تركت تربية الأرانب منذ انتشار الوباء ؟

تحير « النينى » وطرفت عيناه . وفجأة ، أمسكه المختلس من رقبته وأضاف ، مطبقا عينيه وكأن الضوء يضايقه :

— بالمناسبة ، ألا تعرف من الصعلوك الذى أطلق سراح الصقر الصغير من على نبات الأسل ؟

— صقر صغير بين نبات الأسل ؟ — سأل الصبى . —  
الصقور لا تعيش فى مثل هذه الأماكن ، أنت تعرف هذا يا « ماتياس » .

— لكنها عاشت هذه المرة ، وجاء ابن كلب وقطع الخيط الذى ربطت فيه الصغير ، ما رأيك ؟

رفع النينى كتفيه ولمعت عيناه بالبراءة • أضاف  
« ماتياس ثليمين » ، بعد أن ترك الصبي وعقف ذراعيه  
بمهابة فوق صدره :

— اسمع منى شيئا وضعه حلقة فى أذنك • الى الآن لست  
متأكدا ممن فعل هذا ، لكنى لو أمسكت به ذات يوم فساخضربه  
بيدى هذه ضربة لن تبقى له بعدها رغبة للتدخل فيما  
لا يعنيه •

حلقت شمس قاسية فوق القمم العالية في « لا برنيوسا  
سانجرى دى نويستروسنيور » فمحقت نباتات المريمية  
والخزامى من على المنحدرات . في أربع وعشرين ساعة فقط  
تجاوزت درجة الحرارة خمسا وثلاثين وغرقت المنطقة في  
قيظ يوهن الأعصاب .

ذاقت القمم العالية مرارة الأشعة الحارقة ، وحول  
القرية تفرقع أعواد القمح الناضجة بينما يشير الشعير الذى  
حصد في أكوام متناثرة الى فترة ركود خريفية سابقة  
لأوانها . تحت القيظ ، تكتسب الحياة طولا غير عادى  
ولا يمزق الصمت الجهنمى لساعات النهار الوسطى سوى  
زقزقة العصافير الموجهة بين البوص المرتفع على ضفتى النهر .

عند مغيب الشمس ، هبطت نسيمات فاترة من على التلال  
فانتهز سكان القرية الفرصة للتجمع على أبواب البيوت  
وتبادل أطراف الحديث في مجموعات صغيرة . كانت الرائحة  
الجافة للمدرّيس ترتفع من الحقول مغلفة بأصوات الطيور  
المسائية ، بينما تضرب الهوام المصابيح ضربات ايقاعية أو  
ترفرف حولها في حلقات غير منتظمة . من قمة « ميرينو »  
وصل غناء الكروان ، وعلى صوته ، طار البعوض على أحراج  
النهر وطاق بكل مكان في عدوانية شديدة . كان الوقت  
يوافق نهاية الدورة الزراعية وعندما يجرد الرجال أنفسهم  
في الشوارع المترية يرسلون ابتسامات وكأنها تجعيدة ضمن  
تجاعيد وجوههم التي لوحتها الشمس ورياح الهضبة .

وبالرغم من ذلك ، فقد اشرقت الروابي ، فى « سان  
ميجيل دى لوس سانتوس » ، وهى ملفعة بضباب كثيف لزج  
أخذ يتضح بتقدم النهار . عندما شاهده « البرودن » عبر  
قنطرة الألواح الخشبية وصعد المنحدر بمشقة ، وبمجرد  
وصوله الى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات السمتر ، نادى  
على « النينى » بصوت عال :

— « نينى » ، أيها الغلام — قال عندما ظهر الصبى وهو  
يتمطى من باب المفارة — ، لا يعجبني منظر الضباب - ألا يعنى  
هذا اقتراب ظهور السحب ؟

كان « اللوى » يشمشم فى عقبى الرجل و « لافا » ،  
جائمة الى جوار الصبى ، مستسلمة لمداعبته لها بقدمه العارية  
المتسخة . حلق الصبى فى الأفق ، ثم فى الروابي وعليها  
الضباب ، وأخيرا ، توقفت عيناه على صقر يرفرف بجناحيه  
فوق حلمه « توريشيوريجو » . هبط المنحدر دون أن يتفوه  
بكلمة . تبعه « البرودن » والكلبان بنفس الانقياد الواثق  
الذى يتبع به الطبيب أقارب مريض على حافة الموت . بعد  
أن وصلوا الى النهر ، نشط لسان « البرودن » من عقاله وفى  
نغمة باكية قال للصبى ان القمح الجاف لن يتحمل المطر .  
تظاهر « النينى » بعدم سماعه ، بلل اصبعه الوسطى بريقه  
وتأمل بعناية الجانب الذى يجف منه أولا . تسلل بعد ذلك  
بين نباتات البوط والبوص ونظر الى سيقانها الدقيقة التى  
يتسلقها النمل المجنح حتى يصل الى أطرافها ثم يعاود  
الهبوط . كان « البرودن » يرقبه فى صمت وعندما خرج  
الصبى من بين النباتات استشاره بنظرة منه :

— يوجد ضباب والهواء يأتى من جهة الجنوب — قال  
الصبى بصوت متقطع — . يتراقص النمل المجنح فى مشيه .  
إذا لم يتغير اتجاه الهواء قبل منتصف النهار ، فسيعود الضباب  
ثانية . تحسن صنعنا لو أخبرت الناس بهذا .  
لم يحفل أحد بكلام « البرودن » ، قال له « الروسالينزو » :  
— له أبدأ الحصاد قبل « سان أوسبيثيو » .

— النينى يقول . . . — اراد « البرودن » ان يوضح .  
— حتى لو قالت العذراء مريم بنفسها — قاطعه  
« الروسالينو » .

ومع ذلك ، فبعد ربع ساعة فقط ، عندما نادى المنادى  
طالبيا حصادين للبرودن ، ظهر التوتر على رجال القرية . لم  
يتحدث سوى « الروسالينو » الذى اراد ازاحة القلق من على  
صدره :

— أسرع يا « برودن » ، قبل أن يشيط الارز .  
بعد العصر بقليل ، ظهرت فوق قمة « ميرينو » سحباه  
بيضاء ثم سحبات أخرى كثيفة وثقيلة . لم ينزل الرجال  
أعينهم من على القمة وعندما أوشك النهار على الرحيل امر  
« خوستيتو » العمدة ، « الفروتس » بأعداد الصواريخ  
لإطلاقها على الغمام .

فى تلك الساعات التى تلبدت فيها السماء بالغيوم كان  
« البرودن » ومعه « لاساينا » ، « الرايينو تشيكو » .  
« الكريسبولو » — ابن « الأنتوليانو » الأكبر — قد انتهوا من  
تشوين القمح بالحقل . ومع غروب الشمس انفلت عيار  
ريح ساخنة أحدثت تموجات فى الحقول التى لم تحصد  
وأثارت سحابة من الغبار فوق الطريق . ازدادت قتامة السماء  
شيئا فشيئا والتهم « النينى » الطعام غير المتقن الذى أعده  
« الراتيرو » ثم أقعى على باب المغارة . أطبق الظلام فجأة  
وازداد تعكر الجو . لكنها لم تمطر حتى الآن ، ولم ترعد .  
وأقزع الصبى بريق أول شعاع . رفعت « لافا » رأسها  
وتجشأت عندما تدحرج الرعد مزجرا أسفل المنحدر .  
امتزج نثن الكبريت بالرائحة الجافة للدريس ورائحة السنابل  
الناضجة . أطل العم « راتيرو » من فم المغارة ، ونظر الى  
أعلى ، الى الظلام ، وقال :

— السماء تعد العدة .

وقف شعر صلب « اللوى » ، وعندما شق عنان السماء  
الصاروخ الأول ، الموجه الى بطن السحابة المظلم ، نبح هانجا .  
أشبهت فرقة الصاروخ صرخة حادة لطفل بين جدال عنيف  
للكبار . بعدها شقت السماء عن ضوء شديد جعل سلسلة  
القمم العالية تلمع وكأنها من فضة . تبع الضوء الرعد مباشرة  
وكان قويا وصاعقا مثل ضربة سوط .

ـ ستكون أسوأ من تلك التى حدثت فى « سان ثينون » .  
أتذكر ؟ ـ قال الصبى .

اطلق الصاروخ الثانى من الميدان وتبعه آخر وآخر ،  
دون توقف أو تخطيط ، فى يأس . كانوا مثل صياد يرمى  
الحصى بنبله على قطيع من الأفيال . أغرق البرق من جديد  
المنطقة فى ضوء شاحب وتبع دوى الرعد أنين الأعصار وهو  
يكتسح الروابي والحقول ، رافعا دوامات حلزونية كثيفة  
من التراب نحو السماء . عندما هدأت الرياح بدأت تتساقط  
حببات المطر الأولى ، كانت رمادية منتفخة ، مثل حبات العنب ،  
تطرقع على الأرض الجافة ، وعند تبعثرها الى جزئيات صغيرة  
تتبخر من جديد دون أن تترك أثرا . قال « الراتيرو » من  
مكانه خلف الصبى :

ـ هكذا أفضل .

ـ ما هو الأفضل ؟

ـ تبعثر الحبات الأولى بهذا الشكل ، لأن المطر التالى  
لو نزل على مكان جاف تسوء الأمور أكثر . أنكر الصبى  
بايماءة من رأسه دون أن يقلع عن النظر لبيوت القرية :

ـ لن يتغير الوضع . لن تتغير النتيجة والقمح على  
هذه الحال .

مزق البرق قبة السماء من جميع الاتجاهات فى معركة  
حامية الوطيس . اختلط الرعد الشمالى الغربى المرعب

بالشهب الجنوبية الشرقية وتتالت دقائق الثلج على جلد القمة  
المشدود وكأنها دقائق طبول .

بالرغم من أن الثلج كان فى حجم بيض الحمام ، الا أن  
الرياح جرجرته لتكومه تحت الأعشاب أو بين فجوات الروابي .

— لقد اتحدت سحابتان — قال الصبى .

— اثنتان — أكد « الراتيرو » .

— مثلما حدث عام ١٩٥٣ فى « سان ثينون » ، أتذكر ؟

— تماما .

تراجع القيظ شيئاً فشيئاً وارتفع من الحقول التى حل  
بها العقاب بخار الأرض الرطبة . كان الثلج يتساقط على  
فترات متقطعة وعندئذ لمح « النينى » ، على ضوء الشهب ،  
أشباح الرجال السوداء ، مثل دمي خرساء ، وهى تنعرك  
بلا تبصر فى الميدان . لم يكن « الفروتس » وحده ، بل  
« الخوستيتو » ، و « الخوسيه لويس » ، و « البيرخيليسو » ،  
و « الأنطوليانو » ، و « الماتياس » ، و « الرايينو جيراندى » ،  
وكل رجال القرية الذين كانوا يتزاحمون على إطلاق  
الصواريخ فى محاولة يائسة لأرهاب نذر الشر . لكن  
الصواريخ كانت تتحول عند ارتفاعها الى أثر باهت ، دون  
لمعان أو قوة ، وتحدث انفجاراً مكتوماً على أعتاب سماء  
وطيئة وجائرة .

أخذت المنطقة شكلاً شبحياً تحت ضوء البرق البنفسجى  
وبدا برج الكنيسة ، ومخزن التبغ ، وربوة « دونالثيو » ،  
وحلمة « توريثيو ريجو » وأشجار الصنوبر الثلاث وكأنهم  
شركاء فى هذه الجريمة النكراء .

أحياناً ، كان الثلج يصنع ستارة محكمة ، كثيفة  
وكتيمة .

— انها أسوأ من عام ١٩٥٣ — قال « النينى » .

أكد « الراتيرو » ، الذى كان يقف خلفه فى الظلام  
الدامس بلا حراك :  
— أسسوا •

صبت السماء جام غضبها على المنطقة وخلال خمس  
ساعات استمر لمعان الشهب ، دوى الرعد المكتوم ، وصوت  
الثلج الذى كان مثل المطارق وهو يصطدم بالحقول • فى  
الرابعة صباحا أمسكت السماء فجأة عن الصياح وتجمعت  
السحب تجاه الشمال ، فوق حلمة «توريثيو ريجو» ، وسرعان  
ما ظهر قمر عال ورطب خادشا الحواشى الأخيرة للعاصفة •  
وعلى امتداد البصر ، كانت الثلوج ، عند تحللها على الأرض،  
تحدث حفيفا لزجا مثل حفيف سرطان الماء داخل جوال من  
الغيش •

من حين لآخر ، خلف حلمة «توريثيو ريجو» ، كانت  
تخرج من السماء السنة الوهج ، لكن دوى الرعد يتأخر الآن  
فى الوصول •

هبط « النينى » الى القرية بمجرد طلوع النهار • كان  
المنحدر رطبا وزلقا ولذلك، نزل الصبى من على السفح حتى  
تتشبث قدماه بنبات السعتر • بدت الحقول تحته وكأنها  
ميتة • كانت البساتين وأشجار الصنوبر الثلاث ترفع بنجل  
عريها الشجى وأزاد نعيب الغربان فى فجوات برج الأجراس  
من وضوح الصمت الكبير • أما القمح ، الذى جمعه الأعصار  
العنيف فى عناقيد غير منتظمة ، فينام على الطين فى وداعة •  
تكاثرت البرك بين السنابل المجذوزة • وعلى الدروب كانت  
تتناثر جثث القبريات المتيبسة فوق حبات القمح • ومن أراضى  
« دون أنتيرو » المحروثة تتصاعد دخنة ، مثل التى تتصاعد من  
المزروعات أيام الشتاء المشمسة بعد ليلة تساقط فيها الجليد •  
انعقدت فوق الحقول نتانة طينية كثيفة ممتزجة برائحة  
الدريس • تجاسر عقققان ، لم توهن المحنة عزيزتهما ، على  
اللهو فوق آلة التعذيب القديمة ، نافشين ريشهما تحت



الشمس • أحس « النيني » عند دخول القرية ببكاء النساء المستسلم خلف الأبواب • على مؤخرة بيت « البرودن » ، التي يصل الطين الى ما يقرب من منتصفها ، وقف احد طيسور الخطاف • وعلى أفريز السطح كانت تزقزق الصغار وهى تطل برؤوسها الملونة من فتحة العش • بدت الشوارع خاوية وعلى جنباتها تجمع طين كثير يفوق ما يوجد فى فصل الشتاء • فى الميدان ، كانت السيدة « كلو » تكنس بهمة درجتى السلم المؤدى الى دكان الخردوات • على طابية الطوب اللبن ترتفع لافتة مكتوب عليها بحروف غير متسقة من القار : « تعيش دفعة ٥٦ ! » •

توقف « اللوى » عند حظيرة « الخوسيه لويس » فنادى عليه « النيني » بتصفيرة خافتة • عندئذ رآته السيدة « كلو » ، اتكأت على يد المكنسة وقالت له وهى تحرك رأسها الى أعلى وإلى أسفل وتعض على شفتها السفلى :

— « نيني » ، يا بنى • ما رأيك فى هذا العقاب ؟  
— ها قد رأيت •

— هل نحن أشرار لهذا الحد حتى يحل بنا هذا العقاب ؟  
— بالتأكيد ، يا سيدة « كلو » •

أمام الاصطبلات تقف سيارة « دون أنتيرو » وعلى نفس الناصية وقف صاحبها برفقة بعض الغرباء يتحدثون بأسى مع رجال القرية • تجمع هناك ، بعيون ملأها الحزن وظهور منحنية وكأنها تئن تحت وطأة حمل ثقيل ، « الخوسيتو » و « الخوسيه لويس » و « الرايينو تشيكو » و « الأنترليانو » و « الأجاييتو » و « الماتياس ثليمين » و « الروسالينو » و « ألبرخيليو » • كان « دون أنتيرو » ، الغنى ، يقول :  
— حقت الاستفادة من التأمين • لكن عليك بعدم الإبطاء ، « خوستو » ، تقدم اليوم عريضة لطلب قروض ائتمانية •  
والا سيكون الخراب شاملا ، أسمعت ؟

وافق « الخوستيتو » موافقه واهنة :

— أنت تعرف أنني سأبدل قصارى جهدى ، يا « دون أنتيرو » .

مر « النينى » دون اكتراث ، والكلبان ملتصقان بقدميه ، لكنه قبل أن يصل الى شجرة البرباريس سمع صوت « الأنتوليانو » المتلجلج :

— أنا . . . أنا ليس عندى تأمين يا دون « أنتيرو » .

وصوت « ماتياس ثليمين » الجنائزى :

— ولا أنا .

اتحد بصوت المختلس حفيف أصوات أخرى مثل جوقة :  
« ولا أنا » ، « ولا أنا » ، « ولا أنا » . عند شجرة البوباريس قطع عليه « البرودن » الطريق . بدا وكأنه شبح انشقت عنه الأرض فجأة :

— « نينى » — نادى — . القمح مكوم فى الحقل وسنابله سليمة — تحدث وكأنه يعتذر — : أنا . . . قاتامه الصبى دون أن يمسك عن السير :

— لا تدرس الا بعد جفاف الحب ، لكن لا تؤخر الدراس حتى لا يزرع الحب داخل السنابل . أمسكه البرودن من كتفه :

— انتظر — قال — . انتظر . تعتقد أن بإمكانى الدراس أمام تعاسة الآخرين ؟

هز « النينى » كتفيه . قال ، ناظرا الى حينه فى ثبات :  
— هذا شىء يخصك .

فرك « البرودن » يديه بلا حماس محاولا السيطرة على عصبيته . أدخل بعد ذلك يده اليمنى فى جيبه وأخرج منه بيزيتة :

— خذ ، هذه لنصيححتك لى . بالأمس . كنت أود اعطاءك  
أكثر ، لكنى مطالب بدفع ثلاث يوميات .

تجاوز « النينى » شجرة « البرباريس » التى عراها  
الثلج ووصل الى النهر . على الجانب الآخر من أشجار  
الصنوبر الثلاث تقابل مع « لويس » ، فتى « توريثيو ريجو » .  
الذى ابتسم له بأسنانه البيضاء دون أن يكف عن حث كلبه :  
— هيا ، هيا .

— ماذا تفعل ؟

— مرة أخرى ! ألا ترى ؟ أصيد . أيمكن عمل شئ آخر  
فى الحقول هذا العام ؟ — قال وهو يشير الى القمح المهشم  
الجاثم فوق الطين ، والى الحقول الممتدة التى تحولت الى حلقاء  
عقيمة .

— حدث نفس الشئ فى « توريثيو ريجو »

كان الفتى يسير بحذاء النهر على وقع خطوات الكلب بين  
نباتات البوص المهشمة . رد :

— لم يترك المطر سنبلة مستوية على عودها .

لاحظ الصبى الكلب المرقط :

— هذا الكلب غير متمرس .

— أبحث كلباك بطريقة أفضل ؟

أشار الصبى الى رأس « لافا » اللاهثة :

— هذه عجوز وعوراء ، لكن الكلب الصغير يستدل على  
الفئران وسيصبح متمرسا العام القادم .

ضحك فتى « توريثيو ريجو » وضرب حذاءه عدة مرات  
بطرف السيخ الحديدى :

— كلبى حديث العهد بالصيد أيضا .

- عمره لا يزيد بأية حال عن سنة .
- سيكملها فى « سان ماكسيمو » . كيف عرفت ؟
- من عينيه ومن فمه . ما اسمه ؟
- « لوثيرو » ، يعجبك ؟
- أنكر الصبى بهزة من رأسه .
- لماذا لا يعجبك الاسم ؟
- لأنه طويل .
- طويل ! بماذا تسمى كلبك اذن ؟
- الكلبة « فا » ، والكلب « لوى » .
- ضحك الفتى من جديد :

— من أجل كلب ، أى اسم (كويس) — أضاف ببرود .

وفجأة ، رفع الفتى عينيه وتقلصت ابتسامته حتى أصبحت تعويجة مندهشة على فمه . سمع « النينى » وقع الخطوات السريعة فرفع رأسه ليرى العم « راتيرو » وهو يسحق أعواد القمح المغشى عليها بقفزاته الواسعة . كان شاهرا سيخه الحديدى ويصيح بشيء غير واضح لا يرقى الى مرتبة الكلمات . لم يتوقف عندما وصل الى شاطئ النهر . ألقى بنفسه فى الماء ، مبربطا فيه وكأنه مدفوع بقوة خارقة وهجم على الفتى . نهض « النينى » بسرعة ، أمسك بسترته المهلهلة وجذبها للخلف بكل ما أوتى من قوة ، لكن الفتى كان قد أمسك بمعصم يد « الراتيرو » مبعدا سيخ الحديد ، بينما كان يصيح : « تعقل يا هذا » . و « الراتيرو » يتمتم بكلمات ويغمغم فى غير وعى : « الفئران تخصنى . الفئران تخصنى » .

وثبت « لافا » على الفتى ، ناشبة أسنانها بغيظ فى بطن ساقه ، فقفز « اللوثيرو » بدوره عليها والتحم الاثنان ، بينما

كان « اللوى » ، الكلب الصغير ، يتبع متحيرا ، دون أن يهتدى  
لأى جانب ينحاز .

بعد أن اقتنع « النينى » باستحالة الفصل بين الرجلين  
وقف يرقبهما وعيناه جاحظتان محاولا تهدئتهما بصيحاته ،  
لكن « الراتيرو » لم يكن يسمعها . كانت تدفعه قوة عمياء  
ويردد مرة بعد أخرى وكأنه يحمس نفسه : « الفئران  
تخصنى . الفئران تخصنى » .

ظل الكلبان يتشاجران بوحشية ، يعضان بعضهما بغضب  
وكاشفين عن أنيابهما البيضاء ، دون أن يتوقفا عن المهمة .  
تدحرج الكلبان فى الوحل وهما متكوران فاصطدم بهما  
« الراتيرو » وسقط بين أعواد القمح وجسد خصمه فوقه .  
حاول فتى « توريشيو ريجو » شل حركته بوضع ركبتيه فوق  
صدره وغمغم : « ت - ع - ل - يا - ه - ذا » ، لكن  
« الراتيرو » فوت عليه الفرصة ، تكور الى الأمام ودفعه  
بقدمه الى الخلف . نهض الرجلان وهما يرقبان بعضهما  
شزرا ، يلهثان ، والسيخان مرفوعان ، بينما استمر الكلبان  
فى اشتباكهما الشرس . كان « الراتيرو » هو الذى أخذ  
زمام المبادرة من جديد ، لكن الفتى تلقى ضربته بالسيخ  
وخلال بضع ثوان تعانق السيخان وتطاير منهما الشرر .  
« الراتيرو » ، الآن ، ظهره مغطى بالطين ، يراقب خصمه  
وجفناه مطبقان مثل حيوان ضار ، سدد لصدر الفتى ركلة  
هائلة بالقدم أسقطته فوق السنابل المستلقية على الأرض .  
جرى « الراتيرو » نحوه ، لكن الفتى ، فى التواء متوحش ،  
تفادى الجسد فسقط « الراتيرو » على وجهه فى الطين .  
عندما انتصب على قدميه كان لهاثة خشنا ، مكروبا ، مثل  
زئير . من حين لآخر كان يردد مثل آلة مبرمجة : « الفئران  
تخصنى . الفئران تخصنى » . طبقة سميكة من الطين كانت  
تغطى وجهه فاكتسبت عيناه ، بين الجفون التى سودها الطين ،  
بريقا فريدا . انتظر فتى « توريشيو ريجو » ، مقوسا بعض

الشيء ، بينما كانت نظريته تتارجح تارة على عيني «الراتيرو»  
وتارة على السيخ الذى يمسكه بأصابعه المتقلصة .

هجم عليه «الراتيرو» مرة أخرى مصوباً السيخ الحديدى  
على حنجرتة ، لكن الفتى تفادى السيخ فى الوقت المناسب  
فلم يحدث سوى خدش فى وجنته التى انبثق منها الدم فجأة .  
كانت «لافا» تنزف أيضاً من أذنيها وظهرها لكنها لم تتراجع .  
جسدا الكلبين كانا يختفيان أحيانا بين كثافة القش الملقى  
على الأرض ، لكى يظهرأ ثانية على بعد سبعة أمتار دون أن  
يكفا عن الشجار الدموى .

بعد أن تبددت حيرة « اللوى » التصق بساقى « النينى » .  
وهو ينتفض انتفاضات غريبة .

اشتبك الرجلان من جديد ، السيخان مرفوعان ،  
ويتمتمان بلعنات غير مفهومة . كانت وجنة الفتى مغطاة  
بالدم ومن خلال شفتيه المتشققتين المفتوحتين يرى فمه الجاف  
وهو يعب الهواء على جرعات مثل سمكة تحتضر . حاول  
جاهدا جرح عدوه ، لكن حد سيخه لم يصب الا سترة  
«الراتيرو» الذى سدد ، عندما أحس بمداعبة المعدن لجلده  
ومنتهزا فرصة الانهيار العارض لغريمه ، ضربة قوية من  
أسفل لأعلى فانغرس السيخ حتى مقبضه فى ضلع خصمه .  
تم كل شيء فى لمح البصر .

تمددت يدا الفتى وعندما سقط السيخ اختفى فى  
الطين . ابتعد عنه «الراتيرو» لاهثا ، وعندئذ ، تقدم الفتى  
نحو « النينى » مترنحا ، عيناه جاحظتان ، وعندما حاول  
التلفظ حجزت دفقات الدم الكلام . ظل برهة بلا حراك ،  
متداعيا ، وأخيرا خر على جنبه الأيمن وأغلق عينيه وكأنه  
يستريح . ارتجفت ساقاه بشدة مرتين أو ثلاثا . تقيأ من  
جديد ، وكأنه يريد منع هذا ، أمال وجهه ببطء وأخفى  
أساريه فى الطين .

رفع « النينى » العيينين المدعورتين تجاه « الراتيرو » ،  
ولكن هذا ، لاهثا حتى الآن ، اقترب من الجثة وأخرج منها  
سيخه الحديدى . اتجه نحو الكلبين المتشاجرين ، أمسك  
« اللوثيرو » من جلد رقبتة ويجذبه واحدة أبعد عن « لافا » .  
حاول الكلب ، دون جدوى ، عضه من معصمه بعد أن التفت  
اليه غاضبا ، لكن « الراتيرو » مزق قلبه بالسكين دون رحمة ،  
وأخيرا ، ألقى بجثته فوق جسد الفتى الممدد على الأرض .

كانت « لافا » تعوى متأللة وتلثم الجروح التى فى ظهرها  
أثناء اقتراب « الراتيرو » من النهر وغسله للدماء التى على  
السيخ بعناية . جلس « النينى » فى منخفض وأسند مرفقيه  
على فخذه . وصلت « لافا » اليه وجثمت تحت قدميه مرتجفة ،  
بينما كان « اللوى » ينظر متجشئا الى الجثتين اللتين يعط  
الذباب فوقهما تدريجيا .

عندما عاد العم « راتيرو » الى جوار « النينى » ، ظهرت  
فجأة ستة صقور سوداء وهى تطير عاليا فوق حلمة « توريشيو  
ريجو » . نظر الصبى الى « الراتيرو » الذى لا يزال يلهث  
فقال الأخير وكأنه يبرر فعلته :

— الفئران تخصنى .

أشار « النينى » باصبعه الى فتى « توريشيو ريجو » :

— لقد مات . الآن علينا ترك المغارة .

ابتسم « الراتيرو » ابتسامة ما بين بلهاء وماكرة :

— المغارة تخصنى .

نهض الصبى ونفض مؤخرته . تبعه الكلبان متداعيين  
وبعد أن تجاوزا شجرة البوباريس طارت سمانتان فى صخب .  
توقف « النينى » وقال :

— لن يتفهموا ما جرى .

— من ؟ — سأل « الراجيرو » .

— هم — مهم الصبي .

بدأ برج الكنيسة طافيا خلف الربوة وحوله أخذت في  
الظهور ، شيئاً فشيئاً ، بيوت القرية البنية وهي غارقة بين  
الضباب .



## اقرا فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى ٠ رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت ٠ و ٠ فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر ٠ ج ٠ فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ ج )
ليستريدل راى	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د ٠ قدرى حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكذوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير لغى - ومنطق
د ٠ محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س ٠ بى ٠ كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د ٠ عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وادبنيت	القوة النفسية للآهرام
د ٠ صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل ( محاورات فى مضمار	
الفيزياء الذرية )	فيرنر هايزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سندنى هوك
فن الادب الروائى عند تولستوى	ف . ع ادنيكوف
ادب الاطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النصل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البيير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	
التشكيلى	د . غبريال وهبة
الادب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الاوروبى الحديث ( ٤ ج )	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الاسرية والابناء الصغار	د . محيى الدين احمد حسين

ج . دادلى اندرو	تقريبات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
د . جوهان دورشز	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريكيين	حرب الفضاء
د . السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلين ل . باومر	الفكر الأوربى الحديث ٢ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف دامموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م بورا	التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
رونالد د . سمبسون	الحسب والطلاب والمدارس
ونورمان د . اندرسون	
د . انور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
والت وتيمان ريسستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
آلان كاسبيار	القذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندرامايكراما ماسينج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة ( ٢ ج )
روى روبرتسون	الهيرويين والايذز
هاشم النحاس	فجيب محفوظ على الشاشة

مصور افريقية	دوركاس ماكلينتوله
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيه ألدرتون
الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج )	جمعها : جون ر ٠ بورر
الفكر التاريخى عند الاغريق	رميلتون جولد ينجر
قضايا وملامح الفن التشكيلى	أرنولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د ٠ صالح رضا
بداية بلا نهاية	م ٠ ه ٠ كنج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جورج جاموف
حوار حول النظامين الرئيسيين	د ٠ السيد طه أبو سديرة
للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيسلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل البيلوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاي متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوه
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركستراالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة ( ٢ ج )	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة ( ٢ ج )	بيسرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرايس جونيور

عن النقد السينمائي الأمريكي

ترانيم زرادشت

السينما العربية

دليل تنظيم المتاحف

سقوط المطر وقصص أخرى

جماليات فن الاخراج

التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ ج )

الحملة الصليبية الاولى

التمثيل للسينما والتلفزيون

العثمانيون في اوربا

صناع الخلود

الكنائس القبطية القديمة في مصر ( ٢ ج )

رحلات فارتيما

انهم يصنعون البشر ( ٢ ج )

في النقد السينمائي الفرنسي

السينما الخيالية

السلطة والفرد

الأزهر في ألف عام

رواد الفلسفة الحديثة

سفر نامه

مصر الرومانية

الاتصال والهيمنة الثقافية

مختارات من الآداب الآسيوية

كتب غيرت الفكر الانساني ( ٣ ج )

الشموس المتفجرة

مدخل الى علم اللغة

حديث النهر

من هم القطار

ماستريخت

مضالم تاريخ الانسانية ( ٤ ج )

الحمالات الصليبية

حضارة الاسلام

ادوارد ميسرى

اختيار / د ٠ فيليب عطية

اعداد / موني براخ وآخرون

آدامز فيليب

نادين جورديمر وآخرون

زيجمونت هبئر

ستيفن أوزمنت

جوناثان ريلى سميث

توني بار

بول كولنسر

موريس بير براير

الفريد ج ٠ بتلر

رودريجو فارتيما

فانس بكارد

اختيار / د ٠ رفيق الصبان

بيتر نيكوللز

برنارد راصل

بينارد دودج

ريتشارد شاخت

ناصر خسرو علوى

نفتالى لوييس

هيربرت شيلر

اختيار / صبرى الفضل

احمد محمد الشنوائى

اسحق عظيموف

لوريتو تود

اعداد / سوريال عبد الملك

د ٠ ابرار كسريم الله

اعداد / جابر محمد الجزار

ه ٠ ج ٠ ولز

ستيفن رانسيمان

جوستاف جرونيباوم

ريتشارد ف . بيرتون	رحلة بيرتون ( ٢ ج )
ادمز مترز	الحضارة الاسلامية
ارنولد جزل	الطفل ( ٢ ج )
بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهريه
فرانسيس ج . برجين	الاعلام التطبيقى
ج . كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليههارت	فن المايما والبيانتومايم
الفين توفلر	تحول السلطة
ادوارد ويونو	التغيير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو فى السينما الفرنسية
جوزيف . م . بوجز	فن الفرجة على الأفلام
بول وارن	دنيا نظام النجوم الأمريكى
جورج ستاينز	بين تولستوى ودستوفسكى ( ٢ ج )
ويليام ه . ماثيوز	ما هى الجيولوجيا
جارى ب . ناش	البحر والبيض والسمود
ستالين جين . سولومون	المزاج الفيلما الأمريكى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الأمير رودلف ٢ ج
عبد العزيز جاويد	رسائل ماركوبولو ٣ ج
محمود سامى عطا الله	الفيلم التمسجلى
بانكو لافرين	الرومانكة والواقعة
ليوناردو دافنشى	نظرة التصوير
حزنف لدهام	تاريخ العلم والحضارة فى الصين



يعتبر ميغيل دي ليبيس مؤلف رواية الفتران أحد أهم الروائيين الأسباني من جيل ما بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، بل أن معظم النقاد يقدمونه على كاميلو خوسيه ثيلا الفائز بجائزة نوبل عام ١٩٨٩، وتتميز أعماله بنبرة إنسانية عميقة يعبر بها عن أوجاع وإانات المظلومين ويدافع من خلالها عن كل ما هو عفوئ وإنساني، وقد ترجمت أعماله إلى الكثير من اللغات، ونحن نقدمه اليوم إلى القارئ العربى فى تلك القصة الإنسانية التى تدور أحداثها فى الريف الأسباني فى قرية تعيش فيها الجهالات ويخيم عليها الظلم، فجل أرضها فى يد مزارع واحد لا يكف عن التبحج بحيره الذى يغرق أهلها وبطلها صبي لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره يعيش مع والده صياد الفتران فى كهف على قمة ربوة عالية، ورغم فقره لكن الصبي يتمتع بذكاء نادر يجعله مرجعاً لأهل القرية يسعون إليه لطلب الثورة، ومن خلاله يجسد الكتاب أفكاره عن التقدم والعدل الاجتماعى، فالصبي وإن كان صمداً لكنه لا يقبل قتل الحيوان لمجرد القتل، فهو يكره الموت ويقبل على الحماة، وفى ذات الوقت يسعى العمدة إلى طرده هو وأبيه من الكهف وهدمه حتى لا يشوه مظهر القرية فى عيون السياح الأجانب، إنه قصة عامرة بالدلالات يحاول من خلالها المؤلف أن يسخر من سوء الإدارة المركزية والنفاق الاجتماعى ويبين فداحة تحكم الآلة فى الإنسان وتراجع القيم الإيجابية فى إنسان العصر وإبراز مثالب الظلم الاجتماعى.